339
جائزة الشارقة للإبداع العربي | الإصدار الأول | الدورة 18 | 2014

مدونة ابو عبدو

رواق البغدادية

رواية

أسامة السعيد

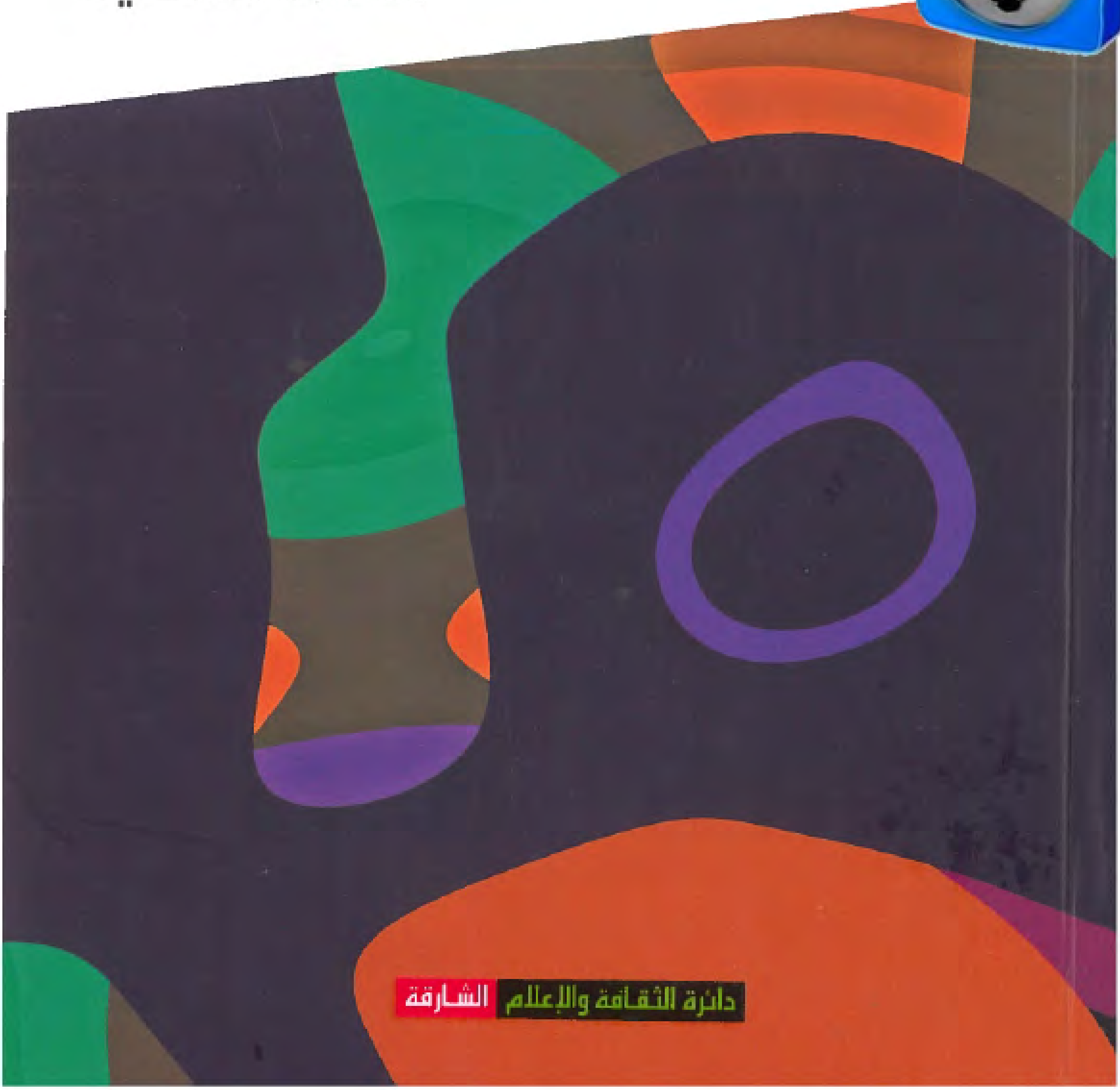

دائرة الثقافة والإعلام الشارقة

5583

رواق البغدادية

رواية

أسامة السعيد

رواق البغدادية

رواية

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2015 م

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: +9716 5123333
بـرّاق: +9716 5123303
بريد إليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

© حقوق النشر والطبع محفوظة
الطبعة الأولى 2015
صورة وتصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

813.030962
أ ا. ر
أسامة السعيد
رواق البغدادية: رواية / أسامة السعيد. ـ الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، دائرة الثقافة والإعلام، 2015.
348 ص. ؛ 21 سم.
ردمك: 978-9948-02-148-3
1ـ القصص العربية ـ مصر
أـ العنوان.

إهداء..

إليها...

في كل زمان ومكان

مزج أول:

معلّق أنا على مشانق الصباح

وجبهتي – بالموت – محنية!

لأنني لم أحنها.. حية!

مزج أخير:

الله لم يغفر خطيئة الشيطان حين قال لا

والودعاء الطيبون..

هم الذين يرثون الأرض في نهاية المدى

لأنهم... لا يشنقون!

لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت.. قيصر جديد!

وخلف كل ثائر يموت.. أحزان بلا جدوى

ودمعة سدى![1]

---

(1) من قصيدة «كلمات سبارتاكوس الأخيرة» للشاعر أمل دنقل.

مفتتح

«أقدمت الدولة على العناية بالمنشآت التي خصصت لاستقبال الأرامل والمطلقات مثل رواق أو رباط البغدادية، والذي كانت تودع فيه النساء اللاتي طلّقن أو هجرن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن، صيانة لهن، لما كان فيه من شدة الضبط، وغاية الاحتراز، والمواظبة على وظائف العبادات، حتى إن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحداً من استعمال إبريق ببزبوز، وتؤدب من خرج على الطريق بما تراه»[2].

---

(2) أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، الخِطط المقريزية المسمى بـ«المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار»، ج2، ص42.

(1)

القاهرة، فبراير 2010

كان يوماً عصيباً.

منذ الصباح كل شــيء يغالب توتراً يتصاعـد كلما مرت الدقائق، واقترب وصول الســيدة الأولى إلى موقع «شارع المعز» لافتتاحه، أو بالأحــرى إعادة افتتاحه بعد ترميمه، فقد حضــرتُ من قبل افتتاح هذا الشــارع مرتين على الأقل قبل تلك المناســبة، حيث اختارت «الســيدة الأولى» أن تقوم بنفسها بافتتاح الشارع.

حراستها المرافقة صارمة في كل تحركاتها، الضباط الذين وصلوا مبكراً إلــى موقع الاحتفال، يتحركون في صمت لكن بانفعال، بينما تم وضعنــا، نحــن الصحفيين، في آخر صفين بإحـدى القاعات الصغيرة داخــل بيت، قال المســؤول الــذي تحدثت إليه عند وصولي إن اســمه «رواق البغدادية» وعندما استفسرت عن معنى الاسم والقيمة التاريخية للمنزل، أشــار إلى آنسة تقف على بعد خطوات منا، ودعاها بالدكتورة ريم، قائلاً إنها أدرى بتاريخ المكان وقيمته.

هادئة كانت، رغم المحيط المشحون بالتوتر الذي يلفنا، ترتدي ثياباً

بسيطة داكنة الألوان تليق بذلك الصباح البارد. ملامحها ليس فيها ما يميزها عن غيرها من الحاضرات، لكن عينيها تحوي عمقاً مؤثراً، ولمحة حزن بادية للعيان. مدّت يدها في بساطة لتصافحني وتقول بابتسامة هادئة:

لستُ هاوية على لقب دكتورة!

قدمت لها نفسي في هدوء:

حسام يسري صحفي بمؤسسة أخبار اليوم.

تجاوزنا عبارات التعارف التقليدية، وعاد السؤال عن معنى اسم «رواق البغدادية» وقيمته التاريخية يلح على الحوار، لكن قبل أن تجيب ارتبكت القاعة بتحركات مفاجئة متوترة مجدداً، وبدا أن الحفل اقترب من الانطلاق، اعتذرت وهي تسحب إلى مقعدها، لكنها أشارت إلى أنها ستقدم عرضاً أمام الضيوف يستعرض جانباً من الإجابة، ولو احتجتُ إلى المزيد يمكنها أن تمنحني بضع دقائق عقب انتهاء الحفل، شكرتها على عجل وذهبت لمقعدي.

ثوانٍ وتوالى وصول ضيوف الحفل، قيادات وزارة الثقافة والوزراء، وأخيراً وزير الثقافة ورئيس الوزراء بصحبة «السيدة الأولى»، والتي بدت ملامحها أكثر تجهماً مما تبدو في الصور الرسمية التي تنشرها في الصحف، كما بدت عن قرب أكبر سناً مما تبدو في الصور التلفزيونية التي لا نجرؤ على الاقتراب إلا بقدر محسوب.

«الباحثة ريم عبدالمنعم تقدم عرضاً عن تاريخ بعض المنشآت المهمة التي تضمنها مشروع الترميم، وهي متخصصة في تاريخ المرأة

ABOOK SAHBAQ

في العصر المملوكي»، هكذا قدمها مذيع الحفل للضيوف، وبينما كنت مهتماً بما ستقول لأحصل على إجابة سؤالي، ابتسم وزير الثقافة، الذي كان معروفاً بأنه من الوزراء المقربين من السيدة الأولى، وأنها كانت وراء بقائه في الوزارة لأكثر من عقدين، ومال على «السيدة الأولى» التي اشتهرت باهتمامها بقضايا المرأة، ودار بينهما حديث هامس انتهى بابتسامة، بدأت بعدها الباحثة ريم في الحديث.

بثقة وهدوء تحدثت:

«تعود تسمية الشارع للمعز لدين الله أبي تميم معد بن منصور العبيدي رابع الخلفاء الفاطميين في تونس وأولهم في مصر، وقد حكم المعز خلال الفترة من 953 حتى 975 ميلادية، وهو الذي أرسل أكفأ قادته جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر من العباسيين، فدخلها وأسس مدينة القاهرة وبعدها افتتحها المعز وأسس له قصراً كبيراً عرف بالقصر الشرقي وأطلق اسم المعز على الشارع الرئيسي للمدينة، ولم يكن المؤرخون قد جانبهم الصواب حين أطلقوا عليه الشارع الأعظم أو القصبة الكبرى».

واصلت ريم عرضها وسط صمت واهتمام الحضور:

«يمثل شارع المعز لدين الله المحور الرئيسي لمشروع القاهرة التاريخية ويضم آثاراً ترجع لعصور توالت على مدار أكثر من ألف عام هي عمر الشارع التاريخي، فما بين مساجد ومدارس وأسبلة وكتاتيب وقصور وبيمارستانات أو مستشفيات تتنوع عصورها ما بين الفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني حتى عصر محمد علي، يزخر الشارع بالعديد من الكنوز والمباني التراثية، ومن بينه العديد

مـن البيوت لايـزال بعض جوانب تاريخها غامضـاً، مثل البيت الذي نجلـس في رحابه حالياً، ويعرف بـ«رواق البغدادية»، هذا البيت تقول المراجـع التاريخية إنه كان ملجأ لاحتجاز النسـاء المطلقات والأرامل مـن أجل الحفـاظ على العفة، لكنني أعتقد ومن خـلال بحثي وتحقيقي لعدد من الوثائق التي تم اكتشافها خلال عملية الترميم، وتتضمن بعض يوميات سـيدة عاشـت في هذا الرواق، أستطيع القول إنه لم يكن سوى تجسيد لازدواجية ونفاق المجتمع المصري في تلك الفترة، فبينما تشيع صنوف الفسـاد السياسـي والانحلال الأخلاقي فـي جوانب المجتمع، كانـت المرأة هي من يتحمل رغبة المجتمع في إظهار نزعته التعففية، ربما لاحتواء ضغوط رجال الدين المتشـددين، والتعمية على حقيقة ما يجري في المجتمع، وهو ربما ما يتماثل إلى حد يدعو إلى الدهشـة مع واقع مجتمعنا المعاصر».

كان يمكـن للأمـور أن تنتهي على خير لولا تلـك الجملة الأخيرة، والتي بدت كصاعقة أطلقها ذلك الفم الصغير، الذي بدا في تلك اللحظة كمدفـع صوب فوهته نحو كل الجالسـين في الصـف الأول، فأرداهم صرعى بغير دماء!

انفجـرت همسـات غاضبة، وتغيرت ملامـح، ومالت رؤوس إلى بعضهـا، وتحركت أقدام من اتجاهات شـتى في القاعة، وأشـاحت أيدٍ بعصبية، وبينما كانت تلك الباحثة الغامضة تتحرك في هدوء عائدة إلى مقعدها، تلاحقها عيون غاضبة بعنف في الصفوف الأولى، ومندهشـة ومصدومـة في الصفـوف الخلفية، قام وزير الثقافة مـن مقعده، داعياً «السـيدة الأولى» ومرافقيها إلى جولة ميدانية في الشـارع، مختصراً

علـى نحو مفاجئ بقية فقرات الحفل، وقبـل أن يخرج من القاعة التي باتت أضيق كثيراً من مسـاحتها التي بدت عليها في بداية الحفل، نظر نظرة خاطفة إلى تلـك الباحثة التي رفعت عينيها تبادل الوزير نظرته المتوعدة، بأخرى متحدية.

في لحظات خلت القاعة إلا من بعض العاملين فيها، وتلك الجالسـة في الصفوف الأولى مستسلمة لقدر ربما كانت تراه وهي تتجه بقدميها إليه، بينمـا وقفت حائراً لا أدري أين أدفع بخطواتي، أفي اتجاه الجمع الـذي غادر القاعة مضطرباً على عجل، أم أسـير عكس التيار، حيث تجلس تلك الباحثة التي بدت في تلك اللحظة منكمشة في صمت.

لماذا؟؟

بادرتها بسؤال ترتبك كلمته الوحيدة، وتضطرب حروفها الخمسة.

ألم أقل الحقيقة؟!

كان سؤالها تقريعاً أكثر منه إجابة.

ليس كل حقيقة تقال.

كل الحقائـق تسـتحق أن تقـال، إلا إذا كان قائلهـا أضعف من أن يتحمل توابعها، أو مستمعها أهون من أن يواجهها.

لم أجـد غير صمتي أرد بـه، وقبل أن أغادرها، تملكني إحسـاس بالشـفقة، لكـن عينيهـا أنكرتا عليّ إحساسـي، وبدتـا مصممتين على التحدي.

كانـــت ملامحها في تلك اللحظة أكثـــر ارتياحاً من تلك التي التقتني بهـــا قبل بدايـــة الحفل وكأنها ألقـــت عن كاهليها بثقـــل طالما ظلت تئن تحت وطأته، بينما كانت نقوش الســـقف تزداد تشـــابكاً وتعقيداً بشـــكل يثير الدهشة.

(عندما جاء فرح ابنة الأمير بكتمر الســـاقي أمر الســـلطان الناصر محمـــد بـــن قلاوون بإحضـــار جميع مـــن بالقاهرة ومصـــر من أرباب الملاهي إلى الدور الســـلطانية، ووقع الشـــروع في عمل الخوان، فأقام المهم ســـبعة أيام بلياليها، واستدعى السلطان حريم جميع الأمراء إليه، فـــكان أمـــراً عظيماً، فلما كانت ليلة الســـابع منه، جلس الســـلطان على باب القصر، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحداً بعد واحد، ومعهم الشـــموع، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشـــمع قبل الأرض وتأخر، ومازال الســـلطان بمجلســـه حتى انقضى تقادمهـــم، فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين شـــمعة زنتها ثلاثة آلاف وســـتون قنطاراً، فيما عني به ونقش نقشاً بديعاً تنوع في تحسينه، فكان أبهجها شمع الأمير علم الدين ســـنجر الجاولي، فإنه اعتنى بأمرها وبعث إلى عملها بدمشـــق فجاءت من أبدع شـــيء... حتـــى إذا كان آخر الليل نهض الســـلطان وعبر إلى حيـــث مجتمع النســـاء، فقامت نســـاء الأمراء بأســـرهن وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى، وهي تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة والنقوط، حتى انقضى تقادمهن جميعاً، ورســـم السلطان برقصهن عن آخرهن، فرقصن أيضاً واحدة بعـــد واحدة، والمغاني تضربن بدفوفهن، وأنواع المال من الذهب والفضة وشـــقق الحرير يلقى على المغنيات، فحصل لهن ما يجلّ وصفه، ثم زفت العروس، فكان هذا العرس من الأعراس المذكـــورة ذبح فيه مـــن الغنم والبقر والخيـــل والأوز والدجاج ما يزيد

على عشــرين ألفاً، وعمل فيه من الســكر برســم الحلوى والمشروب ثمانية عشــر ألف قنطار، وبلغ ما حمله الأمير بكتمر الســاقي مع ابنته من الشورة ألف ألف دينار مصرية)[1].

(1) أحمــد بن علي تقي الدين المقريزي، الســلوك لمعرفــة دولة المملوك، ج2، ص343 – 346؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تعزي بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص100؛ ابن كثير، البداية والنهاية ج14، ص157.

(2)

القاهرة، رجب 708هـ – يناير 1309م[2]

في تلك الليلة التي ترنح فيها الجميع من الفرح، كانت بداية مأساتي.

لم أكن أدري أن خطواتي نحو قصر السلطان، وسط أبهة زفاف ابنة الأمير بكتمر الساقي، الذي كان يعده السلطان أقرب أمرائه إليه، ستكون نهاية سنوات الهدوء في حياتي، أنا التي لم أعرف منذ صغري سعادة سوى لبضع سنوات، لكن الدنيا ضنت علي بسنوات أخرى أرى فيها ثمرة لحياة الاستقرار، ورمت بي مرة أخرى إلى وهاد الذلة، ومهاوي الهوان.

لم أكن راغبة في الذهاب إلى الزفاف، أيام حملي في نهايتها، وطفلي الذي أشتاقه يقترب من الخروج إلى الدنيا، وقد جاءت القابلة

---

(2) هذه الأوراق المتفرقة تم العثور عليها خلال أعمال الترميم التي جرت بين عامي 2008 و2010 لشارع المعز لدين الله بالقاهرة الفاطمية، وهي عبارة عن جانب من يوميات لسيدة تدعى خوند فرح أو دنيا الدمشقية، حسبما جاء في بعض مواضع الأوراق، التي وجدت مخبأة في أحد البيوت المملوكية القديمة، وتمثل قيمة تاريخية وأثرية مهمة للغاية، لأنها تتضمن تفاصيل غير مسبوقة عن مرحلة لم يكترث لها مؤرخو تلك الفترة كثيراً، وشهدت اضطرابات شعبية واسعة اجتاحت القاهرة خلال 708هـ – 1309م، وقد قامت الباحثة ريم عبدالمنعم بتحقيق ما تم العثور عليه من تلك الأوراق.

للإقامة في القصر، ووضعت «كرسي الولادة»[3] أمام البيت إيذاناً بدخول أيام المخاض.

ألححتُ على زوجي الأمير علم الدين سنجر الجاولي، أن يذهب وحده إلى الزفاف، لكنه رفض بعنف، فقد أمر السلطان أن يخرج كل الأمراء وقادة الجند بصحبة جميع نسائهم وجواريهم وغلمانهم للمشاركة في عرس ابنة أخلص أمرائه، وقد أراده السلطان ذكرى لا تنسى، وقد كان كذلك.

قلعة الجبل بدت ككتلة من نور في تلك الليلة المقمرة، وقال زوجي إن السلطان أشرف بنفسه على كل تفاصيل العرس، الذي أراده ليس فقط احتفالاً بزفاف، وإنما أيضاً احتفاء بانتصاراته الأخيرة على أعدائه في الشام في عام واحد.

أعددت الشموع التي أرسلت في طلبها من خيرة الصناع في دمشق، وتكفلت بعض صديقاتي هناك برعايتها لتكون تحفة تخطف الأنظار، وتسلب الألباب، وعندما جاءت الهدية التي اعتزمنا وضعها بين يدي السلطان لتكون هديتنا لابنة أقرب أمرائه، كانت بالفعل تحفة تليق بهذا العرس، وأيقن زوجي الذي لم يبخل في دفع ثمنها الباهظ، أنها ستكون طريقه نحو رضى السلطان وأهم أمرائه، وربما كان مبتغاه ذلك سبب إصراره على ذهابي رغم متاعب الحمل.

---

(3) كرسي الولادة كان أحد التقاليد المملوكية المعروفة لدى الأسر الكبيرة التي تنتظر أن ترزق مولوداً جديداً، إذ كانت القابلة تقيم لدى تلك الأسرة عدة أيام انتظاراً لساعة الوضع، ويوضع الكرسي علامة على ترقب ذلك الحدث السعيد، خاصة إذا جاء المولود ذكراً فيقبل الفقراء والمساكين ليحصلوا على «حلوان» المولود.

وقبــل أن أدخل إلى الحرملك بصحبة الجـواري نظر زوجي إليّ باهتمام، وقال بصوت لاتزال نبرته تتردد في أذنـي:

هذه ليلة لا تتكرر، سيُصنع فيها تاريخ، وأريدها بداية عزّ لا يزول.

أردت الرد، لكنه ســرعان ما اتجه وسط بعض مماليكه نحو مدخل القصر، فهززت رأســي، بينما ماج بطني بحركة مفاجئة، تبعها ألم لم يفارقني حتى بعد الولادة.

كانت كل نســاء الأمــراء وقادة الجند هنــاك، يتبارين في المفاخرة بما يلبســن من ثياب وشقائق الحرير، وأنواع الجوهر والذهب، تحلقت بعضهن حول خوند طغاي زوجة الســلطان، التي كانت ســيدة عظيمة الشــأن، مهيبة الطلعة، حادة الملامح، ســلمتُ وباركــتُ وآثرت تحت وطأة آلام بطني المنتفخ أن أتوارى في ركن بعيد، لكن دخول السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وســط كوكبــة من كبار الأمراء والقادة إلى جناح الحريم، أجبرنـي على العودة إلى أجواء الاحتفال ومغالبة آلامـي.

جلــس الســلطان على تخت أعد لـــه في صدر القاعــة، وإلى يمينه جلســت خوند طغاي ثم العروســان، وإلى جواره الأدنى جلس الأمير بكتمر وأهل بيته، وأذن السلطان بأن يتقدم الأمراء وقادة الجند بهداياهم، وكان كل أمير أو قائد يمثل بين يدي السلطان، ليقدم وبصحبته أهل بيته ما أعده من زينة الهدايا وفاخر الشموع، حتى جاء دور زوجي، فأشار إلــي فاتجهت إليه بخطى ثقيلة، وانحنيت بصعوبة بين يدي الســلطان، وقدم زوجي الشموع الدمشقية، فأبهرت السلطان وخوند طغاي والأمير بكتمر وأهل بيته، بزينتهــا التي لا تضاهى، وفصوص اللؤلؤ والعقيق تتدلى من جوانبها، في صنعة قلما تتكرر.

أثنى السلطان على هديتنا، وسأل عن مصدرها، فأجاب زوجي بفخر أنه طلب صناعتها خصيصاً لتلك المناسبة عند أمهر صناع دمشق، لكي تليق بمقام السلطان وأخلص أمرائه، تهلل وجه السلطان وآل بيت الساقي بالهدية الفاخرة وكلمات الإطراء، وأنعم عليّ السلطان بابتسامة رضى، وفاضت وجوه آل الساقي بحبور لا ينسى، وأملت أن نكون بذلك قد حققنا مراد زوجي، آويت مجدداً إلى ركني البعيد أتابع بقية الهدايا.

انتهى تقديم الهدايا، فأشار السلطان بسعادة بادية إلى زوجي، مثنياً مرة أخرى على هديته، لكنه في هذه المرة التفت إلى يساره حيث كان يجلس الأمير بيبرس الجاشنكير قائد المماليك البرجية المنافس الأكبر للأمير بكتمر، وسأله وهو يضحك:

كيف تفوق عليك تلميذك يا أمير بيبرس، ألست أدرى بدمشق منه، أم أن تلميذك يتحرك من وراء ظهرك؟!

ضجت القاعة بضحك صاخب، بعضه مجامل للسلطان، وأغلبه شامت في الأمير بيبرس الجاشنكير، الذي تقلصت ملامحه لوقع السؤال، بينما انقبض قلبي، فقد كنت أعرف هذا الرجل، وأعلم جيداً ما يكنه صدره من غلّ، وإحساس دائم بأن هناك مؤامرة تحاك ضده، ولم يكن صعباً تخمين ما يدور في رأسه في تلك اللحظات، فتلميذه بضربة واحدة يتقرب من السلطان، ونائبه الأمير الساقي، وربما في خطوة تالية يطيح به ويحتل مكانه، أدركت أن الرجل المتنمر لن يستكين، وبحكم علمي بشخصيته، توقعت أن يقفز مهاجماً، وأن يوجه ضربة عنيفة تخرجه من ركن الدفاع، إلى الانقضاض على فريسته.

صوب الأمير بيبرس الجاشنكير نظرة حانقة نحو زوجي ونحوي، استشعرت لهيبها في ركني القصي، ورد بصوت مفعم بالحقد:

يبدو أن تلميذي وأهل بيته يا مولاي يعرفون دمشق خيراً مني، فقد خبرتها زوجته لسنوات وهي تتعلم الغناء في أجنحة الحريم هناك.

كانت تلك الإجابة طعنة مصوبة بدقة إلى قلبي، وإلى كرامة زوجي الذي تجهّم فجأة، وعلم أن للأمر ما وراءه، وأن أستاذه قد تغير عليه، وقد صوب إليه رمحاً نافذاً، لكنه لا يستطيع رد الطعنة في هذا المقام.

وبينما كنت أتبادل وزوجي صمتاً محتقناً، وحيرة هوجاء، انسكبت نظراتنا عند أقدامنا، خجلاً وألماً من طعنة الجاشنكير، قطع السلطان الصمت الثقيل:

أو تغني زوجتك حقاً يا جاولي؟

بصعوبة وبعد تردد أجاب زوجي بعدما سدد إليّ نظرة منكسرة:

كان ذلك قبل زواجنا يا مولاي، وقد انتهى الأمر منذ سنوات.

وقبل أن يرد السلطان، سدد الجاشنكير طعنته القاتلة:

لكن تلك السنوات لا أعتقد أنها أفقدتها حلاوة الصوت، ولا بأس – بعد إذن مولاي – أن تتحفنا خوند فرح بغناء لا يقل نفاسة عن هدية العرس الدمشقية.

كدت أسمع غليان الدماء في رأس زوجي وأنا في أقصى أركان القاعة، وأدركت أن رفض طلب أستاذه الجاشنكير يعني خروجه عن طاعته، وهذا أمر له عواقبه، وأن قبوله يعني إهداراً غير مسبوق

لكرامة أمير مملوكي، فالغناء أحرى بالجواري والغانيات لا بالأميرات.

قطع السلطان المبتهج بالمبارزة الخفية بين الجاشنكير وتلميذه الصمت مجدداً، وقال لزوجي وقد استخفه فرح طاغٍ:

تلك هدية كبيرة يا جاولي، تليق بليلة كليلتنا هذه.

لم يجد زوجي رداً سريعاً، وطال صمته حتى بدأت ملامح السلطان تتغير، وبدت شفتاه تبحث عن كلمات، قبل أن تنسكب نظرته عند أقدام السلطان ومجاوريه من الأمراء، ويقول كأنما يردد آخر كلمات حياته بوهن واستسلام مخزٍ:

حباً وكرامة يا مولاي.

من بين غلالات الدمع التي غشت أرجاء القاعة في عيوني، لمحت يد زوجي تشير إليّ، بينما انطلقت المعازف، في لحن شجي، وكأن الأوتار تتماهى مع تمزقي، وتواسي آلام جوفي الحارة التي اجتاحتني كعاصفة صحراوية، وبعد طول صمت وتردد خرج صوتي خاضعاً.

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طللٍ
ولا أرقت لذكر البانِ والعلمِ

فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت
به عليك عدول الدمع والسقمِ

وأثبت الوجد خطَّيْ عبرةٍ وضنى
مثل البهار على خديك والعنم

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنـــي

والحبّ يعترض اللذات بالألمِ

يا لائمي في الهوى العذري معـذرة

مني إليك ولو أنصفت لم تلــمِ

عدتك حالي لا ســري بمســـتتر

عن الوشاة ولا دائي بمنحسـم[4]

(4) من قصيدة البردة للإمام محمد بن سعيد البوصيري.

(3)

القاهرة، مارس 2010

لم يكن من السـهل التواصل بعد ذلك مع ريم، خاصة أن طلبي من بعـض مسـؤولي وزارة الثقافة الحصول على رقـم هاتفها بعد ما كان خلال افتتاح شارع المعز، بدا أمراً مثيراً للدهشة، فكل مسؤول يسارع إلـى إنكار معرفته بهـا وكأنه يتبرأ مما فعلت، ولـو لم يطلب منه أحد ذلك، لكن سـؤال صحفي يعمل في صحيفة محسـوبة على السلطة عن رقم تلك الباحثة كان أمراً مثيراً للتساؤلات.

غالبت كثيـراً رغبتي في الحديث إليها، فأنا على يقين بأنني أعجز من أن أساعدها، فما قامت به كان أكبر منها ومن قدرتي على مساندتها، بل كان التبرؤ منها، مثلما فعل كل مسؤولي وزارة الثقافة هو الموقف الأكثـر عقلانيـة، وحتى عندما تحدثـت إلى رئيس التحريـر بعد ذلك عـن إمكانية عمل موضوع عن الكشـف المثير الـذي عرضته إحدى الباحثات خلال افتتاح شـارع المعز، متجاهلاً إثارة أية إشـارة بشـأن وقائـع الأزمة، فوجئت بنظرة خبيثة من تحـت نظارة رئيس التحرير كأنها تحاول التنقيب في سـريرتي، وكأنما يريد أن يقول لي «إياك أن

تتصـــور أن عدم نشـــر الواقعـــة لا يعني أنني لم أعــرف بها»، صمت رئيس التحرير لوهلة، قبل أن يقول:

لا يعقل أن أي باحث مجنون يقول كلمتين ننشر له موضوع!

وأضاف بنبرة العالم ببواطن الأمور:

علـــى فكـــرة وزير الثقافة كلمني بعد الاحتفال مباشـــرة، وتناقشـــنا بشأن التغطية، لا تشغل بالك بكتابة شيء عن الاحتفال وما جرى فيه، الوزير أبلغني أنهم سيرسلون بياناً رسمياً، وكل الصحف ستلتزم به.

كانت كلمات رئيس التحرير حكماً بالإعدام لا يقبل الاستئناف بشأن أية محاولة لإثارة الموضوع من قريب أو من بعيد، والغريب أنه حتى صحـــف المعارضـــة التي تتلقف مثل هذا النوع مـــن الأخبار، لم تجرؤ على نشـــر أية تفاصيل أو حتى تلميحات لما جرى في ذلك اليوم، رغم أن كثيراً من محرري تلك الصحف علموا بالواقعة.

إذاً لمـــاذا هذا الإصـــرار على الحديث إليهـــا أو التواصل معها، إن كان الأمـــر لن يفيدها أو يفيدني، بل على العكس قد يتســـبب في ضرر لأحدنا أو كلينا؟

الحقيقـــة أنني لا أعلم إجابة، كنت مدفوعاً بشـــيء غامض لا أعلمه على وجه الدقة، لكن هذا الشـــيء الغامض جعلني ســـعيداً للغاية بعد ما يقارب الأســـابيع الثلاثة من المحاولات الفاشلة، عندما استطعت أخيراً بمعاونة إحدى الســـكرتيرات في مكتب مسؤول بالوزارة الوصول إلى رقـــم هاتفهـــا الجوال، ورغم العديـــد من المحاولات للاتصـــال لم أتلقَ رداً، وبعد العديد من الرســـائل، اتصلت بي ريم، وجاءني صوتها عبر الهاتف آسفاً حسيراً.

تمنيت لو أسألها مباشرة عما جرى لها بعد ذلك اليوم المشهود، لكنني آثرت أن أتطرق للموضوع بشكل غير مباشر. تحدثت إليها عن محاولاتي الدؤوبة طوال الأسابيع الماضية للتواصل معها دون جدوى، فتورها أصابني بإحباط، وردت وكأنها تضيق بمكالمتي:

خير، فيه حاجة ضرورية تحتاجها مني؟!

خذلتني الكلمات، ووقفت وسط الجمل حائراً لا أستطيع التقاط أي منها أستر بها خجلي بعدما داهمني سؤالها البسيط، وجدتني بلا وعي أطلب لقاءها إن كانت ظروفها تسمح، حاولت الاعتذار متعللة بمشاغل شتى، لكن إلحاحي لم يترك لها مفراً، وأخيراً حددت موعداً ومكاناً للقاء في أحد مقاهي وسط القاهرة.

كان وجهها غير ذلك الذي احتفظت به عند آخر لقاء، اختفت نظرة التحدي، مخلفة وراءه إظلاماً مخيفاً، كيف يمكن للإنسان أن يكبر في بضعة أيام عدة سنوات؟ سألت نفسي وأنا أستقبلها مرحباً، وفاجأني عجزي وصمتي إزاء غيابها المفاجئ عن المكان، على عكس الحضور الذي استشعرته في قاعة «رواق البغدادية» قبل ما يقارب الشهر، غيابها الروحي رغم الحضور الجسدي أذاب كثيراً من حماسي للقاء، حتى بدأت أتساءل عن سبب طلبي لهذا اللقاء، ولولا أن نادل المقهى أنقذني من الغرق في لجاجة الصمت، لطالت بنا تلك الحالة السقيمة.

طمنيني عليك أولاً؟

أخيراً عثرت على صوتي، وألقيت بتلك الكلمات التي بدت لوهلة

بـــلا معنى، وكأنني أقتنصها من جبّ عميق جفّت مياهه منذ ســنوات، ولم يعد به ســوى هياكل ترابية لكلمات ميتــة، لكنها على الأقل أفضل مــن الصمت، «أولاً» وكأنني أملك «ثانيــاً»، أي زيف تضفيه كلماتنا علــى المعاني الحقيقية؟ أنا أعلم تماماً أنها ليســت بخير، وأنه لا يوجد «ثانياً» كي أقوله، كانت تلك الفتاة الجالسة أمامي زائغة العينين، أشبه بجثــة حية، مجرد وعاء من لحم تم تفريغــه من محتواه، الملامح تبدو متشــابهة، لكنها ليســت هي، العينان تحمل نفــس التكوين، لكنها فقدت أجمل ما فيهما، بريقهما.

أرجــوك تكلمــي، اهربي مــن وادي الأمــوات الذي تســجنين فيه روحك، ربما كان البوح وسـيلة عديمة القيمة أمام آلامنا الكبيرة، لكنه على الأقل أفضل من الصمت، فالألم مع الصمت موت بطيء.

أنـــا لا أعرفــك، ولم أتحدث معك إلا بضع كلمات، لكن أجد نفســي متورطـــاً فــي ألمك حتى النخاع، أستشــعر جرحك، وأنزف له، أشــتّم رائحة احتضار روحك، ومستعد أن أهلك دونك.

صدقيني أرجوكِ، أنا لم أكن أبداً صادقاً مثل هذه اللحظة، لم أشــعر بإنســان مثلما أشعر بك الآن، أرجوكِ امنحيني فرصة كي أثبت لنفسي دون غيرهــا أنني لم أفقد قدرتي على الإحســاس، أرجوكِ اخرجي من صمتــك، كي تخرج روحي أنا أيضاً من كهفها الجليدي الذي ســجنت فيه منذ سنوات بفعل الزيف والجبن والسعي المميت من أجل سرابات لا تتحقق أبداً، ولم يعد فيها بريق.

الحمد لله... لا تقلق محنة وستزول إن شاء الله.

نظرت مباشرة في عينيها، هزت رأسها وكأنها كانت تسمع صوتي

الذي لم يستطع أن يكسر قشرة صمته، كانت كلماتها إجابة عن سؤالي الذي كان بلا معنى، بينما كانت نظرتها العميقة التي طفت على سطح عينيها الغائرتين إجابة عن أسئلتي التي لم تطرح، وتفهماً لرجاءاتي التي لم تنطق.

كاد الصمت يحيطنا مجدداً، لكنني قررت هذه المرة أن أتحداه:

نحن الاثنين بحاجة إلى البوح، لا أستطيع أن أخفي رغبة غامضة في معرفة ما جرى، وقبل أن تسارعي إلى فهم خاطئ، هذا ليس فضولاً صحفياً، ولكنه ربما التزام إنساني تجاه شخص أكن له تقديراً عميقاً.

أشكرك على تقديرك، ولكن ما فائدة الكلام إن كان بلا جدوى أو غاية؟!

على الأقل لن ننفجر ونحن نعاني وحدنا.

بدت وكأنها اقتنعت بحجتي، وأظنها كانت بحاجة إلى أن تتكلم، كان وجعها أثقل من أن تحتمله وحدها.

تكلمت طويلاً، لم أقاطعها، كانت تصمت أحياناً، تقترب أمواج دمعها من شواطئ البكاء، لكنها تنحسر سريعاً، لربما جفّ الدمع من طول ما تدفق في الأيام الماضية، ربما لا تريد أن تنهار أمام غريب، ولربما هي أقوى من أن تبكي، أخبرتني بأشياء كثيرة، بعد ذلك اليوم.

جاء العقاب أسرع مما تصورت، في نفس يوم الافتتاح المشؤوم، تم إنهاء انتدابها في وزارة الثقافة، ورغم أن هذا الأمر كان متوقعاً

بعدما فعلت، لكنها لم تتوقع أن يكون الأمر بهذه السرعة، وتصورت أنه العقاب الوحيد، وكانت مخطئة.

في نفس الأسبوع فوجئت بوقف تسجيلها للدكتوراه التي كانت على وشك مناقشتها، بعدما تقدم أحد زملائها في القسم بكلية الآثار بشكوى يتهمها فيها بأنها سرقت رسالتها للماجستير، ورغم أن رئيس القسم كان هو نفسه المشرف على تلك الرسالة، ويعلم كذب هذا الادعاء، إلا أنه سارع بتشكيل لجنة علمية من أساتذة القسم للتحقيق في الشكوى، وأصدر قراراً على الفور بوقف تسجيل الدكتوراه لحين التحقيق في الشكوى.

قالت إنها مثلت أمام لجنة تحقيق، وفندت كل ما في الشكوى من مزاعم، لكنها استشعرت أن اللجنة أصدرت قرارها قبل أن تجتمع، أو أن أحداً أملى عليها القرار قبل أن تتشكل، مصيرها سيتحدد بعد أيام عندما تعلن اللجنة قرارها النهائي، والذي يكاد يكون معلوماً بالنسبة إليها، وأن الفصل من الجامعة سيكون عقابها لا محالة، ولن تكون سمعتها وكرامتها وحدها تحت نصل ذلك القرار، بل أيضاً عشر سنوات من عمرها ستمحى بجرة قلم، فبعدما كانت على وشك الحصول على الدكتوراه، وأن تواصل طريقها كباحثة في مجال التاريخ والآثار الإسلامية، إذا بها مطرودة من الجامعة إلى الشارع تلاحقها تهمة السرقة العلمية!

أي مصير أسوأ من ذلك يمكن أن أواجهه؟!

سألتني، ولم تكن تنتظر إجابة.

كل موقف له ثمن، وعليكِ أن تدفعي ثمناً كبيراً لموقف كبير.

حاولت تشـجيعها بلا جدوى، وقبل أن تنتهي جلسـتنا، طلبت منها أن نلتقـي مجدداً، فربما نجد فـي الحوار ملاذاً من ذلك الموت البطيء بالصمت.

ابتسـمت ابتسـامة مجهـدة، وهزت رأسـها بالموافقـة والامتنان، وانسحبت في هدوء، تكاد خطواتها تتهاوى.

(4)

القاهرة، رجب 708هـ – يناير 1309م

لم تحتمل أعصابي وقائع تلك الليلة، مع ختام أبيات بردة البوصيري، تملكنـــي ألم، كأنما جبل المقطم ينهار فـــي بطني، كنت غائبة في عالم، والنـــاس من حولي في عالم آخر، السـلطان ومن حولـه تتمزق أيديهم تصفيقـاً، بينما رحمـي يتمزق ألماً، حملني زوجي سـريعاً إلى دارنا، وهرع يوقظ القابلة، التي جاءت فزعة، ولما رأت الدم الذي ينهمر من تحتي كادت تسقط هولاً.

لهيـب يجتاح أطرافي، وعرق بارد ينهمر من جبيني، وأطياف من الماضي والحاضر تتراقص أمام عيني، أكاد أستشعر الرعب في وجوه المحيطيـن، القابلة تتحرك هنا وهناك، الجـواري ينتفضن لأوامرها، ودموعهن تغسـل وجناتهن، زوجي يدخل بين حين وآخر إلى الغرفة، أسئلته محشورة في حلقه، وعيناه تفيضان حزناً وألماً.

تظلـم الغرفـة من حولي، وأفيق فأجدني فـي طريق لا ينتهي طفلة بصحبة أمها هاربة من قتال رجال لا أعرفهم ولا دخل لي فيما يقتتلون عليـه، قريتنا مـن ورائنا تحترق، وخيول في الأفـق تطاردنا والموت

يتدحرج بين سنابكها تدفعه في اتجاهنا فنسابقه بأقدام مرتعشة خوفاً وتعباً، دموع أمي لا تتوقف، كل من حولي يبكي، الخطى لاهثة فراراً من مجهول إلى مجهول، أسأل عن أبي وإخوتي، يرد الصمت ودموع لا تجف، أواصل السير حائرة، تلوح أبواب دمشق في الأفق، أمد يدي إليها، فتبتعد.

أفيق على صرختي، ينتفض كل من حولي، «يا رب» أسمعها من شفاه لاهثة، لا أكاد أعرفها، هذه الوجوه كنت أعرفها، بهتت وتلاشت الملامح سريعاً، أين ذهب زوجي؟ لماذا يغيب عني في هذه الساعة؟ هل ألد أم أموت؟ أم أنني ألد وأموت؟ أين أنت يا قاتل أمك؟! أرني وجهك قبل أن أفارقك، كم أشتاق إلى وجهك، حتى ولو كانت ملامحك آخر ما أرى من الدنيا.

يستقبلنا جند السلطان عند أبواب دمشق، يبيعوننا للنخاسين، يتقاضون ثمننا دراهم معدودة، أصرخ وهم ينتزعونني من أمي، تصرخ أمي وتستسلم لسوط العسكر والنخاس الذي اشتراها، أفارقها لأول مرة في حياتي، أتراها تعود ثانية، أتراني أستعيد حضنها المفتقد؟ أراني فتاة في بيت أحد أمراء المماليك في دمشق، أتعلم الغناء وعزف العود في حرملكه المليء بالجواري، لا نراه إلا نادراً، فقط يرسل خصيانه لاختيار واحدة تذهب إليه مرة كل أسبوع، فإذا أعجبته طلبها في الأسبوع التالي، أحمد الله أن الخصيان لم يروا فيّ لصغر سني ما يغري سيدهم، ينضج صوتي وجسدي، الغناء سلوتي وتذكاري لحياة هانئة صارت مجرد أطياف، ما لا أدركه في حياتي أبثّه في غنائي، أين أنت يا صوتي، أين أوتار العود أبثها ألمي؟ لماذا أسمع صوت الأوتار بكاء وانتحاباً؟

ما هذا البكاء المتقطع، أيبكيني جســدي، أم يبكيني من حولي، أفتح عينـــي فــأرى وجه القابلة المنهــك يتفصد عرقاً ويداهــا بين فخذيّ في شغل، ما الذي أبكى الوتر؟

«إنـــه غلام».. تهتــف القابلة، ويتهلل وجه الجــواري من حولها، مازلــت لا أعرف ما يجري، أهذا ابني الــذي انتظرته طويلاً، وطرده ألم الغناء في قصر السلطان من رحمي؟ أم أنه ألم العود استحال طفلاً باكياً؟ لماذا تبكي يا طفلي، أنت سندي فلا تبكي، أنا من تحتاج أن تبكي، لكن الدمع بعيد، والصوت مذبوح بسكين الألم، أين أنت يا زوجي؟ تلك نبتتك في أرضي قد أثمرت وخرج برعمها إلى الحياة.

«مازالت تنزف».. تقول القابلة في أسى، أنظر إليها والعرق يتسلل إلى عيني فلا أســتطيع منعه، تتلاشـــى ملامحها ســريعاً، وأجد جسدي ثقيلاً وكأنما أغرق في بحر لجّيّ، ووسطي مربوط بحجر.

يجتاح جنود غرباء حرملك القائد المملوكي الذي نشأتُ في قصره، مَــن هؤلاء؟! لا أحد يجيب، يقتادوننـــا عبر وديان وقوافل، يقولون إننا صرنــا فــي مصر، لماذا جئنا، وأين أميرنـــا؟ لا أحد يجيب، نعرف أن أميرنا الســابق قتل بعد صراع مع أتباع الســلطان الجديد، وأن الأمير الذي آلت إليه أملاك أميرنا السابق يدعى الأمير بيبرس الجاشنكير، لا فرق، بين أمير سابق وأمير لاحق، لا يحق للجواري اختيار أسيادهن، ولكن هؤلاء الأســياد عبيد أيضاً مشــترون بالمال، فكيف يستعبد العبد عبيداً؟ يخرس ســؤالي فجــأة، لا مجيب، يحب الجاشــنكير غنائي، لا يهوى من النساء سوى صوتهن، أحمد الله، يهديني لأحد تلاميذه، الذي صار فيما بعد الأمير علم الدين سنجر الجاولي.

أين أنت يا علم الدين؟ أفتح عيني فيدهمني وجه بيبرس الجاشنكير، مـا الذي أتى به إلى هنا، كيـف يتجرأ على أن يدخل إلى غرفة نومي؟ أتراه تسلل من أحلامي، أم أنني أغرق في أركان ذاكرتي المؤرقة؟

أرى الذعر فـي أعين الجواري والقابلة، فأدرك أنني لا أحلم، وأن الجاشنكير يقف بالفعل عند مخدعي!

كيـف يتركه علم الدين يدخل إلى هنا؟ أريد أن أصرخ، أسـتغيث: يـا علـم الدين أين أنت؟ يا رب... لا أجد صوتي... لا مجيب، من جديد تتلاشى الصور والوجوه، ولا أعود إلى أي مكان، تضيع معالم دمشق والقاهـرة، أمي وزوجي، وحتى وجـه ابني الذي لم أره بعد يضيع في ظلام ثقيل وخانق.

(5)

القاهرة، مايو 2010

لا أستطيع أن أصف طبيعة العلاقة التي باتت تجمعني بريم، ربما كانت في البداية نوعاً من التعاطف مع مأساتها، وما تعرضت له من عقاب أليم، لكنني وخلال لقاءات متكررة بإلحاح مني وبعدم ممانعة منها على مدى الشهرين الماضيين، لا يمكن أن أقول إن الأمر يقتصر فقط على إظهار التعاطف، لا أجد توصيفاً دقيقاً لما أشعر به تجاهها، خليط من التعاطف مع الاحترام، ممزوج بشفقة، وإعجاب في الوقت ذاته، أحاسيس مرتبكة ومربكة تدفعني إلى مواصلة الإلحاح عليها لتكرار لقاءات، لا تزيد على تبادل حوارات تبدأ بالسؤال عن حياتها، وإن كان هناك جديد في مسألة فصلها من الجامعة، ثم ما يلبث الحوار أن يتشعب لقضايا شتى.

أتاحت إجازتها المفتوحة ـ هكذا كنت أصف وقفها عن العمل بالجامعة لحين انتهاء التحقيق في اتهامها بالسرقة العلمية في محاولة للتخفيف عنها ـ فرصة أكبر للقاءات متكررة، كما أنني لم أكن بالانشغال الذي أبدو عليه للوهلة الأولى، أنا نفسي كنت أعاني فراغاً كبيراً، أعرف مصدره، لكنني لا أعرف كيف أنهيه.

التقينا بصورة شبه منتظمة أسبوعياً، بدأت تستعيد كثيراً من حيويتها، وأدركت كم هي قوية وقادرة على الاحتمال، فرغم قوة الضربة التي تلقتها، والتي لم تتعاف منها نهائياً، لكن في الوقت نفسه من غير الواضح أنها قضت عليها.

استعادت ريم عبر لقاءاتنا على مدى شهرين كثيراً من تلك الروح المتحدية التي لقيتني بها في «شارع المعز»، وبدأتُ أكتشف فيها جوانب مثيرة لم يسمح حوار الثواني المعدودة في ذلك الصباح المتوتر باكتشافها، كانت غزيرة الثقافة في جوانب شتى، في الأدب، قارئة جيدة للشعر والرواية، لديها نشاط اجتماعي في مجال رعاية المرأة والخدمات الاجتماعية للفقراء، إضافة إلى اهتماماتها البحثية بالتاريخ المملوكي، وبخاصة تاريخ المرأة في ذلك العصر، الذي لاتزال تصر – رغم ما جرى – أنه أشبه بواقعنا المعاصر، وأن إعادة قراءة التاريخ المملوكي، قد تكون وسيلة جيدة لفهم بعض تعقيدات واقعنا الراهن، وفك اشتباكاته.

في معظم لقاءاتنا كنت أتعمد أن أستمع منها كثيراً، كنت أنا من يريد أن يملأ فراغ روحه، بما تسكبه تلك الفتاة المثيرة للدهشة في مناقشاتها من حماس ومواقف وجرأة في التحليل والرؤية، لكن بالطبع لم يكن الحوار من طرف واحد، فكان لا بد أن أتحدث أنا الآخر عن بعض اهتماماتي، حدثتها عن مسيرتي المهنية، وبعض اهتماماتي الأخرى، ومشاريعي الأدبية المؤجلة، وعدم إيماني بأن المجتمع المصري قادر على تقبل أفكار جديدة، أو الخروج من جبّ الجمود الذي دخله منذ عقود، وأننا بحاجة إلى زلزال أو ثورة فكرية تمحو هذا الجمود وتزيل طبقات الركود التي بات العقل المصري يرزح تحتها مستسلماً.

كثيـراً ما كانت تعارضني، وتتحمس بشـدة لرأيها، تقول إن مصر بحاجة إلى ثورة شاملة تضعنا أمام نفاقنا وصورنا المشوشة التي أدمنا تركيبها وتزييفها على مدى العقود وربما في القرون الماضية للهروب مـن صورتنا الحقيقية، وضربـت مثالاً على ذلك بقضيـة المرأة التي تراها سـبباً ونتيجة لكثير من مشـكلاتنا المزمنـة، فكثير من التيارات التي تدعي الاسـتنارة في مجتمعنا المصـري والعربي، هي أقرب في مواقفهـا الحقيقية من المرأة مـن تلك التيارات المتشـددة التي يصمها المثقفون بالجهل والتخلف، أو على الأقل فإن تيارات الاستنارة لا تملك الجرأة الكافية لمواجهة التيارات المتشـددة، وإعلان مواقفها الحقيقية، إزاء محـاولات إبعـاد المرأة عـن صدارة المجتمـع، وكأنها عورة لا يجوز لها سوى أن تستر بعيداً عن العيون.

خالفتها الرأي وحاولت أن أناقشها، لكن حماسها كان حاسماً، ويبدو أن لديها مشـكلة في الحوار، فاندفاعها وتمسـكها برأيها قد يدفعها في لحظة لمبادرة من تناقشـه بالهجوم، ففي أحد النقاشات وجدتها تصوب فوهـة هجومها إليّ وتقول إنه من الأفضل أن تصدم المجتمع بأفكارك وآرائك الجديدة، لا أن تتركها حبيسـة الأدراج، تتآكل مع الأيام، كيف يمكن للمجتمع أن يتغير إذا بقيت أنت صامتاً، وإذا واصلت حالة العزلة التي تفرضها على روحك داخل سـجن الرفض الصامت الذي صنعته لنفسـك؟ كيف يمكن للمجتمع أن يفيق مـن غفلته إن لم تكن تكلمت في ذلك اليوم وصفعت أقوى سيدة في الدولة بالحقيقة؟

أضافت وكلماتها تخرج حارة مندفعة:

هـل تتصور أننـي لم أكن أعـرف أن هناك ثمناً باهظاً سـأدفعه،

بالتأكيد كنت أعرف، وكنت مستعدة، صحيح أنني لم أتصور أن يكون الهجوم بتلك الخسة، لكنني راضية بأن أدفع الثمن، فمواقف بلا ثمن، هي أنصاف مواقف، ونحن ما وصلنا إلى ما نحن عليه إلا بالنفاق الذي بات متغلغلاً في جيناتنا حتى النخاع، نعيشه، نتنفسه، نتعلمه، ونعلمه، نزرعه في أطفالنا ونقول لهم إن ذلك من الأدب وحسن التربية.

كان كلامها جارحاً في بعض الأحيان، هممت بأن أدافع عن نفسي، لكنني تراجعت في بعض الأحيان، لا أوافقها دائماً، وأختلف معها كثيراً، لكنها دوماً أشجع مني في التعبير عن مواقفها، حتى هذه لم تتركها لي بادرتني في لقائنا الأخير بهجومها:

أنت لا تتفق مع كثير مما أقول، ومع ذلك تريد أن تحتفظ بلقاءاتنا، لذلك تصمت وتتفادى الخلاف، مع أنني لن أغضب إن أنت عبرت عن رأيك بوضوح، وسنظل أصدقاء، وربما صرنا أصدقاء أفضل إن نحن أدركنا اختلافنا، وفهمناه جيداً.

لم أستطع الرد، كانت ككرة لهب تطاردني في كل الأركان، أعترف أنني أحتفظ لنفسي في كثير من الأحيان بآراء لو أعلنتها لأشعلت ضدي معارك طاحنة، ودوماً كان الصمت أهون الخسائر، حكمتي الأثيرة أن السكوت من ذهب، لكن في كثير من الأحيان، يكون الصمت جبناً ونفاقاً وخداعاً، ربما علمتني مهنتي أن أجعل الآخرين يتكلمون ولا أتورط في إبداء موقف، لكن إدمان هذا الأمر ربما جعلني بلا موقف تقريباً، أو على الأقل أفضل أن أحتفظ بمواقفي لنفسي.

كانت ريم نقيضاً لشخصيتي، الطرف المقابل لروحي الهادئة ظاهرياً، المتفجرة داخلياً، وربما هذا ما جذبني إليها، كنت أرى في

وجهها المتقد ملامحي الباردة، أكتشف خجلان في شجاعتها تخاذلي المؤلم، وأكره أمام إقدامها هروبي المتواصل، أردت أن أرى ذاتي المتوارية في مرآتها الشفافة، فنحن قد نستطيع ممارسة الخداع على الجميع، وأحياناً نخدع أنفسنا، لكن يظل جزء منا كامناً في الروح أو القلب أو العقل أو الضمير، لا أدري، هذا الجزء المستكين يحمل حقيقتنا التي لا نريد للآخرين أن يطلعوا عليها، والتي تظل موجودة وكامنة رغم كل محاولات الوأد والإخفاء، بعضنا يستطيع أن يتعامى عن حقيقة نفسه، والبعض ينجح بفعل مساحيق التجميل التي يستخدمها لطمس حقيقة روحه بها في نسيان الملامح الحقيقية لتلك الروح، لكن في لحظة ما تتكشف الحقيقة، تواجهنا بملامحها وتجاعيدها التي بالغنا في إخفائها، تصفعنا بوجهها وهي تشيخ وتكبر وتتشوه رغم كل محاولات الإنكار، في لحظة نراها إذا ما نظرنا إلى داخلنا، وكلما ابتعدنا عنها أو حاولنا، تكون صدمتنا عند المواجهة، لكن ربما من يحاول أن يقترب بصدق وتسامح من حقيقة روحه قد لا يجدها بهذا القبح الذي كان يتصوره.

ممكن أن تساعديني على إعادة اكتشاف روحي؟

ألقيت السؤال فجأة بعد صمت طويل، إثر نوبة هجوم حماسية من جانبها.

تقلصت ملامح وجهها، وضاقت حدقة عينيها، مستفسرة عن حقيقة ما أريده منها، حاولت أن أشرح لها ببساطة ما أريد، لكنه كان معقداً بالفعل، أخبرتها أنني أستشعر في وجودي معها حالة تعيدني إلى ذاتي التي اشتقت إليها، ليست تلك الذات التي تبدو في العلن، تكتب وتتكلم

وتحظـى برضى وربما إعجاب وتقدير الآخرين، لكنني في الحقيقة لا أستشـعر أنها تنتمي إليّ، أشـعر بأن من يتكلم شخص يرتدي وجهي، وينتحل اسمي، ويتعامل مع الجميع كأنه أنا، لكن «أنا» الحقيقي مسجون بداخلـي، صامت، منكمش فـي ركن مظلم، يبكي أحيانـاً، ويراقب ما يفعله ذلك الظاهر المسـيطر، لكنه أعجـز من أن يمنعه، وأضعف من أن يصرخ ويقول للجميع إن من يتحدث باسمه شخص مدعٍ ومنتحل.

بدت عليها الدهشـة والاسـتغراب، لكنهـا في هـدوء أجابت بأنها مسـتعدة أن تفعل من أجلي أي شـيء، طالما أن ذلك سيكون في صالح «إعادة اكتشاف روحك».

شـكرتها على مسـاندتها لي، وقبل أن تنتهي جلسـتنا، طلبت منها مطلباً كنت أعرف أنه ربما يكون صعباً عليها في هذه الفترة:

ممكن يكون لقاؤنا المقبل في «شارع المعز»؟

ترددت لفترة قبل أن تجيب، الأمر ليس سـهلاً، لكنها هزت رأسها في صمت وعبرت عينيها غمامة من الأسى، قبل أن ترد بالموافقة.

(6)

القاهرة، شعبان 708هـ – فبراير 1309م

لا أدري أأيام مرت أم أسابيع، أم دهر كامل قضيته وأنا بين أنياب تلك الحمى التي مزقت أحشائي، وتركتني كفريسة خائرة القوى، منهكة، لا أقوى على شيء؟

كل ما أتذكره أنني عندما أفقت وجدتني في غرفة تكاد تكون مظلمة، موحشة تماماً، أعاني من ظمأ قاتل، حلقي كرمال ملتهبة، حاولت النهوض، خذلتني ذراعاي، حاولت رفع صوتي بالنداء:

مااااء... أريد ماء.

فُتح الباب عن وجه أعرفه، كانت صديقتي وجاريتي ورد، بدت حزينة على خلاف طبيعتها المرحة، طلبتُ منها أن أشرب فجاءتني بقدح من الماء، وأنهضتني لأشرب، شعرت بالماء يقطع أمعائي، لكن حاجتي للماء كانت أقوى من الألم، فشربت حتى ارتويت، وبعدها سألتها أين نحن؟ فلم أجد رداً غير بكاء مرير.

أيام مرت، استطعت بعدها أن أستجمع بعض قواي، وأعرف ما

جـرى، وليتني مـا عرفت، قصّت عليّ ورد جانبـاً مما جرى بعد تلك الليلة المشؤومة.

دهمتني آلام المخـاض وأنا في قلعة الجبل، فأمر زوجي الجواري بحملي إلى البيت، وهناك بدأت سـاعات عصيبة لولادة متعثرة، كدت خلالها أموت أكثر من مرة، وفي إحداها غبت عن الوعي طويلاً، حتى ظنـت القابلة أنني توفيت بالفعل، فبكـت، وعندما اقتحم زوجي الغرفة إثـر سـماعه نحيب القابلة والجـواري، أخبرته تلك المـرأة أنني متّ، أصيب بلوثة، واستل سيفه وخرج منطلقاً من الدار قاصداً قصر الأمير بيبرس الجاشـنكير، عازماً على قتله جزاء على ما فعله في زفاف ابنة الأمير بكتمر الساقي، فقد أيقن أن فعلته كانت سبباً في موتي.

بعد خروج زوجي بقليل، عاد إليّ الوعي، واستطاعت القابلة أخيراً أن تخرج طفلي من أحشـائي، لكننـي غبت ثانية عن الوعي، وغيبتني الحمـى طويلاً، وظلـت القابلة إلى جواري أيامـاً، وجاءت بطبيب في محاولة يائسة لإنقاذي، بينما كان الجميع يرى أنني أوشك على مفارقة الحياة.

أخبرتنـي ورد أن زوجـي ذهب في تلك الليلة وقـد أعماه الغضب إلى قصر الجاشـنكير واشـتبك مع حامية القصر وقتل بعضهم، ونجح في الدخول عنوة إلى القصر، لكن الجاشـنكير كان لايزال في العرس الممتـد حتى الصبـاح في قلعة الجبل، فعاد إلـى القلعة محاولاً دخولها لكن جنود الأمير بكتمر السـاقي منعوه، وعندما أبلغوا الأمير السـاقي بمـا جرى، أمر بالتحفظ على زوجي في غرفة بقصره ريثما ينظر في أمـره، وعندما علم الجاشـنكير بما فعله زوجي خـرج غاضباً يطلبه،

وجــاء إلى البيت بجنده واقتحم غرفة نومي، ولما لم يجده أعمل ســيفه فيمن حاولوا صده عن الدخول عليّ من الجواري والعبيد، وانتزع ابني الوليد من القابلة، وخرج يطلب رأس زوجي.

بقية القصة كانت مصر كلها تعرفها، فقد خرج الجاشنكير إلى قصر الأمير بكتمر الساقي يطلب تسليم زوجي ليقتص منه، لكن الساقي منعه فاشتبك جند الأميرين في معركة سقط فيها الكثير من الجانبين، وانحاز السلطان لموقف الأمير الســاقي، وطلب من الجاشنكير سحب جنوده، لكن هذا الأخير استشــعر الإهانة في حكم السلطان، ولما كان نفوذه قد قــوي خلال الســنوات الأخيرة، فقد أغراه الأمير ســلار الرجل القوي فــي المماليك الصــالحيــة والمنصورية، والــذي كان يطمع في منصب أســتاذه وأميره بكتمر الساقي، بأن يخرج على السلطان، وعاهده على ألا تتحرك المماليك البحرية لإنقاذ قائدها أو حماية السلطان، واستطاع بمعاونــة بعض قادة الجنــد ممن أغراهم بالمــال وبالمناصب في عهد الجاشــنكير عندما يتولى الســلطنة أن يحاصر الساقي في قصره، بينما فر السلطان وأسرته إلى حصن «الكرك»، وتم تنصيب الأمير بيبرس الجاشنكير ملكاً على البلاد، واتخذ لنفسه لقب الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشــنكير المنصوري، بينما صار الأمير سلار نائباً للسلطنة وقائداً للمماليك البحرية.

أما زوجي، فلا أحد يعرف مصيره، البعض يقول إن الأمير بكتمر الســاقي ســلمه إلى الجاشــنكير مقابل الســماح له بالخروج مع آل بيته بصحبة الســلطان إلى «الكرك»، والبعــض الآخر يقول إنه قُتل خلال محاولتــه الخــروج من قصر الســاقي، وآخرون يقولــون إنه نجح في الفــرار خــارج مصر هرباً من الموت على يد الجاشــنكير أو تســليمه

من جانب الساقي، أما ابني، الذي لم أختر له اسماً أو أرى له وجهاً، فلا أحد يعرف مصيره منذ أن اختطفه الجاشنكير، هل قتله؟ هل ألقاه بالعراء؟ هل ألقى به إلى بعض الجواري ليتعهدوه؟ أين ابني الآن؟؟ لست أدري، فيا لويلتي من حرقة السؤال، وقسوة الإجابة!

لولا مرضي والحمى التي أصابتني لكنت الآن تحت الثرى، ربما كان هذا المصير أكثر رحمة مما أنا فيه الآن، على الأقل كنت سأعلم مصيري، ولن يقتلني ألم البحث عن أشتات أسرتي كل يوم، أو يمزق قلبي قسوة الهوان الذي ألقاه في حياتي الجديدة، يا ليت الجاشنكير قتلني يوم اقتحم غرفتي وأنقذني من تلك المأساة التي أعيشها اليوم، لكنه أراد أن يقتلني كل يوم، قرر بعدما تولى السلطنة الاستيلاء على كل ممتلكات زوجي، الدار وإقطاعيات الأراضي، والجواري، وألقى بي هنا في «رواق البغدادية»، حيث تُلقى المطلقات والأرامل لينتظرن مصيرهن المحتوم، يعيشن كنفايات لا تستحق أن تختلط بالمجتمع، كحيوانات مصابة بالجرب، لا بد من عزلها بعيداً عن ذلك المجتمع الطاهر النقي!

أي عبث ذلك الذي بتّ أحياه في هذا المكان الخرب؟! النساء ملقيات في الغرف المقفرة كفئران مصابة بالطاعون، يُلقى إليهن بكسرات الخبز، ومحظور عليهن الخروج أو النظر إلى نور الشارع، الصلاة تفرض بالضرب والجلد، لا حقوق هنا لأحد غير القائمة على الدار، هي الآمر الناهي في كل شيء، لو قتلتنا هنا لما علم أحد بالخارج ما جرى لنا، بل إن هؤلاء الذين ألقوا بنا هنا يتمنون أن نختفي من الوجود، أن نتبخر حتى لا يتحملوا حتى عبء التفكير في مصيرنا.

في الأيام الأولى، لإقامتي في هذا البيت المقفر، لم أغادر غرفتي المظلمة، كانت ورد التي لم أعد أستطيع أن أصفها بجاريتي، فقد صرت وإياها سواء وأعادتنا المأساة للوراء سنوات بعيدة، هي شريان اتصالي بالحياة، تأتيني بالماء والطعام، وتقصّ عليّ جوانب مصيبتي التي كنت أجهلها، أخبرتني أنها أصرت على البقاء إلى جانبي، وأن جنود الجاشنكير استجابوا لها بعدما أقسمت لهم أنها ستقتل نفسها إن هم أجبروها على مفارقتي وأنا على حالتي تلك، وأنها بمعونة أحد تلاميذ الجاشنكير الذي كان صديقاً لزوجي ورقّ قلبه لمأساتي استطاعت أن تبقى إلى جواري ريثما أستعيد قواي، ثم تعود إلى حرملك الجاشنكير، الذي صار يعج بالجواري بعدما استولى السلطان الجديد على كل أملاك السلطان الناصر، وكذلك أملاك الأمير الساقي، وأملاك زوجي التي لا تكاد تجاوز نقطة في بحر أملاك السابقين.

كان مرضي سبباً في نجاتي من الموت، والآن شفائي يدفعني لفصل جديد في مأساتي، لا أعرف إن كان يفترض بي أن أشكر الله على المرض أم أدعوه ألا أشفى؟!

(7)

القاهرة، في يونيو 2010

كنت أعلم أن العودة إلى مواضع الألم تجدد الإحساس به، فالذكرى أحياناً تكون أشد وطأة من لحظة الجرح ذاتها، ففي اللحظة الأولى قد لا ندرك أبعاد ما يقع لنا، لكن عندما نعود إلى تلك اللحظات بكامل وعينا، يكون الجرح أشد إيلاماً.

كان تقديري لمجيء ريم إلى «شارع المعز»، رغم ما قد يسببه لها ذلك من وجع، كبيراً وعميقاً، لكن المفاجأة أنها كانت مقبلة بقلب منطلق لبدء الزيارة والجولة في المكان، وكأنها كانت تنتظر من يشجعها على العودة إلى هذا المكان الساحر.

حاولت أن أشرح لها سبب رغبتي في أن أعود معها إلى هذا المكان، الذي لم أزره سوى في يوم الافتتاح، لكن شيئاً بداخلي تعلق به، ودفعني للعودة إليه مجدداً، قاطعتني وهي تأخذ بيدي لنبدأ جولتنا بالشارع الغامض الذي حوى أقداراً وذكريات كم تمنيت لو أحيط بها، قالت إنها وقعت من قبلي في عشق هذا الشارع، وإن العاشق لا يمل أن يعود إلى معشوقه، مهما تسبب له من ألم، كما أن تلك اللحظات

التي كنت شاهداً عليها، لا تقارن بساعات وأيام وشهور جميلة عاشتها داخل أحضان هذا المكان تستنطق جدرانه وتنقب في جنباته، علها تكتشف شيئاً مما لم يبح به من قبل، وهي على يقين بأن هذا المكان والقاهرة الإسلامية كلها لاتزال تكتم أسرارها، لا تريد أن تفتح قلبها لنقرأ ماضيها الكبير، وربما لأن أحداً لم يحاول الاقتراب من أسرار ذلك القلب بعشق، فالعشق هو كلمة السر التي تفتح بها مغاليق الأبواب والقلوب.

أرادت أن تكون الجولة طويلة قدر الإمكان، انطلقنا من رحاب مسجد سيدنا الحسين، وجواره الجامع الأزهر، شموخ الجدران والمآذن كان تمهيداً لعظمة الرحلة وأسرارها الدفينة، وربما تقف تلك الجدران العالية ساتراً لقصص وحكايات لم تروَ حتى اليوم في الدروب المتعرجة والحواري والأزقة التي يحويها المكان، هنا تختلط روائح التوابل بعبق الماضي ودفء الزحام، الأصوات تتداخل، نداءات الناس ودعواتهم، وشتائمهم، همهمات السائحين، ورنات صاجات بائع العرقسوس، صوت أم كلثوم يصدح من جوف أحد المقاهي، يعانق ترتيل الشيخ عبدالباسط عبدالصمد يترقرق من أحد محلات بيع أشرطة القرآن الكريم.

يممنا يساراً عبر خان الخليلي، ذلك المكان الأشهر الذي يعرفه الأجانب أكثر مما يعرفه المصريون، البازارات الممتلئة عن آخرها بالتذكارات العربية، والهدايا النحاسية، وتماثيل فرعونية وأخرى إسلامية وعقود الفيروز تتدلى من الواجهات تعانق السجاجيد بنقوشها العربية الدافئة، حتى أدوات الشيشة لم تخلُ من زخارف ونقوش بديعة، تجعل تناول الشيشة تجربة فنية ومزاجية في الوقت ذاته، أبحث

هنا أيضاً عن وجه نجيب محفوظ، أحسسته يطل علينا من داخل مقهى «الفيشاوي»،عند موضع خطواتي هنا مشت أقدام حملت قصصها عبر أكثــر من ألف عــام، بعضها نعرفه، وأغلبهــا لا نعرفه، تلك القصص التي تُحكى تعيش، وما يبقى أسـير الصــدور محكوم عليه بالموت مع أصحاب الحكايات.

نظرتُ إلى ريم التي باتت خطواتها أقرب إلى القفز في رحاب هذا المكان، أي قصة تنتظرني معك؟ التفتت فجأة وكأنها سمعت سـؤالي الذي لم أنطقه، فلم تصمد عيناي، وسارعت بالهرب.

كم يبدو هذا المكان مليئاً بالتفاصيل، تخطيط الشـوارع والحواري المتداخلة التي لا يمكن أن تخضعها لنمط عمراني محدد، بل هي دوماً تفاجئـك، وتتحايل علــى قوالبك الجاهزة، وأفكارك المسـبقة، تفاصيل واجهات البيوت والمشـربيات، والأبواب، ونقوش الخشب على منابر المســاجد وأواني النحاس والصدف الذي يرصع وجه التحف الخشبية، وأشغال الأرابيسك، ونقوش الخيامية، كلها دروب متداخلة، تفاصيل لا تستسلم لك من النظرة الأولى، كامرأة خجلى لا تمنح سرّها لعابر سبيل أو طارق متعجل، لا بد أن تعرفك وتعرفها حتى تفتح لك ذاتها، تمنحك فرصة الاقتراب منها، إنها روح واحدة تلف المكان وسـكانه وأشــغاله وتتسلل سريعاً حتى لضيوفه وزواره.

اجتذبنــي بيت هائــل الحضــور، بواجهته الأنيقة ونقوشــه المعقدة وتفاصيله المتداخلة، شـعرت بأنني أعرف هذا المكان، رغم أنني أراه للمرة الأولى، أحسســت أنني وقفت وراء شـرفاته ذات يوم، مع أنني أخطــو اليــوم أولى خطواتي تحت تلك الشـرفات، أيكون الماضي حياً

إلـــى هذا الحد في داخلنا، أم أن ما يقال عن تناســخ الأرواح صحيح؟! أشــعر بأن روحي سكنت هذا البيت في زمن غابر، سألت ريم عن هذا البيــت المتألــق، فردت بفخــر: هذا «بيت الســحيمي» واحد من أجمل بيــوت قاهرة المعــز، كل ركن وكل حجر في هذا المكان شـــاهد على عصر، منذ إنشـــاء المدينة، ومبان عــدة تتوالى على هذا الموقع، حتى وصلنا إلى هذا البناء بشــكله الحالي الذي بني في عهد العثمانيين، لكن كل الأدلة تشــير إلى أنه بني على أنقاض دور شـــامخة أخرى ســبقته فـــي الزمن، وشـــهدت الكثير من الأحداث، وجدتني منســاقاً إلى داخل البيت،عبر بوابته الخشــبية العملاقة فإذا بفســحة بهــو الدار تحتويني، وكأنها تحتضـــن غائباً عنها، عاودني الإحســاس بأنني أعرف المكان حــق المعرفة، قادتني خطواتـــي الهائمة في رحاب المــكان إلى إيوان الاســتقبال، تتبعني ريم في دهشـــة، كانت أبيات بردة البوصيري تزين جدران الإيوان:

أمــن تذكّــر جيــران بــذي ســلمِ
مزجت دمعاً جــرى من مقلة بدمِ

أم هبــت الريح من تلقـــاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضمِ

أغادر البيت بجســدي ولا تغادره روحي، تتخطفني أســبلة شـــارع المعز، مجموعة الســلطان الغوري، وجامع الســلطان قلاوون، قصر الأمير بشــتك، ومســجد الأقمر، ويطل من بعيد مسجد الحاكم، اقتربنا من نهاية الشـــارع، وكلما توغلنا أكثر تتباطأ خطواتنا، ليس فقط بفعل الرغبة في تأمل كل ســنتيمتر من المكان، ولكن بســبب حالة الترحاب

التـــي حاصرتنا من كل العاملين في الشـــارع، والذين كانوا يتنافســـون علـــى الترحيب بريـــم، ويصـــرون بحميمية شـــديدة على استضافتها واقتنـــاص دقائق من حضورها، ورغـــم محاولات التهرب المهذبة من جانبها، والوعود التي تتطاير بالعودة لشـــرب الشاي معهم، كان الأمر من الصعوبة بحيث استغرق الكثير من وقتنا، لنجد أنفسنا مباشرة أمام موقـــع الذكـــرى، وهل في مثل هذا المكان ســـوى الذكريات؟ قلت لريم محاولاً الهروب من استعادة تلك اللحظات المزعجة، أريدكِ أن تحدثيني عـــن «رواق البغدادية»، وهل حقاً كان منفى للأرامل والمطلقات، وما حقيقة ما ذكرته عن أنه رمز لإذلال المرأة في ذلك العصر، استغرقت دقائـــق وهي تحتوي واجهة البيت بعينيها، قبـــل أن نتحرك إلى داخله، مدخله المقبض لا يمكن أن يتسق مع داخله الفسيح، وكان من الواضح أن أعمـــال الترميم قد أضفـــت طابعاً جمالياً على المـــكان ربما لم يكن متوافراً في البناء القديم.

أجابت ريم وهي تنقل خطواتها بتثاقل إلى وسط البيت الذي تجاوزنا من أجل الوصول إليه حارســـاً هزيلاً كان نائماً عند دخولنا، هذا البيت بحســـب المراجع التاريخية كان أشبه بما يمكن أن تسميه «بيت العفة» أنشئ لغرض محدد وهو الحفاظ على الأرامل والمطلقات من الانحراف إن هـــن تُركن وحدهن، خاصة أن العصر المملوكي على وجه التحديد شـــاعت فيه الكثير من مظاهر الانحراف الأخلاقي والسلوكي، إضافة إلى ظهـــور مجموعة مؤثرة من رجال الدين المتشـــددين، الذين كانت لهم سطوة كبيرة وتأثير في عوام الناس، وكان من الصعب على أمراء وســـلاطين المماليك الغارقين في الملذات ومارس بعضهم أشكالاً شتى من الانحرافات تفادي ســـطوة هؤلاء المشـــايخ حفاظاً على أنفسهم من

أن تمتد إليهم الانتقادات، وبما أن المرأة دائماً، من وجهة نظر هؤلاء، هي مكمن الداء، ورأس الشيطان، فكان لا بد من حجرها، وإبعاد تلك الجرثومة عن الأطهار الأنقياء! رغم أن أعين رجال الدين المتشددين لم تكن ترى – أو تغافلت بلفظ أدق – ما يجري في بيوت الأمراء والسلاطين من انحرافات ومهازل لا يمكن وصفها.

وهل حقق هذا البيت أو الرواق هدفه فعلاً في تحسين الأخلاق؟

سألت باهتمام، وبرغبة حقيقية في معرفة المزيد من التفاصيل، فأجابت ريم بأسى: عندما يتملك النفاق من المجتمع، يصبح دوماً الشكل أهم من المضمون، فليس مهماً حفظ الأخلاق بقدر ما يهم أن يبدو الجميع ساعياً نحو تحقيق ذلك الهدف، فرجال الدين كان يرضيهم أن يدبجوا خطباً رنانة تتحسر على الأخلاق والدين، ويحرضوا العوام على عدم إخراج نسائهم إلى الشوارع والأسواق، دون أن يدركوا أن هذا الأمر مستحيل في مجتمع يغيب الرجل معظم ساعات نهاره في عمله، بينما تقوم المرأة على رعاية كل شيء، وتشارك في بعض الطبقات في العمل، بينما كان الأمراء والسلاطين يهتمون فقط بإسكات أفواه هؤلاء المشايخ، والحصول على رضاهم لتعزيز سلطتهم السياسية في مواجهة خصومهم، وبالتالي كانوا ينشئون هذه البيوت لعزل السيدات المطلقات والأرامل، ولا يهتمون بما يجري فيها، لكنهم في الوقت ذاته لا يتورعون عن فرض ضرائب على الغانيات، أو العاهرات بحسب ما نعرف اليوم، ومنح امتياز جمع تلك الضرائب لعاهرة كبيرة كانت تعرف بـ«ضامنة المغاني»، كانت ملزمة بسداد مبلغ معين للسلطان، تجمعه من العاهرات مقابل منحهن رخصة العمل، هذا فضلاً عن انتشار الشذوذ على نطاق واسع في كثير من قصور الأمراء، سواء

بيـن الحريم اللواتي كان عددهن يصل في بعض الأحيان إلى أكثر من ألف ومئتي جارية لدى السـلطان الناصر قلاوون على سـبيل المثال، أو بيـن الأمراء والجنود الذين كان امتلاك الغلمان وسـيلة للمباهاة في ذلك العصر.

هل رأيت ازدواجية وقهراً أكثر من ذلك؟

سـألتني، وقد بدا وجهها محتقناً من أثر حماسها أو حنقها، لكنني لم أجـد غير صمت أكثر احتقاناً أرد به، وعندما طال انتظارها لإجابتي، واصلت شرحها، وقد انتقلت بي إلى غرف الرواق، كانت غرفاً ضيقة، أقرب إلى الزنازين منها إلى أماكن السكن، كانت هذه الأماكن تخصص للنسـاء نزيلات الرواق، وكانت تقوم علـى رعاية البيت وحفظ النظام فيه سيدة تسمى «آمرة الرواق» تراقب التزام النساء بتعاليم الدين وأداء الصلوات، ولكن وظيفتها الأساسـية كانت التجسس على النساء، ومنع أية وسيلة لمتعة جنسية قد يلجأن إليها لتعويض ابتعادهن عن الرجال.

تبعـت ريم التـي خرجت من الحجرة في تلـك اللحظة، وقد علاها حرج في مواصلة الشـرح، لكن وجهها اكتسى ملمحاً جاداً، وخفضت صوتها وهي تكاد تهمس:

لا يوجد في المراجع ما يشـير إلى أن هذا البيت شـهد أحداثاً تغاير الغرض الذي خصص من أجله، لكنني أظن أن لدي ما يثبت غير ذلك.

كيف؟

سألتها باهتمام وحذر.

خلال أعمـال الترميم عثرنا على مجموعة مـن الأوراق، تحتوي

على إشارات تؤكد ما أقول، هي عبارة عن يوميات دونتها سيدة كانت تقيم في هذا البيت لفترة، ومن الواضح أن لها قصة ربما تقدم كشفاً لجوانب خفية مما كان يجري في تلك الفترة.

خرجنا من الرواق، كنت مشغولاً بما رأيت في الداخل، وما عرفته من تفاصيل عن قصة هذا المكان، وغرضه الذي خصص له، أردت أن أعرف المزيد، لكن أحد سكان المنطقة كان في انتظارنا لحظة الخروج، وبادر ريم بسلام حار، واندمجا في حوار كنت غائباً عنه، وبعدما عادت إليّ ريم وجدتني شارداً، وعندما سألتني عمّا بي قلت وكأن صوتاً ينطلق من أعمق نقطة بداخلي:

أريد أن أعرف كل شيء عن قصة تلك المرأة التي كتبت اليوميات.

(8)

القاهرة، رمضان 708هـ – مارس 1309م

كأميـرة مملوكية كنت أتنعم بين جنبات الرغد، لكن هنا وسـط تلك الجدران الرطبة، والغرف المظلمة، لم يكن مطلوباً سوى إذلالي!

كنـت أعلـم أن مجيئي إلى هنا فـي حد ذاته يمثل عقابـاً، فأميرات المماليك وزوجات قادة الجند بعد موت أزواجهن إما أن يُتركن يخرجن مـن البلد، وإما تتاح لهن الفرصة للزواج بقائد أو أمير آخر، أو بمعنى أدق يدخلـن في ملكيـة أمير جديد، لكن أن يلقى بها وسـط الحرافيش، فهذا أمر غير مسبوق.

طـوال أيام التعافي كنت أتسـاءل عما تخبئه وراءها تلك الجدران، كيف سـأعيش وسـط هؤلاء المصريات اللاتي لم أكـن حتى أعرفهن أو يعملن لدي كجوارٍ، كيف سـيتعاملن هن معي؟ هل سـتتذكر «آمرة الرواق» ما كان لي من مكانة وكرامة فتحفظها لي، أم أنها مأمورة بأن تزيد عذابي، وتهين ماضيّ؟

أسـئلة كثيرة كانت تعصف برأسي، وربما عدم التوصل لإجابة لها كان سبباً في تأخير خروجي من تلك الغرفة الضيقة رغم كراهيتي لها،

حاولـت أن أطيل بقاء ورد إلى جواري، فهي الوحيدة التي أعرفها في هـذا المكان الغامض، لكنني كنت على يقيـن بأن فراقنا يقترب، وكان خوفي كبيراً، فلأول مرة سـأواجه العالـم وحيدة بلا عائل، ولا معين، فحتـى عندما تم بيعي في سـوق الجواري، وابتعـدت عن أمي وجدت فتيات مثلي كثيرات في حرملك سـيدنا الجديد في دمشـق، سرعان ما أصبحن عائلتي التي لم أخترها، لكن وحّدتنا المأساة.

وعندما أهداني الجاشـنكير لأبرع تلاميذه الأمير سـنجر الجاولي، وتزوجنـي، طلبت منه أن تنتقل ورد أقرب رفيقاتي إلى قلبي معي إلى بيتي الجديد، فلم يمانع الجاشـنكير لأن زهده في النسـاء يجعلهن عنده سواء، فقط هو يحتفظ بهن للمباهاة، وللتسرية عن ضيوفه وتلاميذه في الاحتفـالات التي يقيمها بقصره، وهكـذا ظللتُ مع ورد منذ كنا أطفالاً نباع في سوق الرقيق، وحتى صرت أميرة، وها هي تشهد فصلاً جديداً في مأساتي، وأنا أتهاوى من داري الفارهة، إلى هذا القبر المقفر، بينما ستعود هي إلى «حرملك» الجاشنكير مجدداً، لكن وهو ملك هذه المرة.

في تلك الليلة ألحت عليّ ورد أن أخرج لتناول الإفطار مع النسـاء الفقيرات فـي الرواق، قالت إن معظمهن من المصريات البسـيطات، وإن الوجود وسـطهن والخروج من ضيق هذه الغرفة قد يخفف عني، حاولت التملص من مطلبها، لكن إلحاحها كان أقوى من رفضي، وقبيل أذان المغـرب، خرجت إلى باحة الرواق، ولأول مرة منذ فترة طويلة لا أدري مداها صافحت وجهي نسـائم هواء طازج، استشعرت رعشة سرت في كل جسدي، كان المكان بائساً، لا يكاد يوجد به شيء تنشرح له النفس، مجرد باحة مفروشـة بالرمل، والغرف الضيقة تطل عليها، والنساء مشغولات بتجهيز الإفطار، أطللت من الطابق الثاني حيث تقع

غرفتي، فإذا بكل شـيء في الرواق ينضح بؤساً وشقاء، السلم الواصل إلى أسـفل يـكاد ينخلع تحت خطواتـي الواهنة، «زيـر» الماء الملقى بجوار السـلم تعلوه طحالب خضراء مقززة، حاولت التراجع والعودة إلـى غرفتي، لكن ورد التي كنت أسـتند إلى ذراعها نظرت إليّ نظرة مشـجعة على مواصلة المشـي، وساعدتني فجلسـت على «مصطبة» حجرية في أحد أركان الباحة، بينما كانت العيون البائسة تختلس النظر إليّ، يريدون النظر إلى تلك الأميرة المملوكية التي كانت بالأمس سيدة في دار بها عشـرات الجواري والعبيـد، تلبس الحرير، وتأمر فتُطاع، وهـا هي اليـوم ممزقة كقطعة قماش بالية في قبـر قذر، كادت عيوني تفيض دمعاً حسرة على حالي، لكنني تماسكت كي لا أبدو ضعيفة أمام أولئك النسـوة اللاتي لا أعرفهن ولا ينتمين إلى جنسي وطبقتي، وجاء أذان المغرب من فوق مئذنة الحاكم القريبة لينقذني من نفسـي، فرفعت بصري نحو السماء، وخرجت كلمة من جوفي ملتهبة، حارقة، مؤلمة، كأنما تنتزع من قلبي وأحشـائي، وتطفـو معها كل آلامي وأحزاني: يا رب.

جاءت إحدى المصريات وناولتني وورد صحنين من الطعام، لكن كان أجمل ما قدمته لي ابتسامة صافية، بها من الشفقة والحنو ما خفف عنـي، شـكرتها ورد، التي بدا أنها تعرفها، وبـدأتُ تناول طعامي في بطء وبغير شهية، فقد كان إفطاراً بلا صوم ونفاساً بلا إنجاب، فقط ألم تعقبه آلام، قاطعني صوت خشن، يفيض سخرية وتهكماً:

أراك اليوم في صحة وعافية يا «خوند»!

ضغطـت كثيراً على حروف كلمتها الأخيـرة، وكأنها تقول لي أنا

أعرف من أنت، وقبل أن أهمّ بالرد جاءني الصوت الخشن مجدداً:

أتمنى أن يكون طعام الرواق قد أعجبك، صحيح هو لا يليق بك، لكنه كل ما لدينا ثريد بغير لحم، وكفاك ما أكلته من لحم في سنواتك الماضية.

تدفق الدم إلى كل أجزاء جسدي وهممت بالرد، لكن ورد حالت دون ذلك في ابتسامة مصطنعة:

الحمد لله على كل حال يا «آمرة الرواق» كل الطعام نعمة من المولى، ومولاتي لم تكن يوماً شرهة لطعام أو لشراب.

لكن المرأة واصلت هجومها غير المبرر:

لا توجد هنا «مولاتي»، في بيتها كانت مولاتك، أما في الرواق، فلا توجد غير امرأة ألقاها إلينا القدر مثل كل تلك النساء، لنحميها من نفسها، ونحمي الناس من شرورها.

ولم تنتظر أن أرد عليها، لكنها وقبل أن تبتعد التفتت إلى ورد وقد تقلصت عيناها وضغطت كثيراً على مخارج حروفها:

أرى أن «مولاتك» الآن قد صارت في حال تمكنها من القيام بشؤون نفسها!!

اختفت آمرة الرواق من الباحة، وعندما نظرت إلى ورد وجدت وجهها ممتقعاً، وكأنما نزف دمه كله فجأة، وبعد نظرة طويلة في عيني، احتضنتني، وانفجرت باكية.

(9)

القاهرة، يوليو 2010

لعدة أيام لم أستطع أن أفلت من تأثير تلك الزيارة إلى «شارع المعز»، وما تركته في نفسي من أحاسيس غامضة، أحالتني شخصا غير ذلك الذي كان قبل الزيارة.

حالة من الصمت المطبق ألمّت بي، أحسست أنني أريد التنقيب في نفسي أكثر من النظر إلى ما حولي، شعرت بأن داخلي مليء بتفاصيل غير مرئية كتلك النقوش في مشربيات «بيت السحيمي»، أفكاري متداخلة ومتعانقة كحروف أبيات البوصيري على جدران إيوانه، أيمكن أن يحدث هذا التوحد بين الذات والمكان؟ لا أدري، لكن كل ما أشعر به أنني غارق في شيء لا أعلمه، أحسه يحيطني من كل اتجاه، لا أستطيع – وربما لا أود – الهرب منه أو الفرار.

تقدمت بطلب إجازة من عملي، لم أكن أريد لأحد أن يلحظ عليّ تلك الحالة الغريبة، كما أنها كانت فرصة للهرب من أجواء يوليو الخانقة وحرها اللزج، وجدتني أنسحب بصورة لاإرادية إلى غرفة مكتبي، أجلس فيها بالساعات، أحياناً لا أقوم بأية حركة، وأحياناً أخرى أتناول

كتبــاً عن تاريــخ المماليك، قرأت في تلك الأيام ما لــم أقرأه في حياتي عــن تلك الفترة، بحثت في الكثير مــن المراجع عن تاريخ تلك المباني التي أشعر بأنني مازلت حبيساً وراء جدرانها، فتحت عشرات المواقع، بحثاً عما يشــفي نهمي للمعرفة عنها، كل شـــيء يأتي جافاً، منقوصاً، ليــس به حــرارة الحياة الحقيقية، ملمس البشــر، ونكهــة الأيام، دموع المآســي، وقهقهات الأفراح، طبــول الحرب، ودماء المعارك، زفرات المنتصرين وحسرات المهزومين.

كنت أبحث عن أشياء لا أدري ما هي، لكن المؤكد أن كتب التاريخ لــم تعــد كافية لتــروي ظمئي لمعرفــة حقائق تلك الفترة، بــل لا بد أن أعتــرف أن حالتي تلــك أصابتني بنــوع من الهــلاوس، كنت أتحرق لمعرفة الكثير مــن التفاصيل عن حياة تلك المرأة الغامضة التي كتبت يومياتهــا، أريــد أن أعيش يوماً في ذلك الــرواق، لكن صفحات الكتب شــحيحة للغاية، كلمة هنا وجملة هناك، عبارات جافة، مليئة بالموت، لا حياة أو مشــاعر بها، فقط وقائع بلهاء، لا تروي كم عانى من عشــن في ذلك الرواق، كيف كــن يعاملن، يتكلمن، يفرحن أو يبكين، يخطئن ويعاقبن.

ربما غلبني النوم في غرفة مكتبي وأنا مهووس بالبحث عن المزيد مــن المعلومات عــن «رواق البغداديــة»، أو ربما كان مــا رأيته حلم يقظة، لا أدري، كل ما أذكره حق التذكر أنني كنت جالساً في باحة ذلك الرواق، فإذا بامرأة صافية الوجه، رشــيقة، في عينيها حزن غامض، حجابها يخفي جانبــاً من ملامح وجهها، وقفت في مواجهتي، ونظرت بعمق في عيني، كانت تحمل في يديها إناء نحاســياً عليه نقوش بديعة، وكنت عطشــاً، والحــر قائظ، مدت يديهــا إلي بالإناء، فشــربت حتى

ارتويت، أعدتُ إليها الإناء، وشكرتها فلم ترد، وهمت بالرحيل، فناديت عليها، يااااااا..... اكتشفت أنني لم أكن أعرف اسمها، يااااااااااااا.... التفتت إليّ ونظرتها الحزينة لم تفارقها:

ابحث عني... مثلما ظللت عمري كله أبحثُ عنك.

قالت عبارتها تلك واختفت فجأة.

استيقظت على صوت هاتفي الجوال، كانت ريم، سألتني عما بي، رددت بصوت غريب:

لا شيء، ربما غلبني النوم.

أردت أن أحكي لها عما أعانيه، لكنني اكتفيت بأن أطلب منها أن نلتقي، فقالت إنها كانت تطلبني بالفعل لتعرف إن كنت على استعداد لحضور سهرة في «تكية الدراويش» فهناك عرض لدراويش المولوية مساء اليوم، وافقت على الفور، رغم أنني لا أعرف ما هي المولوية ولم أشهد من قبل عروضاً لهؤلاء الدراويش.

أنهيت المكالمة، وكنت أشعر قبل ذلك الحلم بظمأ شديد، لكنني فجأة شعرت بارتواء غريب، وكأن طعم الماء من ذلك الإناء النحاسي لم يفارقني.

(سلكت بعض النساء في عصر المماليك طريق التصوف فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال، وأطلق عليهن اسم الشيخات أو الفقيرات، وكان غالبيتهن من بين الأرامل والمطلقات اللاتي أقمن في الأربطة والخانقاوات لما اشتهرت به من شدة الضبط، وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات تحت رئاسة شيخاتهن

اللائـــي حرصن على إلباس الصوف لمــن تتوب على يدهن، وإدخالها في طريقتهن مثلما يفعل مشايخ الصوفية من الرجال.

وكانت تلك النســوة أشــبه بالمســيحيات في الأديرة، والعجيب في هــؤلاء الشــيخات أنهن لا يمضين إلى موضع لعمــل الذكر فيه إلا بعد دفع الرســم المقرر لضامنة المغاني، شــأنهن في ذلك شأن بقية غواني العصر المملوكي)[5].

---

(5) ابن الحاج، الدخل، ج2، ص142.

(10)

القاهرة، رمضان 708هـ – مارس 1309م

كان لرحيل ورد عني وقع مؤلم، نعم كنت أتوقعه، بل وأترقب اللحظة التي تفارقني فيها، لكن التوقع شيء، ووقوع الفراق شيء آخر.

اعتدت مفارقة من أحب منذ صغري، فارقت وطني الذي لا أذكر اسمه، ولا يحضرني منه سوى صور مشوشة تجتاح ذاكرتي في أحايين متباعدة، فارقت أمي وبكيتها طويلاً ومازلت أبكيها، ولا أعلم مصيرها، فارقت زوجي، الذي انتشلني من أقبية الحريم، وجعلني أميرة مكرمة، وها هو الآن ضائع مجهول المصير، لا أعرف إن كان حياً، أم ابتلعه الردى، وفارقت ابني الذي لم أره، وخرج من رحمي وأنا عنه مغيبة، اختطفه الجاشنكير فلا أدري ما فعل به، أهو الآن في باطن الأرض، أم في حضن امرأة يلتقم ثدييها عوضاً عن ثدي أمه الذي يحن إليه كل مساء، ولا تفارقني آلامه حتى اليوم.

فراق ورد كان مؤلماً، أهاج كل آلامي السابقة، فهي رفيقة طفولتي وصباي، معاً تعلمنا الغناء والقراءة والكتابة، ومعي شهدت رغد العيش ونعيم المقام في بيتي، كما ظلت رفيقة اللحظات القاسية بعد خسارة كل

شـــيء، كان رحيلها عنـــي هذه المرة رحيلاً لكل حياتـــي التي عرفتها، رحيلاً للماضي الذي شهد ساعات حلوة، وأياماً قاسية، أنا الآن وحدي، في بيت أمقته، ومع نســاء لا أعرفهــن، ولا يعرفنني، ضائعة في جب سحيق من الحيرة، ومستقبل مجهول لا أدري ما سيأتيني به.

فـــي الليلة التي رحلت فيها ورد أوصت نســاء الرواق بي، لكن أية وصيـــة يمكن أن تخفف عنـــي ما ألمّ بي؟! فهاتيك النســاء يحتجن لمن يســتوصي بهن، فـــإن كنت قد ذقت يوماً حــلاوة العيش وطيب الحياة، فهــن لم يذقن من الدنيا غير مرارتها وشــظفها، جاءت بعضهن تخفف عنـــي مصيبتي، كلهن رســمت أظافر الدهر علــى وجوههن علامات الأسى، بسـيطات، فقيرات، ضعيفات، كل حطام الدنيا خسرنه برحيل رجالهن أو بطلاقهن، جئن يخففن عني مأساتي، فضاعفن ألمي.

أم بركـــة كانـــت أول من جاءتني، امرأة في الخمســين من عمرها، لكن من يتأمل وجهها والأخاديد تشــق كل مســاحاته، فتحيله إلى وجه صخـــري متداعٍ يتصـــور أنها في الســبعين، هجرها زوجهـــا الحمّال وتـــرك لها أبناء أربعة، لم تعرف مصيـــره، واضطرت إلى العمل من أجل إطعام أولادهـــا، والحفاظ على ابنتيها الكبيرتين، خاصة أن ابنتها الكبرى بلغت ســن الزواج، وكانـــت تنتظر أن يأتيها زوج يخفف عنها ما ألم بالأســـرة من عـــوز وفقر، لكن أحد مقدمي الـــدرك أرادها خليلة لـــه، وعندما طلبت منه أن يتزوجها، نهرهـــا بعنف، فكيف لمقدم درك أن يتـــزوج بابنـــة حمّال، وله زوجة تمت بصلـــة قربى لأحد قادة الجند بالمماليـــك البحريـــة، حاولت الهرب بأولادها لكنـــه ألقى القبض عليها ودفع بها إلى هذا البيت، وتشــتت أولادها في غياهب الدنيا، ولا تدري مصيرهن الآن.

بعض الناس يقلن إن ابنتي الكبرى تعمل غانية، أنا لا أصدق، لقد أحسنت تربيتها، وهي تصلي وتصوم، هل تصدقين؟!

سألتني المرأة، وأنا آخر من تُسأل، وآخر من يُنتظر منها إجابة، أتواسيني بمأساتها، أم تذكرني بأن الحياة مليئة بمآسٍ تتوالد مع كل صباح.

في المساء جاءتني زهرة، حملت إليّ طعام السحور، جلست إلى جواري، صمتها محير، لكن عينيها ملأى بالكلام، وضعت في كفي تمرات، وقالت لي تقوي بهذه، فأفضل ما يمكن أن تفعليه في هذا المكان، هو أن تظلي على قيد الحياة، هم يريدوننا أن نهلك أو نتلاشى ليحلوا مشكلة وجودنا، لكننا لن نحقق لهم أمانيهم، فالحفاظ على الحياة نضالنا الوحيد وسلاحنا كي نؤلمهم.

اجتذبتني نبرتها الغاضبة، والتي ربما لا تتناسب وصمتها المطبق الذي جاءتني به، سألتها عن سبب وجودها في الرواق، ومن هؤلاء الذين يريدون هلاكنا؟ أجابت بعد فترة: «كنتُ زوجة لأحد التجار، وكنا نعيش في ستر، لكن أطماع الدنيا لا تبقي أحداً على حاله، تاجر زوجي بأموال أحد أمراء المماليك، وتوسعت تجارته كثيراً، لكن بعض منافسيه وشوا به إلى الأمير وأقنعوه أن زوجي يختلس من أمواله، فجرده الأمير من كل ثروته، وأشهروا إفلاسه، لم يحتمل زوجي، وسقط مريضاً، وتراكمت علينا الديون وعندما مات، أخذ الدائنون البيت وما تبقى لنا فيه من أثاث، أما أنا فلم يجدوا لي مكاناً إلا هنا، فألقوا بي في غياهب هذا الجب».

قصص كثيرة استمعت إليها، خلال أيام الرواق الطويلة والمملة،

فليس لدى النساء هنا سوى الحكايات لقتل الفراغ، ومغالبة الذكريات، لكنهن يثرن بالحكايات أليم الذكريات، امرأة واحدة لم تأت لتتحدث إليّ، كانت دوماً إما في ركن قصي تحرك حبات مسبحتها الطويلة، وإما في غرفتها معتزلة، سألت أم بركة عنها، فقالت لي إنها إحدى المتصوفات، كانت «شيخة الفقيرات»، لكنها رفضت أن تفرض المكوس على المتصوفات، فغضب نائب السلطنة عليها، ولما كان لا يستطيع أن يسجنها لخشيته من دعائها عليه، فقد ألقى بها في هذا الرواق، واختار «ضامنة المغاني» لتكون «شيخة الفقيرات»، فتجمع المكوس من البغايا والصوفيات على حد سواء، بينما ارتضت الشيخة غازية هذا المصير، واعتبرته خلوة لها.

شيء ما كان يجتذبني إلى تلك السيدة، لم أكن يوماً من المغرمات بالصوفية، بل كنت أراهم دراويش مجانين، لا يصلحون سوى للطواف في الشوارع وحول المقامات والخانقاوات يقتاتون على ما يتصدق به الناس عليهم، لكن هذه المرأة تبدو مختلفة، قررتُ ذات ليلة وقد خرجت للتسبيح في أحد أركان باحة الرواق أن أتحدث إليها، ربما أجد لديها ما يهدئ من قلقي، وربما تقرأ لي الغيب، فهناك كثيرون يعتقدون في قدرة الدراويش على معرفته، فما أحوجني إلى أن أعرف مستقبل أيامي، وأكشف غموض مصائر أسرتي التي تمزقت في ليلة.

وقفت أمامها حائرة كيف أبدأ معها كلامي، وكيف أبرر لها مجيئي دون سابق معرفة، لكنها بادرتني بإشارة لأجلس إلى جوارها، لوجهها هالة من ضياء، ملامحها مريحة للنفس، وإن لم تخف تقدمها في السن، جلست إلى جوارها، فابتدرتني القول:

هوّنــي على نفســك، فنحن فــي هذه الدنيــا غربــاء، لا تثقلي قلبك بالأحزان، سيجعل الله لك من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً.

أوتعرفين همّي؟

سألتها، ونبرة التشكك والترقب لاتزال واضحة في صوتي.

«مــا مــن نفس تبديــه، إلا وله قــدر فيك يمضيــه»، كلنا يــا ابنتي مهمومــون إلا من شــفى الله قلبه بالحب، فلا يبقــى في القلب مع الحب مكان لهم أو كره.

ولكن الكراهية وحدها هي ما جاءت بي إلى هنا، فأين كان الحب؟

ســألتها وقد شعرت بضيق من هدوئها المبالغ فيه، أحسست أن تلك المــرأة تعيــش فــي واد آخر، بل ربمــا لا تدرك ما أعانيــه من ضيق، وتستمتع بخلوتها في هذا الرواق المقيت.

ابتسمت، وهزت رأسها في حنو ومدت يدها تربت على كتفي:

إننــي أشــعر بحزنك يا ابنتــي، وأرى في قلبك نــوراً، لكن الحزن يحجب النور، أحبي أعدائك، وســامحي من قســا عليك، واغفري لمن أساء إليك، يتدفق النور من قلبك، ويزول همّك.

زادتني كلماتها ضجراً:

كيــف أســامح من ألقى بي في هــذا الجحيم، كيــف أغفر لمن قتل زوجي، كيف أعفو عمّن اختطف ابني؟!

ابتسمت في هدوء وربّتت من جديد على كتفي:

أعلم أن الأمر عسير، التخلي صعب، لكن التحلي يستحق، والعجب كل العجب ممن يهرب، مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء معه، {فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}.

بـــدا كلامها غامضـــاً، جئت أبحث عندها عن ســـلوى لمتاعبي، فلم أجد لديها سوى المزيد من الغموض، هل حقاً يمكن للمرء أن يحب من دمر حياته؟! هل يمكن أن يسامح من لوّن بالدم أيامه ولياليه؟! أي حب ذلك الذي يمكن أن يعشّــش في قلب لم تعد به ســوى خرائب الماضي والحاضر، ومسوخ لمستقبل، لا تبدو له تباشير؟!

تركتهـــا، لكن أصوات مســـبحتها الخشـــبية ظلت تتـــردد في جوف الليل، أســـمعها وأنا في قلب غرفتي المظلمة، كأنها موسيقى غامضة، تمهد لشيء قادم لا أعلمه، لكنني لا أملك سوى انتظاره.

(11)

القاهرة، يوليو 2010

ألا يخضع هذا المكان لنفس القواعد الجغرافية والمناخية للقاهرة؟!

من أين يأتي إذاً بتلك النسمات اللطيفة، بينما رطوبة لزجة تجثم على الصدور في الخارج؟

سألت ريم ونحن نتخذ مجلسنا حول المسرح الدائري في «تكية الدراويش» بشارع السيوفية أشهر شوارع منطقة القلعة، والذي يربط بين مسجد أحمد بن طولون ومدينة الفسطاط، أجابت بابتسامة رقيقة، وأرجعت السبب إلى نمط العمارة التي تعتمد على إفساح المجال لتيارات الهواء للحركة والتخلص من سخونة الجو في الخارج، وبهذا تبدو ألطف، ورغم منطقية تفسيرها، لكنني كنت أشعر بأن أسباباً أعمق وراء تلك الحالة من الارتياح، والجمع بين البرودة المنعشة، والدفء الهادئ.

كان المكان – حسبما أخبرتني ريم – تكية للمتصوفة لقرون طويلة، وقد تعرض للهدم وإعادة البناء أكثر من مرة في عصور مختلفة، حتى انتهى في العصر العثماني إلى صورته الحالية وهو عبارة عن

بنـــاء حجري، لا يكاد يفرقه الناظر مــن الخارج عن غيره من المباني المملوكية والعثمانية المنتشرة في هذه المنطقة، لكن الرحلة إلى الداخل تؤدي إلى فضاء مختلف، فبالإضافة إلى غرف الدراويش التسع عشرة المطلة على وسط التكية، والتي بنيت لتتوافق مع عدد حروف البسملة «بســم الله الرحمن الرحيــم»، إلا أن الجلوس حول المســرح الدائري الــذي يمثل قاعة اســتماع تعرف بـ(ســمع خانة) يحتــاج إلى يقظة من نــوع خاص، يقظة عقل لتحيط بالرموز التي يزخر بها المكان، ويقظة قلب لتهيم بقلبك في أجواء الذكر التي يشيعها الدراويش المولوية الذين ينتسبون الى مولانا جلال الدين الرومي أكبر شعراء الصوفية.

المســرح الذي كانــت تؤدي عليه فرقة الدراويــش رقصتها، تعلوه قبة محمولة على 12 عموداً خشــبياً ربما كانت ترمز لشــهور الســنة، وأعلى تلك الأعمدة علقت لوحة كتب عليها «يا حضرة مولانا»، وتعلو الأعمدة 8 شبابيك تتميز زخرفتها الداخلية بألوانها الزاهية التي استخدم فيهــا زخارف الباروك التركي، كما تمتلــئ بمناظر الطيور التي تمثل الأرواح الهائمــة، ضعــتُ لفترة في تهاويم الزخــارف المتداخلة، مرة أخرى أسبح في خطوطها المتشابكة، كم أشعر بتلك الخطوط قريبة من نسق روحي، هل أدرك الفنان المسلم حقيقة الروح والمشاعر المتداخلة التــي تختلــج فــي نفس الإنســان، فعبر عنها بهــذا المزيــج المبهم من الخطوط، هل تعني تلك النقوش أن النفس ليســت نفساً واحدة، بل ربما هي نفوس متداخلة، يأتي بعضها من أزمنة وأمكنة مختلفة عن تلك التي يدركها الوعي، أي رموز يمكن أن تحويها تلك النقوش التي تســتغرق النظــر والحواس جميعاً، وكأنها خطوط الحياة مجتمعة، فمســاراتها لا تخضع للخطوط المســتقيمة، إنما تتداخل وتتشــابك وتتقاطع، لكنها لا

تنفصل، إلى أين تأخذني تلك الخطوط اللامتناهية، التي لا يدرك المرء من أين بدأت، وأين تنتهي؟

كدت أغرق في تأملاتي بالنقوش الحزينة لولا أن العرض قد بدأ، وتسللت إلى روحي موجة جديدة من الشجن، مع تصاعد عزف الموسيقى الهامسة وكلها من مقامات شجية، تجسد أحاسيس الحزن والفراق مثل نهاوند وصبا، من فارقتم أيها الدراويش كي تعزفوا تلك الألحان الحزينة؟ أتبكون الدنيا، أم تحزنون على وداع اطمئنان البسطاء، الذين لا يشغلون رؤوسهم بأسئلة الوجود؟ فالسؤال قلق، والبحث عن الإجابة قلق، وأصعب الأسئلة أبسطها: من أنا؟

تدفقت الرقصات في البداية هادئة، الدرويش بثيابه البيض الفضفاضة، كأنما هي ملابس المهد، وطاقيته البنية الخشنة كأنها أديم الأرض، يبدأ بالدوران حول المكان، دوائر متداخلة، النفس دائرة، والمكان دائرة، والدنيا دائرة، الدوران هادئ، كأنه يستكشف الكون المحيط، يدور ببطء حول الذات وحول المكان، تتوالى أبيات الرومي الغامضة(6):

إني لأختارك وحدك من كل العالم، فهل تجيز أن أجلس حزينا؟!

وقلبي كالقلم في يدك، ومنك أكون فرحاً أو حزينا

وماذا أكون سوى ما تختاره أنت، وما أرى إلا ما تظهره لي.

أحيانا تنبت مني الورد، وأحياناً الشوك، وحيناً أشم الورد، وحيناً أجمع الشوك.

---

(6) الأبيات من ديوان «شمس الدين تبريزي» لمولانا جلال الدين الرومي.

تتوالى الأبيات، ويتصاعد الرقص الدائري في المنتصف، كأنما روح الفتوة تجتاح الذات والمكان، تنفرد ثياب الدرويش، طبقات بعضها فوق البعض، كأنها قلاع الروح نفتحها للعالم والكون، وقد صرنا على ثقة في أننا قادرون، القوة تملؤنا، فيزداد دوراننا بغير اتجاه، حتى نصل إلى ذروة النشوة وغرور القوة والثقة، تنفرد الذراعان، وينفتح الصدر لموجات المستقبل الآتي، حتى ولو لم يكن معلوماً:

يا أيها المسافر لا تعلق القلب بمنزل ما، بحيث تحزن عندما تغادره.

ذلك أنك مررت بمنازل عدة، منذ أن كنت نطفة حتى عهد الشباب.

فاستهن بها.. حتى تنجو هوناً.. تفرط فيها بسهولة.. وتثاب.

واستمسك به.. فقد استمسك بك.. فهو الأول والآخر.. فالحق به.

كنت ماء.. صرت ريحاً.. ثم جئت حتى أخلص الظمأى في هذا السراب.

يا أيها العاشق لست أقل من فراشة، ومتى تجتنب الفراشة النار؟!

في ذروة النشوة، تبدأ النهاية، هكذا الدنيا، تتباطأ الرقصة، نغلق صدورنا في مواجهة الحياة، ذقنا طعم لدغاتها، وباتت أذرعنا أضعف من أن تحتويها، المكان يصير لامكان، والذات تتلاشى، طبقات الثوب الأبيض التي كانت مشرعة للهواء تضيق رويداً رويداً، وتحيط بأجسادنا، بينما الروح تتحرر من الذات والمكان، تتباطأ الرقصة، ويلتئم الثوب الأبيض محكماً دورانه حول الجسد، حتى يصير كفناً:

في يوم موتي.. عندما يشيع تابوتي، لا تظن إني أتألم من أجل هذا الحياة

وعندما ترى جنازتـــي.. لا تقل: الفراق.. الفراق، فالوصال واللقاء لي في هذا الزمان.

وعندما أودع فـــي قبري لا تقل: الوداع.. الوداع، فإن القبر حجاب على مجمع الجنات.

لقد رأيت الغروب.. فانظر إلى الشروق، فلماذا يكون غياب الشمس والقمر خسارة؟

إنه يبدو لك غروباً، لكنه شــروق، واللحد يبدو سجناً، لكنه خلاص الروح.

انتهت الرقصة، لكنني ظللت للحظات مصاباً بدوار داخلي، أشــعر بأنني مازلت أدور حول ذاتي، انفصلت عن المكان والزمان، شــعرت بأنني طائر أبيض يحلق بعيداً برفقة طيور مشــابهة، نحو لاشـــيء، لم أســمع تصفيــق المحيطين وإن كنــت أرى أيديهم، كنت أســمع رفرفة الطيور البيض في داخلي، كانت تزداد ابتعاداً، بينما كنت أعود تدريجياً للمكان والزمان.

سألتني ريم عن رأيي في العرض، فبحثت عن الكلمات، ولم أجدها، فاكتفيت بهز رأســي، وفي طريقنا إلى الخروج دعتني لمشاهدة بعض المتعلقــات الخاصة بالدراويش ومولانا جــلال الدين الرومي، في أحد أركان القاعة، ذهبت منســاقاً، وقفت أمام الركــن المحاصر بالزجاج، كانــت تضم صوراً فوتوغرافية ووثائق خاصة بالمولوية، كما يعرض فـــي إحدى واجهــات العرض الزجاجيــة كتاب المثنــوي لجلال الدين الرومي مؤســس الطريقة المولوية، كما يضم المتحف نماذج من أزياء

المولويــة وغيرهــا من متعلقاتهــم، وبعض أوراق متناثــرة بها بعض الأبيات، لكنني تســمرت أمام إحدى تلك الأوراق، شعرت وأنا أقرؤها بأنها رسالة موجهة لي:

تلك الحســناء التي تعلم الزهرة والقمــر الدلال طوال الليل، عيناها بالسحر جعلت الفلك يغمض عينيه.

في البداية ولدتُ من عشــقها، وفي النهايــة أعطيتها قلبي، كالثمرة تولد من غصن ثم تتعلق بذلك الغصن.

إني هــارب من ظلي، فالنور مختف في الظل، وكيف يقر له قرار من هو هارب من ظله؟!

إن طرف جديلتها لا يفتأ يقول: هيا إليّ.. فاللعب على الحبال سريعاً ما يبدأ ويقول وجهها المضيء كالشمع: هل من فراشة لتحترق؟!

ومن أجل هذا اللعب بالحبال كن شــجاعاً وانحنِ، وألقِ بنفســك في النار عندما يضاء شمعه.

وإنــك إذا ذقت لــذة الاحتراق، فلن تصبر علــى النار بعد، حتى لو جاءك ماء الحياة، فلن تخرج منها.

خرجت من التكية، فاســتقبلتني نسمة صيفية منعشة، لكنني شعرت فجأة بالظمأ، لم أكن أريد أي ماء، لم يكن ليرويني سوى شربة من إناء امرأة الحلم، والتي شــعرت بأنهــا قريبة للغاية، وبأنها موجودة هنا في مكان ما... فهل من فراشة تحترق؟!

(وجــدت أيضاً البغايا اللائي كن يســمين بنــات الخطأ والخواطئ،

وقــد كثر عددهن في الديار المصرية على عصر ســلاطين المماليك، وكان لهــن لباس خاص يعرفن به، وهو لبس الملاءات والطرح، وفي أرجلهن ســرافيل من أديــم أحمر، وقد اعترفــت الدولة بهن وفرضت عليهن ضريبة مقررة، وجمعت من هذه الضرائب «جملة مســتكثرة» كما جعلت الدولة للبغايا ضامنة عرفت باسم «ضامنة المغاني» تذهب إليها محترفة البغاء لتســجيل اسمها عندها، وكانت هذه الضامنة تتعهد بدفــع مــال إلى الدولة في مقابل أن تتولى جمــع ضريبة المغاني، التي كانــت تجمعها من النســاء البغايا في مقابــل أن تحميهن الدولة، وهكذا انتشــر البغاء في مصر المملوكية، حتى وقفت البغايا بالأســواق تحت أعين المارة، ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى، بل عمّ بلاد الصعيد والوجه البحري، حيــث خصص للبغايا حارات مريبة معينة، كأرض الطبالــة وربع الزيني، وجزيرة حليمة ما بين بولاق والجزيرة الوســطى ونصبوا فيها عدة أخصاص بلغ مصروف الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة)[7].

---

(7) ابــن تغربــردي، النجوم الزاهــرة،ج9، ص47. والمقريزي، الخطــط، ج2، ص186، السلوك، ج2، ص703.

(12)

القاهرة، شوال 708هـ – أبريل 1309م

انقضى رمضان، ومعه انقضى نمط الحياة الذي عهدته في «رواق البغدادية»، وبدأت في الظهور حياة أخرى تُحس ولا تُرى.. أشياء جديدة بدأت تتكشف كل يوم، بعضها يبدو وكأنه من صنع الصدفة، لكن بعضه الآخر لا يبدو كذلك.

في أول أيام عيد الفطر، جاءت امرأة، يبدو أنها كانت معتادة على المجيء إلى الرواق، كانت خبيرة بدروبه، دخلت وسط صخب من صويحباتها، بدا مظهرها مثيراً، تبدو بدينة في أثوابها الفضفاضة، وجهها غطته زينة كثيفة، وارتدت ملابس حريرية لا يمكن لامرأة أن تسير بها في الشوارع والأسواق، ووراءها فتاتان ارتدتا ملابس غريبة، وعلامات حمراً في أرجلهن، وقد حملتا الكثير من الملابس والحلي لتوزيعها على نساء الرواق، وبمجرد دخول تلك المرأة وفتاتيها، هرعت الآمرة لاستقبالها في حميمية مبالغ بها، وارتفعت أصوات الوافدات، بينما كانت بعض النزيلات قد اتجهن إليها للنظر فيما جاءت به.

عيدكم مبارك أيتها الأرامل والمطلقات المحرومات.

رنّــت عبارتهــا، التي أطلقتهــا بميوعة، وأعقبتهــا بضحكة لا تقل خلاعة عن عبارتها.

الغريــب أن عبارتهــا لم تثر فــي الحاضرات أيــة رد فعل، بل إن بعضهــن بادلنها الضحــكات، وقد أخذت توزع علــى معظم من نزلن إلى باحة الرواق الملابس والحلي التي جاءت بها، سألت أم بركة التي كانت إلى جواري عند دخول تلك المرأة، فقالت:

هذه «هيفة اللذيذة» ضامنة المغاني في القاهرة، ألا تعرفينها؟!

ومن أين لي أن أعرف مثلها؟!

قلت باســتنكار، وقــد فهمت من أين جاءت بكل تلــك الميوعة التي كانت تتحدث بها، لكن فضولاً لمعرفة ســبب زيارة امرأة مثل هذه إلى الــرواق، رغم أنه يفتــرض أن يكون مكاناً للحفــاظ على العفة، وليس مــزاراً للغانيات وبائعات الهوى، همســت أم بركــة وكأنها تفضي إليّ بسر خطير:

هي تأتي من حين إلى آخر، بدعوى توزيع الهدايا والصدقات على نســاء الرواق، لكــن الحقيقة أنها تأتــي هنا لتنتقي بعض النســاء ممن يصلحن للعمل معها.

صدمتني إجابتها، فسألتها على الفور منزعجة:

وهل تعلم آمرة الرواق بذلك؟!

نظرت أم بركة إليّ في اســتنكار، وانخفض صوتها أكثر حتى كاد ألا يُسمع:

كل شـــيء هنا لا يجري إلا بأمر وعلـم الآمرة، وإنها تحصل على عمولة عن كل امرأة تأخذها هيفة.

تبدلت ملامحي، وشـعرت كم أنا غبيـة، أو غريبة عن هذا العالم، حاولـت أن أتكلـم، فلـم أسـتطع، أصابتني حالـة من الـدوار، فآثرت الانسـحاب ووجدت في غرفتي ملاذاً حتى تنتهي تلك الزيارة المريبة للـرواق، لكن أفكاراً كثيرة ظلت تضطرم فـي عقلي، وأحالت عزلتي إلى جحيم تسـتعر فيه أسـئلتي التي لم تعد تهدأ طوال الأيام الماضية، فمنـذ أيـام وأنا أرى في الليل بعض النسـاء يتسـللن خفيـة من البيت، وأشـباحهن تتحرك في ظلمة الباحة الساكنة، في البداية ظننت أن آمرة البيـت تتلصـص كعادتها على غرف النسـاء لتكشـف أي انحراف أو مخالفة يمكن أن ترتكبها إحدى النسـاء، لكنني سـمعت قبل أيام امرأة تحدث أخرى في الممر المظلم المفضي إلى السلم تواعدها بعد العشاء لتخرجا معاً من الرواق، وسـمعت همسـات عن سـهرة في «المسافر خانـة» القريب من الرواق، وعندما سـألت إحدى النسـاء رفيقتها عن الآمـرة وما يمكـن أن تنزله بها من عقاب، طمأنتهـا تلك الأخرى إلى أن الآمرة ستتقاضى نصيبها من السهرة عند العودة فلا داعي للقلق.

أيكـون الأمر على تلـك الحال، أيكون الرواق فـي الظاهر للحفاظ على العفة، بينما تجري فيه من الموبقات ما يخزي ويذل؟!

وقبـل أن أفكر في إجابة انفتح باب غرفتي دون اسـتئذان، ففزعت وهممـت بتوبيخ مـن اقتحم عليّ خلوتـي، لكن هيفة لـم تدعني انطق فباغتتني بوجهها الدميم وصوتها المتهتك:

لم تأتِ أنت للسلام، فقلت أبدأ به وآتيك بهديتك.

صمتّ لوهلة ريثما تستوعب أعصابي مفاجأة اقتحامها خلوتي، وقلت بلهجة مستنكرة:

تعرفينني حتى تسلمي وتهاديني؟!

ومن في مصر كلها لا يعرف خوند فرح زوجة، أو أرملة الأمير سنجر الجاولي؟!

جاءني ردها أكثر تهتكاً، خاصة عندما ضغطت على كلمة «أرملة» فأثارت أعصابي، ضغطتُ على أسناني وهممتُ بالرد، لكنها واصلت:

أعلم أنك في حالة حداد، لكنني أردت التعرف إليك، فقد نصير صديقتين، وتجدين عندي ما يمحو أحزانك.

ختمت تلك العاهرة عبارتها بغمزة رخيصة من عينها، وألقت على فراشي بثوب من تلك الأثواب التي كانت توزعها:

وهذا عربون محبة، وما لديّ أحلى وأثمن.

انفجر الدم في رأسي، ووجدتني فجأة أصرخ، وألقي بالثوب في وجهها وأطردها من غرفتي، لكنها لم تنزعج لغضبتي، ولم تتزحزح من مكانها، وقالت في لهجة مبتذلة:

لك عذرك يا أميرة، حق للغالي أن يتدلل، وأنا مازلت راغبة في الود، وسأنتظر لقاءك.

واصلتُ صراخي، ودفعتها خارج الحجرة، لكنها التفتت إليّ في سخرية:

عندما تريدين لقائي ثانية، ستجدين الآمرة تعرف طريقي.

ألقت بكلمتها وانصرفت، وقبل أن تنزل درجات السلم الخشبي المفضي إلى باحة الرواق، التفتت إليّ وغمزت بعينيها غمزة أخرى، وهي تقول: سأنتظرك.

ظلللتُ واقفة خارج حجرتي ألهث من الانفعال، وبينما كانت تلك العاهرة تتوارى عن ناظري في طريقها إلى الباحة، كانت نساء الرواق يتابعن المشهد بعدما تجمعن على صراخي، وعندما وصلت إلى الطابق الأرضي نادت صويحباتها، وهمت بالخروج من الرواق، وهي تهتف وتشير بيديها في ميوعة:

عيدكم مبارك أيتها المحرومات.

لم تسعفني سوى دموعي لتزيل احتقان أعصابي بعد هذا الموقف، هل تدنيت إلى هذا الدرك، لتتجرأ عليّ عاهرة، وتطلبني للعمل معها، وأنا الأميرة؟! تباً لهذا الزمان الذي يباع ويشترى فيه الإنسان، ويُذل الكريم بعد عزّ، ويعزّ الوضيع بعد ذلّ.

بكيتُ طويلاً، وعلا نشيجي، لكنني انتبهت على يد تربت على كتفي فانتفضت هلعة، كانت الشيخة غازية تبتسم لي في ودّ:

هدئي من روعك.. لا تغضبي، فالغضب قرين الشيطان.

حاولتُ أن أتكلم، لكن نشيجي علا، وتهدّج صوتي، فلم أجد كلماتي، وواصلت البكاء وارتميتُ على كتفها وجسدي ينتفض بعنف، وأردد كلمة واحدة من جملة مبتورة لا تجد بقيتها:

أنا... أنا... أنا.

ربّتت عليّ بعطف، وهمست بصوت عميق:

لا تغضبـي منها، ما هي إلا وجه آخر لهذا الإنسان الضال، الذي سقط في حب ذاته، ونسي حبه الأعظم، كلنا يحمل في داخله هيفة بقدر ما، وربما هي أيضاً تحمل بداخلها حباً عظيماً ينتظر الفرصة ليتدفق منه نبع نور، لكنها لم تكتشفه بعد، فالله موجود في قلب المؤمن، لكن المهم أن نبحث عنه، فإن رغبتك البدايات زهدتك النهايات، وإن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن.

صدمتني كلماتها، أتدافع الصوفية الورعة عن عاهرة فاجرة؟! أي زيف ذلك الذي أحياه؟!

نظرتُ مباشرة في عينيها، فوجدت فيهما بريقاً هادئاً، وابتسامة مطمئنة، بينما كان يتردد في عمق نفسي صدى كلماتها: «كلنا يحمل في داخله هيفة بقدر ما»!

(13)

القاهرة في شوال 708هـ - أبريل 1309م

الأرق وحده رفيقي في تلــك الليالي الطويلة، في الغرف المجاورة تتصاعــد مع هدأة الليل أنات النســاء وبكاؤهن إذا ما تذكرن أولادهن، بعضهن يتقلبن على جمر الاشــتياق واللوعة من قسوة الاحتياج لأنيس في ذلك الليل الطويل، فيما تسابيح وأذكار ودعوات بالخلاص تتصاعد من غرف أخرى تشــق جوف الظلمة باحثة عن طريق نحو الســماء، أما أنا فلا أجد ســوى الصمت، أتصبّر به، فالذكرى ألم، والشــوق ألم، والســماء أحسها أبعد من أن تستمع دعائي، لكن الله قريب، ألم يقل هو ذلــك عن نفســه، لماذا لا أبحــث عنه، أبحث عنه في قلبــي، ربما كان موجوداً في مكان ما؟!

يا ربّ إني امرأة ضعيفة، ومن للضعفاء غيرك، هذا قلبي أنت تعلم ما به، كلي جرح ينزف، جفّت الدموع، ونضبت الدماء، وليس لدي ما أواري به سوأة ألمي، أتسمعني يا رب؟!

خســرت كل شــيء في حياتي، لماذا إذاً منحتني السعادة ثم أخذتها مني؟!

لـو كنت تركتنـي في عذاب الرق واليتم وفـراق الأهل، لما تألمت اليوم، فلماذا منحتني الزوج والبيت والابن، ثم أخذتهم مني في لحظة، لماذا تعذبني؟!

يا ربّ لم يعد لدي ما أخسـره، هل هذا ما تريده مني، أين رحمتك التي وسعت كل شيء؟!

يا ربّ... ما أحببت شيئاً في هذه الدنيا إلا وضاع مني، وما كرهتُ شـيئاً إلا وبقي، حتى صرتُ أحب ما أتمنى أن يزول، وأكره ما أرجو أن يبقى!

أحببـت أمي، فضاعت مني وضعتُ منها، أحببت حريتي فسُـلبت مني، وكرهت عبوديتي، فعدتُ إليها، أحببت زوجي فذهب إلى مصير مجهول، كرهتُ الوحدة، فها أنا أحياها بغير نهاية، حتى ابني، منحتني إياه، وقبل أن أرى وجهه وتعلق في ذاكرتي ملامحه، أخذته مني.

أنا امرأة تافهة... لم أختر مصيري، لم أفعل فحشـاء في هذه الدنيا، فلماذا تعذبني؟

أنا حتى لا أدري من أنا، لا أذكر اسمي الأول، لا أعرف لي وطناً أو أهلاً، ولم أملك في حياتي شيئاً، كنت دوماً أنا المملوكة، أنا السلعة، أباع وأُشـترى ويُهادى بي، لم يسـألني أحد عما أريد أو أختار، غيري دوماً يختار لي كل شـيء، اسـمي، سـكني، زوجي، مصيري، فلماذا تعذبني؟!

ربّ... أنا أضعف من أن أسامح أو أحبّ من ظلمني.

ولا أسـتطيع أن أكـون باغيـة من الغوانـي، أبيع جسـدي بدراهم

معدودة فأكون في شرفي من الزاهدين.

ولست أطيق أن أعيش في هذا القبر، ونار الظلم تمزقني كل لحظة..

أنا لم أعد «خوند فرح»، ولا أستطيع أن أكون «الشيخة غازية»، ولن أكون «هيفة»، ولا أريد أن أكون «أم بركة» أو «آمرة الرواق»... فمن أنا؟

من أنا؟؟

من أنا؟؟؟

يا ربّ.. ضللتُ وما لي سواك..

فدلني على الطريق....

(14)

القاهرة، أغسطس 2010

حالــة غامضة أعيشــها منذ أســابيع، أصبحتُ لا أفكــر إلا في تلك المرأة المملوكيــة صاحبة اليوميات في «رواق البغدادية»، أبحث عن أي شــيء يقربني منها، أشــعر بأنني أنتمي إليها، وتنتمي إليّ، لم يعد لدي شك في أنها تلك المرأة التي تأتيني في الحلم، في الأسابيع الماضية زارتنــي أكثر من مــرة، رأيتها في أكثر من صــورة، لها نفس الوجه الحزين، والنظرة الغامضة.

رأيتها ذات ليلة وهي تطعم بضع حمامات بيض وســود من كفّيها، وقد أطلقت شــعرها الأســود الطويل لريح خفيفة أخذت تداعبه، أخذت الحمامــات تكبــر بين يديهــا، ثم تحولت إلى بشــر صــاروا يتكاثرون بصورة مفاجئة، حتى غصّ بهم المكان، ثم سارت وهم يتبعونها، وقبل أن تغــادر نظرت إليّ، وقالت لي جملــة واحدة: «لقد اخترت طريقي، فاصنع أنت طريقك».

أي طريــق ذلك الــذي اختارته تلك المــرأة الغامضة؟ وأي طريق تريدنــي أن أصنعه؟ وما علاقتــي بها؟ ولماذا أرتبط بها وأنا لا أعرف عنها شيئاً؟

جحيم من الأسئلة بلا إجابات شافية، أبحرت وسط آلاف من الصفحات لعلي أعثر على شيء ملموس، يمنحني بعض السكينة، كل كتب التاريخ تحكي تاريخ الملوك والأمراء، أما عامة الناس فلا يأتي ذكرهم سوى في بضع عبارات مبتورة، تباً لهذا التاريخ القاصر، أليس هناك من يروي لي قصة تلك المرأة، أريد المزيد، ظمئي لمعرفتها لا يطاق، وحالة الانجذاب إلى ذلك الماضي البعيد يكاد يصيبني بالجنون.

تذكرت على الفور كلمات ريم عن اليوميات التي كتبتها، والتي كانت تعمل على تحقيقها، سارعت للاتصال بريم لعل في تلك اليوميات ما يشبع نهمي، رغم أن ردها كان محبطاً بعض الشيء، لكنها أعطتني في النهاية بصيص أمل خافت، فقد أوضحت أن هذه اليوميات تسجل في دار الكتب والوثائق القومية، وبما أنها وثائق تم العثور عليها حديثاً، فلا يجوز الاطلاع عليها إلا بعد الحصول على تصريح خاص، لأنها لم تتحول إلى وثائق فيلمية يمكن للجمهور العادي استخدامها، وأنها كانت تقوم بتحقيق تلك الوثائق بيسر بحكم منصبها العلمي والتنفيذي، أما الآن وبعد ما صار أخيراً، فقد توقفت عن العمل في هذا المشروع، وبات من الصعب وصولها إلى تلك الوثائق.

سألت بحماس واضح:

إذاً يمكنني الاطلاع على تلك الوثائق، ولكنني بحاجة إلى تصريح؟

أجابت بريبة:

نعم.

واصلت أسئلتي المتحمّسة وبإصرار أكبر:

ومن المسؤول عن منح مثل تلك التصاريح؟

مكتب رئيس دار الكتب والوثائق القومية.

هل تعلمين أحداً هناك يمكن أن يساعدني في هذا الأمر؟

صمتت قليلاً، فشعرت بثواني صمتها أبداً طويلاً، لكنها عادت لتبشرني بأن لها صديقة باحثة في الدار، ويمكنها أن تساعدني، لكنها فضلت ألا تظهر معي في أي مكان رسمي حتى لا تكون سبباً في تعنت أو إحراج أحد من المسؤولين في تلك الجهات، تفهمت مقصدها، فواصلت الحديث، وأشارت إلى أنني بصفتي الصحفية يمكن تقديم طلب بالاطلاع على تلك الوثائق، وأنها ستلتقي ماريان صديقتها الباحثة بعد عصر اليوم في حملة تطوعية لمساعدة بعض الحالات الإنسانية في حي «بولاق أبو العلا» على مقربة من دار الكتب والوثائق، ويمكن أن تحدثها في الموضوع، لتعمل على مساعدتي في الأمر.

لم أدعها تكمل جملتها، طلبت أن أرافقها في جولتها، وأن ألتقي بصديقتها لترتيب الأمر، فوجئت بحماسي، لكنها استسلمت بعد ضحكة قصيرة، وأخبرتني بالموعد ومكان اللقاء، لكنها ختمت المكالمة بأن هذه الزيارة ليست للسياحة كتلك التي رافقتني فيها بشارع المعز، لكنها رحلة إلى وجه القاهرة الآخر، وربما تسبب لي كثيراً من التعب، أجبتها بإصرار: «لا تعب أكثر مما أنا فيه الآن».

***

قبل الموعد المحدد كنت واقفاً هناك أنتظر، في ذلك المكان الواقع على «كورنيش النيل»، حيث تتجاور الأبراج الفارهة، مبنى الإذاعة

والتلفزيـون، وزارة الخارجية، أبـراج البنوك الكبرى ومركز التجارة العالمـي، وفنادق الخمـس نجوم التـي أزاحت وراءها مئـات الأبنية الصغيرة والفقيرة التي يتعيش سـاكنوها على ما يسقط من فتات سكان الصـف الأول الـذي يحجب عنهـم رؤية النيل ونور الشـمس، وربما استنشاق الهواء نفسه.

هذا الحي الذي كان أحد أشهر أحياء القاهرة القديمة، سكنه الأولياء والمتصوفة، ونزل فيه السـلاطين والأمراء للاستشفاء وطلب الراحة والاسـتمتاع بروعـة الطقـس وجمـال النيل، كمـا أقامت فيـه البغايا والغانيـات بيوت المتعة لراغبيها مقابل دنانيـر معدودة، لايزال الحي يزخـر بمتناقضاتـه الكثيـرة، فإلى جـوار المراكز التجاريـة الكبرى والمحـال الفارهة، يتجاور الباعـة الجائلون في «وكالـة البلح» ربما يبيعون نفس السـلع، وربما تصب العائدات في جيب رجل واحد، لكن التفاوت بين المشهدين مثير للتساؤل والدهشة.

جاءت ريم متأخرة عدة دقائق بسـبب زحام السـير الذي لا يهدأ في هذا المكان، بعد اعتذار مقتضب، سألتني:

لمـاذا كل هـذا الإصرار على المجيء، ولماذا تشـغل نفسـك بتلك السيدة المملوكية؟

توغلنا سـريعاً في بعض الحواري الفقيـرة المحاصرة في «مثلث ماسـبيرو» خلف مبنى التلفزيـون ومقـر وزارة الخارجية، وأخذتني مشـاهد البيوت القديمة، والوجـوه الممصوصة التـي تجلس أمام تلك البيـوت أو تتحرك بجوارنا في الشـارع، وعندمـا أدركت أنها لاتزال تنتظر مني إجابة قلت:

كنـت دومـاً أرى هذا الحـي مـن وراء الواجهـة الزجاجية لمبنى «أخبـار اليوم» هنـاك، لم أكن أرى فيه سـوى مئات البيـوت الفقيرة المتلاصقة التـي تكتظ أسـطحها بـ«الكراكيب» والبشـر والحيوانات والطيور المنزلية، المشهد من أعلى مختلف تماماً عن الرؤية من قرب على الأرض.

ردت وبعض الترقب يعبر ملامحها:

لم تجب بعد... لماذا كل هذا الاهتمام بيوميات المرأة المملوكية؟

لم أجد بداً من الإجابة:

أبحث فيها عن نفسي، التي أريد أن أراها على الأرض، وليس من أعلى واجهة زجاجية.

***

بعـد أمتـار قليلـة التقينا مجموعة من الشـباب أمام مقهى شـعبي فقيـر، تعارفنـا سـريعاً، ووزع ممثل إحدى الجمعيات الأهلية أسـماء بعض الحالات التـي يجب على أفراد المجموعة التواصل معهم لتقييم احتياجاتهـم ورصد واقعهم الحقيقي، ثـم طلب من الجميع الالتقاء فور إنجاز المهمة على نفس المقهى الفقير.

كان طبيعيـاً أن أكـون فـي مجموعـة ريـم والتـي أضافـت إليها صديقتها ماريان، شـابة بسـيطة ومرحة، تبدو أصغر كثيراً من سـنها الحقيقية، بمجرد أن انطلقنا، لم أطق صبراً على مفاتحتها في موضوع التصريـح، فجاء ردهـا تلقائياً وقالت إن ريم حدثتهـا عن الموضوع، وطالبتنـي بأن أعتبـر الأمر منتهياً، ثم أضافت: لـم يكن هناك داعٍ أن

تأتي بنفسك من أجل موضوع بسيط كهذا! شكرتها، وقد بدأنا نتوغل وسط الأزقة الضيقة، والعيون الغائرة في الوجوه تلاحقنا أينما ذهبنا، كان من الصعب أن أرى كل ذلك من وراء الواجهة الزجاجية من أعلى، وشعرت بأن وجودي هنا لم يكن عبثاً.

دخلنا بيوتاً أقرب إلى القبور منها إلى سكنى البشر، غرف صغيرة يفوح منها الصبر برائحته الخانقة، تعيش فيها أسرة كاملة، في غرفة واحدة يأكلون ويشربون ويتناسلون ويمرضون ويموتون، النساء ترتدي جلابيب سوداً، وكأنما قد أعلنت حداداً دائماً، أو لأن الأسود أكثر احتمالاً وجلداً في مواجهة الأتربة والبقع، تماماً مثل هؤلاء الناس، يجالدون للبحث عن لقمة العيش، ويتحملون أتربة الزمن وبقع المجتمع، وربما لأن اللون الأسود لون أخرس لا يعلو صوته إلا في الأحزان!

هذه امرأة أقعدها مرض السكري، قطعوا إحدى قدميها، والأخرى تنتظر، لا تجد من يدفع لها ثمن جرعات الأنسولين، وزوجها قد هجرها منذ زمن تاركاً لها أطفالاً ثلاثة، وتلك أخرى مات زوجها وترك لها أربعة أبناء، الكبار تركوا المدارس لتجد الأسرة ما تتعيش منه، لكن أكبرهم عرف طريق المخدرات تعاطياً وتجارة، وهو الآن في السجن، والثاني هرب إلى مصير ربما لا يختلف عنه كثيراً، بينما الفتاتان الصغيرتان لاتزالان تحت عباءة أمهما، والله أعلم ماذا سيحدث لهما عندما ترسم الأنوثة على جسديهما حضورها المثير؟

وذاك شاب، لا يكفي راتبه لشراء أدوية ابنته المصابة بضمور في المخ، لأن المستوصف الفقير الذي ولدت فيه الطفلة لم تكن به

التجهيزات الكافية لولادة متعثرة، طلب منا إن كنا نعرف أسرة ميسورة تشتري كليته، كان جاداً، وقد ظننت ألمه على ابنته قد أذهب عقله، لكنه همس في أذني بإصرار ونحن نهم بالخروج من البيت ألا أنسى موضوع «الكلية»، وأن ذلك سيكون معروفاً لا ينسى.

شعرت بغثيان، وضاق صدري، أوشكت على الإغماء، فاعتذرت من ريم وصديقتها، وطلبت منهما أن أسبقهما وأنتظر على المقهى ريثما تنتهيان من زيارة بقية العناوين التي بحوزتهما.

ألقيت بجسدي على الكرسي المتهالك، وأخذت نفساً عميقاً، حاولت الخروج من تلك الصور التي لم أكن يوماً أتخيلها، أكل هذا على بعد خطوات مني، وأنا أعمل هنا منذ سنوات طويلة، لا أراه ولا أعرفه، أي زيف هذا الذي نعيشه؟ ما الفارق إذاً بيننا وبين كتب التاريخ المضللة التي لا تروي سوى تاريخ السلاطين والأمراء؟ ماذا بنوا وتركوا، مدارس ومساجد وخانقاوات، تكلفت آلاف الآلاف، بطولات ومعارك وانتصارات، كل ذلك زيف، غبار، لم يحدثنا أحد عن فقراء قتلهم الفقر والمرض، أمهات اضطررن إلى بيع أجسادهن من أجل تربية أبنائهن، رجال خرجوا ليسرقوا ليطعموا أطفالهم، ونحن الآن ندور في نفس الدائرة، نكتب نفس كتب التاريخ الزائفة، كلنا لا ينظر إلا من وراء زجاج... كلنا زائفون!

وبينما أنا غارق في غضبي إذا بريم وصديقتها قد جاءتا للاطمئنان عليّ، حاولت الصديقة التخفيف من الموقف بتعليقاتها المرحة:

لم أكن أعلم أن قلبك خفيف كدة، أنت شفت حاجة؟!

وأنا لم أكن أتصور أن الواقع ثقيل بهذا الشكل!

قلت في تأثر واضح، فأدركت ريم أن الأمر لا يحتمل تعليقات صديقتها الساخرة فتدخلت:

الواقع أسوأ من أي تخيل يا عزيزي، هنا حقيقة هذا المجتمع، هنا حصاد ما يزرعه هؤلاء القابعون في المباني الفارهة المكيفة على بعد خطوات، الكل ينكر وجود هؤلاء، أو على أفضل تقدير يلقي إليهم ببعض الصدقات، يسكت بها ضميره إن بقي له ضمير، لكن أحداً لا يمدّ إليهم يده بصدق، بل يحملهم البعض ذنب فقرهم ومرضهم، ثم لا يرحمهم إن هم خرجوا على القوانين والقواعد والأعراف التي وضعها هؤلاء في أبراجهم العالية.

حاولت أن أتكلم، لكن توافد بقية أفراد المجموعة حال دون تواصل الحوار، جاؤوا جميعاً، وفي يد كل منهم عشرات الأسماء والاحتياجات، ألقوا بما لديهم على طاولة العجز المتآكلة أمامهم، كسى وجوههم الأسى، وأشعرهم العجز عن تلبية كل تلك الاحتياجات لإمكانياتهم المحدودة بالإهانة، وكأنهم مضطرون إلى خيانة ثقة هؤلاء البسطاء فيهم، كان عليهم في كل مرة يجلسون فيها تلك الجلسة أن يخلعوا مشاعرهم، ويرتدوا ثوب الجراح، الذي لا بد أن يفقد في لحظة ما تعاطفه مع مريضه، حتى يتمكن من الإمساك بمشرطه ويبدأ في تمزيق لحمه من أجل العلاج، أو يبلغه بأنه لا أمل لديه سوى انتظار موت وحده يختار متى يرحمه من آلامه.

بدأ الشباب مناقشة ما جاؤوا به من مآس، لكن اعتيادهم هذا النشاط، لم يجعلهم يحترفون تقمّص مشاعر الجراح، فقد كان الأسى أكبر من

أن يحتملوه، ويبدو أن معايشة هذا الواقع المؤلم المتكررة عجزت عن أن تكون «مصلاً» ضد «اهتزاز» المشاعر، بل صارت كهزات أرضية تتوالى، ورغم ضعفها وقلة تأثيرها في البداية، لكن استمرارها يضعف الحواجز والجدران التي نحيط بها أنفسنا بعيداً عن هذا الواقع، حتى إذا ما جاء الزلزال انهار أمام صفعاته كل شيء، ليصبح الجميع كأرض مكشوفة بلا أسوار أو حواجز أمام موجات لا تنتهي من الألم، وقد شعرت بأننا أقرب مما نتصور من هذا الزلزال.

(15)

القاهرة، أغسطس 2010

لــم يطل بي الانتظار، جــاءت الموافقة على اطلاعي على يوميات تلك المرأة المملوكية الغامضة، كم أتحرق لمعرفة تفاصيل تلك القصة.

فــي صباح ذلــك اليوم المقرر ســارعت إلــى مبنــى دار الوثائق، ومــا هي إلا دقائق حتى كانت بين يدي وثائــق «رواق البغدادية» كما أســموها في الدار، حزمة قديمة من رقع الجلد، حواف بعضها متآكل، لا يمكــن تصور أن بها الكثير، لكن نهمي لمعرفة ما تحتويه لا يطاق، كان مــن الصعــب عليّ أن أقرأ وأفهم كثيراً ممــا تحتويه تلك الوثائق، فاســتعنت في معظــم الأحيان بريم، التي زادها حماســي ليوميات تلك المرأة اهتماماً بها.

أن يلمس المرء بيده جزءاً من الماضي، كان بالفعل إحساساً مثيراً، ربما هذا الإحســاس هو دافع من يقتنــون القطع الأثرية، أن يكون بين أيديهم شاهد حي عاش مئات وربما آلاف السنين، تبدلت عليه العصور، وتناولته مئات الأيدي، ودارت حول آلاف القصص، فماذا إن كان هذا الشــاهد نفســه يروي قصة لم تعرفها كتب التاريخ من قبل، وربما كان

ما يحويه يكشف للمرة الأولى ظلت مختفية لأكثر من سبعمائة عام.

كان التعامـل مـع تلـك الوثائق يقتضـي من أمثالي دقـة خاصة لا تتـاح لغير المتخصصين، لكننـي ورغم كل تلـك المحاذير التي تتخذ عند التعامل، شـعرت بأنني ألمس تلك المـرأة الغامضة، التي أودعت تلك الوثائق سـرها، وقصة حياتها، شـعرت بالمسـؤولية، أحسسـت أنهـا تهمس لـي بكلمات ظلت تتردد بين ذرات الهـواء على مدى تلك السـنوات البعيدة، ضائعة بين موجات مـن القصص والحكايات، وأنه قد آن الآوان ليلتقط أحد كلماتها، ليسـتمع إليها الناس، أنا الآن صوتها، لسـانها لمخاطبة الوجود بعد صمت سـبعة قـرون... الآن آن لك أيتها الصامتة أن تتكلمي.

لم يكن الأمر بالسـهولة التي تخيلتهـا، فكثير من التفاصيل مفقودة، وبعض السياقات التي تروى فيها الأحداث تبدو غامضة، واحتجتُ في غيـر مرة إلى الرجوع للمراجع التاريخية لفهمها واسـتيعاب ما ترمي إليه، وربط ما هو وارد باليوميات، بمجريات الأحداث التاريخية، لكن أغرب ما جاء في تلك اليوميات، هو تغير اسـم كاتبتها، حتى أصابتني الحيـرة في بعـض المواضع، فهـي أحياناً خوند فـرح لكن في بعض المقاطع تصبح دنيا، لكن الروح واحدة!

من أنت أيتها المرأة الغامضة، هل أنت فرح.. أم دنيا.. أم لك اسـم ثالث.. أم ليس لك اسم على الاطلاق؟!

في كل الأحوال لن أتركك، لن أتخلى عنك، سأسـتمع لقصتك حتى النهاية.

(16)

القاهرة، شوال 708هـ – أبريل 1309م

في تلك الليلة لم أنم، الحيرة تمزقني، ذلك السؤال الكبير يتردد في رأسي، وكلما هربت منه يعود فيحاصرني.

من أنا؟؟

هدّني القلق، وغلبني النوم قبيل مطلع الفجر، فإذا بي أعلى جبل المقطم، ومن تحتي تنام أحياء القاهرة، وأنا أنظر في المدى، كأنني أبحث عن شيء مفقود، فلا أجده وكلما نظرت في اتجاه ارتد إليّ بصري خاسئاً وهو حسير، حتى بزغ نور يأتي من الشرق، فعدوتُ باتجاهه أحسبه ما أريد، فإذا برجل مسنّ يتعبّد في كهف، وقفتُ أمامه، وأنا ألهث، فنظر إليّ بعينين مطمئنتين، وقال لي «اقتربي»، اقتربتُ بوجل، فسألني:

عمّ تبحثين؟

أجبت في حيرة:

لا أعرف.

ابتسم في ثقة وقال:

أنا أعرف.

أصابتني الدهشة، وقبل أن أسأله أجاب:

ابحثي عن قدرك يا ابنتي، لن تكوني مثل غيرك، قدرك مكتوب وطريقك لم يصل بعد إلى نهايته، لا تبحثي عن ماضيك، ولكن فتّشي عن مستقبلك، انزلي إلى المدينة، فأنت قدرها، وهي قدرك، اختلطي بترابها فربما يأتيك ما لا تعلمين من حيث لا تدرين.

أفقت وصوت العابد يتردد في أذني بوضوح «ابحثي عن قدرك... انزلي إلى المدينة... اختلطي بترابها».

أي قدر يقصده هذا العابد؟ وأي مصير قد أجده عندما أختلط بتراب تلك المدينة التي لم أعد أجد فيها سوى قسوة لا تحتمل؟

واصلت الأسئلة المستعرة دوارها في رأسي، فسقطتُ من الإعياء، وعندما انبلج الصبح، أفقت وقد حسمتُ قراري، وذهبت من فوري إلى آمرة الرواق، أعرف أن ما انتهيت إليه خطير، لكن لم يكن أمامي مفرّ.

(17)

القاهرة في شوال 708هـ – أبريل 1309م

خرجت هيفة تستقبلني عند باب مغطس «حمام التلات»، لم تكن تصدق عندما أبلغتها آمرة الرواق أنني طلبت رؤيتها، هكذا قالت لي، أخذت إحدى فتياتها برقعي الذي كنت متخفية فيه عند خروجي من الرواق، وعندما هممت بالكلام، أشارت إليّ هيفة بالسكوت، وهي تستدعي اثنتين من نساء الحمام:

لا كلام قبل أن تأخذي واجب الضيافة في حمامي المتواضع، أظنك لم تدخلي حماماً منذ فترة طويلة، ولا بد أنك بحاجة إليه؟

كنت بالفعل أحوج ما أكون لمثل هذا الحمام، فقد نسيت مثل تلك الأماكن منذ شهور، وأنا التي كنت أحرص على ارتياد حمام الأميرات في الأسبوع مرتين أو ثلاثاً، باءت محاولاتي المترددة في الرفض بالفشل، وتغلبتُ بصعوبة على انقباضي وإحساسي بالتقزز لمجرد تخيلي أن هذا المكان يضم بين جنباته أجساد البغايا والغانيات، وأنهن يأتين إلى هنا ليزلن عن أجسادهن الفاجرة آثار متعتهن الحرام.

ويبدو أن «ضامنة المغاني» قد استشعرت انقباضي، فقالت وقد رسمت على وجهها ملامح جادة لتوحي بصدقها:

هذا المكان يا أميرتي لي ولصديقاتي فقط، ولا تدخله إلا النساء رفيعات المقام مثلك.

ورغم أنه يصعب تصديق امرأة مثلها، لكنني استسلمت أخيراً لأيدي العاملات التي أعدن لي إحساسي بجسدي، مع هواء الحمام الساخن، أشعر بجسدي يتفكك ويسترخي، ويلقي عنه أعباء ليالٍ طويلة من الأرق، إحساس الماء المنعش، وأيدي المدلكات الخبيرات تعيد إليّ إحساساً افتقدته لفترة بأنني امرأة، نالت الأحزان مني كثيراً، وقضى القلق على ما تبقى من قدرتي على المقاومة.

آه لو كان هناك حمام للروح، مثلما هناك حمامات للجسد، لكان البشر أحسن حالاً، ولكنا تخلصنا فيها من تلك الآثام التي تثقل الروح، وتجعلها أسيرة السأم.

أعادني الحمام سنوات إلى الوراء، تناسيت للحظات تحت خدر البخار وأيدي الماشطات واقعي الأليم، وعندما نظرت في المرآة ظللت محدقة في ملامحي لفترة، كم غيرتني تلك الأيام الطويلة؟! منذ فترة لم أنظر إلى هذا الوجه الذي يبدو شاحباً، وملامحه حادة.

ألي هذا الوجه؟

هل صرتُ أستغرب وجهي مثلما ضللتُ طريق روحي؟

***

زال الكثير من توتري، مع تدفق المياه الدافئة على جسدي، ويبدو أن تلك الـ«هيفة» كانت تعلم سحر الحمّام، فأرادت ألا نتكلم قبله، أو كأنها أرادت أن تريني جانباً مما لديها من الراحة والدعة، فيكون ذلك داعياً لي على الاستجابة لدعوتها المقيتة، التي كلما تذكرتها ثارت أعصابي، لكنني اليوم أحتاج إلى السيطرة على نفسي إلى أقصى درجة، حتى أتمكن من تحقيق ما أريد.

جاءتني خادمات الحمّام بشراب من الزنجبيل الساخن المحلى بالعسل، أعادت نكهته إليّ طعم الماضي، وبينما أستشعر الدفء يتسلل إلى أوصالي جاءتني هيفة وجسدها المترهل يتحرك في كل اتجاه، وقالت بلهجتها المليئة دوماً بالميوعة:

لعلك أحسن حالاً الآن يا أميرتي؟

نهرتها بلهجة حادة، وملامح غاضبة:

لا تخاطبيني بوصف أميرة مرة أخرى... أفهمتِ؟

واصلت كلامها بميوعة، وكأنها لم تتأثر بهجومي:

أولست أميرة... يا أميرة؟!

واصلتُ بعناد وغضب:

كفّي عن هذا الأسلوب، وإلا انصرفتُ فوراً.

صمتت هيفة، ويبدو أن حرصها على بقائي كان أقوى من طابعها المتهتك، وبعد برهة استعدت فيها هدوئي، وارتشفت رشفات متعجلة من كأس الزنجبيل قلت لها بكلمات متقطعة:

أنا أريد أن أعمل معك لكن بقواعدي أنا وليس بقواعدك؟

رسمت هيفة الدهشة على وجهها، وكأنها لم تتوقع ما قلته، أو هكذا حاولت أن توحي لي، لكنني واصلتُ بغير انتظار لردها، فقد حسمتُ أمري:

سأدفع لك مثلما تدفع أية غانية وزيادة، لكن لا شأن لك بما أفعله، فقط عليك أن تؤمني لي خروجي من الرواق وقتما أريد، وسأدفع مقابل أية خدمة قد أحتاجها منك؟

وما يدفعني لتنفيذ ما تطلبينه؟

المال، ستحصلين على ما تريدين، فقط عليك أن تساعديني.

لا بد أن أفهم أولاً فيما أساعدك، أنت تعلمين خطورة موقفك، وربما نالني ضرر من اتصالي بك، إلا إذا كنت ستعملين تحت إدارتي وأمام عيوني.

أثارت كلماتها ولهجتها أعصابي مجدداً:

لا تتحدثي معي بمثل هذا الأسلوب مجدداً، فأنا امرأة حرة لا يمكن أن أتحول إلى بغيّ حتى لو كنت في محنة، أتفهمين؟!

تغيرت ملامحها فجأة، وتبدل وجهها، وبلهجة جادة للمرة الأولى منذ أن رأيتها، قالت بصوت عميق:

لا تتصوري أن فتياتي يختلفن كثيراً عنك، نحن لسن جنساً غريباً، وراء كل واحدة منا قصة، وربما لو تغيرت المصائر، لكانت إحداهن مكانك، وأنت مكانها منذ سنوات، عموماً يا سيدتي لن أخوض في هذا

الأمر كثيراً، وسـأترك التجربة تعلمكِ، والآن ماذا تريدين، وتحتاجين مساعدتي فيه؟!

لأول مرة أشعر بالخجل أمام تلك المرأة، فاللهجة الجادة التي كانت تتحـدث بها جعلتها تبـدو وكأن الكلمات تخرج من أعمق نقطة صادقة بداخلهـا، وربما كان في كلامها بعض الحق، ففي هذا الزمن لا تختار المـرأة مصيرها، إنمـا يصنعه لها آخرون، فقد تجد نفسـها جارية في بيـت، أو خليلـة في قصر، أو أميرة على عـرش، أو غانية في مبغى، لكنني قررت أن أختار مصيري.

أعادني صوت هيفة من شرودي، وهي تكرر السؤال:

ماذا ستعملين يا سيدتي، وما حاجتك إليّ؟

رددتُ بحسم، وأنا أنظر لضوء الشمس الذي كان ينهمر بدفء من سقف الحمام:

سأعمل مطربة، وستعرفين ما أريده منك في حينه.

(18)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

لم أستطع أن أكون سوى نفسي، لم أتمكن من أن أخلع عن نفسي رغبتي في الانتقام ممن أذلني، وسلبني ماضيّ ومستقبلي، لم أستطع أيضاً أن أترك نفسي فريسة ليأس يوردني مورد الهلاك، فأبيع جسدي وروحي، ليس أمامي من سبيل سوى الهروب من هذا القبر المسمى بـ«رواق البغدادية».

قررت أن أنتقم، ولكن على طريقتي، قد أكون امرأة ضعيفة، لكن القدرة على الصمود والصبر هي سلاح الضعفاء الأقوى، وقد كانت قدرتي على الصبر دوماً هي سبيلي نحو النجاة، أما الآن فلم يعد لدي ما أخسره، فقررتُ أن أنتقل إلى الهجوم، قررتُ أن أنتقم لنفسي ولكل من هن مثلي، لنساء الرواق، لأم بركة، وفاطمة، ونرجس، والشيخة غازية، وحتى لآمرة الرواق وهيفة، ولأسماء أخرى لا أعرفها، ولا تعرفني، وربما لن أعرفها، ولن تعرفني، لكل امرأة لم تختر مصيرها، قررت أن أنتقم من أجلهن جميعاً، وأن أصنع مصيري وأختار طريقي.

ولأنني لا أجيد في هذه الحياة سوى الغناء، فقد قررت أن يكون

صوتـــي هــو ســلاحي، أن أغني ليكون صوتي ســيفاً فــوق رقاب من ظلمونـــي، وخنجــراً في ضلوعهم، كنت أعرف أن الأمر ليس ســـهلاً، وأنني ســأواجه خصوماً أشــداء، ليس فقط الجاشــنكير ورجاله، ولكن ربمــا تتســع دائرة المواجهــة، وتضم خصوماً لا أعرفهــم حتى الآن، لكنني لن أتراجع.

كنتُ بحاجة أيضاً إلى مســاعدة هيفة في الخروج من الرواق، وهو أمــر محفوف بالمخاطر، خاصة أن هنــاك رغبة غير خفية من جانب رجال الجاشــنكير لإذلالــي، وقد فكرت بأن ظهــور هيفة في الصورة ربمــا يكون كافياً لإقناعهــم بأنهم قد حققوا مرادهــم، وانتهوا مني إلى الأبــد، بل إن ذلك قد يشــفي غليــل الملك في الانتقــام مني، فينصرف بعدما يعلم بالأمر عن مطاردتي أو محاصرة بصاصيه لي، فضلاً عن أن تحقيــق مقصدي كان يتطلب دعماً من جانب هيفة في إخفاء هويتي المعروفــة، فلم يكن من المســتطاع أن تغني خوند فــرح أو تظهر في احتفــالات وأفراح، كان لا بد أن تكون هناك امرأة أخرى، لذا خرجت إلـــى الوجــود «دنيا الدمشــقية»، وقد تولت هيفة ترويــج قصتها، فهي المطربة التي ســحرت أهل الشـــام، وجاءت لتمتع بصوتها العذب أهل مصر، وقد ســاعدتني بالفعل في التخفي، والخروج لأهل المحروســة كـ«دنيا»، لكن «خوند فرح» لم تختف من الوجود.

أمنّــت لي هيفة خروجي من الرواق بالاتفاق مع آمرته التي أوهمتها بأننـــي صرت مــن «الخواطئ»، والغريــب أن معاملة تلــك المرأة لي تحسنت، يبدو أنها كانت تعاني في معاملتها لي كأميرة، لكن لم تكن لديها أدنى مشــكلة في التعامل معي كغانيــة، وفي المقابل ابتعدت عني بعض نساء الرواق ممن لم يعرفن الحقيقة، ولم أستطع إخبارهن بكل شيء.

وحدها الشيخة غازية، ظلت على صلتها معي، أتحدث معها من وقت لآخر، كانت نظراتها الثاقبة في عمق عيني تؤكد أنها لا تصدق ما بات يتردد عني، وعند خروجي من الرواق للغناء للمرة الأولى طلبت منها أن تدعو لي، فحدجتني بنظرة لم أفهمها، لكنني لن أنساها، ثم دعت لي بأن يدبر الله لي أمري، وأن يضعني على الطريق الصحيحة، لكنها قبل أن أغادر حذرتني من نفسي، وقالت عبارة غامضة لم أفهمها، لكنها ظلت تتردد في داخلي وأنا أخطو خارج الرواق من بابه الخلفي: «سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار».

خرجت تحت ستر المساء باتجاه «حمام التلات»، حيث ساعدتني إحدى فتيات هيفة في وضع زينتي وتغيير بعض ملامحي، كنت سأغني للمرة الأولى في زفاف ابنة أحد كبار التجار، وقد احتشد في بيته عدد كبير من التجار ومقدمي الدرك، وبعض الأمراء، كم كنت مضطربة، هذه ليست المرة الأولى التي أغني فيها، لكنني لا أغني اليوم كجارية في قصر سيدها، ولا كأميرة في بلاط السلطان، وإنما كمغنية تدفع المكوس لضامنة المغاني، مثلها مثل أية واحدة من بنات الخطأ، وهو ما يعني أنني قد أتعرض لموقف يفوق قدرتي على الصمود، إذا ما رغب فيّ أحد الرجال الحاضرين، وربما انكشف أمري فتكون المصيبة أعظم.

توكلتُ على الله، وتوجهت بصحبة إحدى الفتيات الى البيت المقصود، واندسستُ سريعاً وسط فتيات المعازف، كانت عيون كثيرة تترقب تلك المغنية الجديدة، ويبدو أن هيفة أشاعت الكثير عن دنيا الدمشقية، سمعت الهمسات تتطاير في الهواء من حولي، وقد أوشكت على البكاء من ثقل اضطرابي، إلا أن عزف الموسيقى أنقذني، جاء

اللحن حزيناً، فوجدتني أترنم بأبيات سـمعتها من إحدى نساء الرواق، ورغم بساطتها لكنها تمسّ قلبي:

أحبـة قلبـي إنـني لوحيـد
أريـد لقاكـم والمـزار بعيـد

كفـى حزنـاً أننـي مقيـم ببلـدة
ومن شفّ قلبي بالفراق وحيد

أجـول بطرفـي فـي الديـار فلا
أرى وجوه أحبائي الذين أريد(8)

كنـت أغني وأنا غائبة عن الوجود، الكلمات رغم بسـاطتها تخرج من أعماقي، غنيت وأشباح الماضي تتراقص أمام عيني، خرج صوت تلـك الفتاة التي افترقـت عن أمها، وصوت الزوجـة التي حُرمت من زوجهـا، وصـوت الأم التي لم ترَ وجه ابنها، صـوت عمري المكلوم كلـه، وبينما دموعي تغازل خيالات الماضي، جاءتني آهات المعجبين وهتافهـم، لم أتصـور أن يحظى غنائي بهذا الإعجـاب، للمرة الأولى أغني لنفسـي وليـس من أجل إمتـاع أحد، لكن يبدو أن حسـي وصل للآخريـن، حتى أولئك الذين لم يعرفـوا من أين جاء هذا الصوت، ولا تلك المآسي التي صهرت نبراته وصاغت نغماته.

وكلمـا أنهيتُ غنائي تتعالى الآهـات، وصيحات تطالبني بأن أعيد الغناء مرات ومرات، حتى طال السـهر، وامتد العرس بأكثر مما كان

(8) الأبيـات من شـعر العـوام بالقاهرة، انتشـرت بعد رحيل السـلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك.

منتظراً، وقام أحد الشعراء وقد استخفه الطرب، فبدأ في ارتجال أبيات تمتدح غنائي:

ودمشـقية تخفي الشموس جمالها
له حسـن إنشـاد تزين مقالها

قـد خايلـت بالبـدر ليـل تمامـه
فمازال من عيني وقلبي حيالها

انتهت الليلة بسـلام، وعدتُ متسـللة إلى الرواق، يغمرني احساس بالنشـوة، ليـس لإعجاب الناس بغنائي، ولكـن لأن الخطوة الأولى في طريقي تمت على خير، وإن بقيت خطوة أخرى كبيرة على خوند فرح أن تقـوم بها، لا أدري إن كانت سـتلاقي مصيـر الخطوة الأولى لدنيا الدمشقية، أم أن حظ «الغانية» سيغلب حظ «الأميرة»؟؟

(19)

القاهرة، أكتوبر 2010

شـــهور وأنا ألتقي ريم، أحياناً أراها صباحـــاً في دار الوثائق، فهي دوماً مرشـــدي نحو الكثير من المراجـــع والوثائق التي ينبغي أن أعود إليها لأفهم ما دوّنته تلك المرأة المملوكية الغامضة، ولأســـتكمل ســـياق الصورة التي لا تمثل تلك اليوميات ســـوى خط رفيع فيها، وأحياناً كنا نلتقي مساءً في بعض مقاهي وسط القاهرة، اندمجتُ كثيراً في محيطها الذي باتت تتشـــاغل به عن مأســـاتها، هي ترفض الاستســـلام، ودوماً تقول إن الاستســـلام ضعف وهزيمة وإن مقاومتها، رغم ضعفها، إنما يحرم خصومها، رغم قوتهم، من لذة الشعور بالنصر.

صـــارت الآن أهدأ من تلك الفتـــرة الأولى التي أعقبت قرار فصلها من الجامعـــة، وأنا من جانبي حاولت مســـاعدتها، من خلال أصدقائي في الصحف الخاصة والمعارضة، كان من الصعب أو المستحيل على وجه الدقة أن ينشـــر عن قضيتها شـــيء في صحيفة قومية، لكن هناك متسع ولو محدود في بعض الصحف الخاصة والمعارضة، ونصحني صديـــق فـــي إحدى تلك الصحـــف بألا تتعمـــد ريم إثارة واقعـــة افتتاح «شـــارع المعز» في حضور «الســـيدة الأولى»، وربطها بقصة قرار

فصلها من الجامعة، لأن ذلك لن يجدي كثيراً، ففيما يتعلق بالتعامل مع السيدة الأولى تتشابه مساحات الحرية المتاحة للصحف القومية المملوكة للدولة، مع نظيراتها المعارضة للنظام، فهذه السيدة لا يجرؤ كثير من رؤساء التحرير – المؤيدين والمعارضين على السواء – على إغضابها، بل إن كثيراً منهم يخطب ودّها وودّ المحيطين بها، وتندرتُ أنا وصديقي هذا بوقائع عديدة كنا نعلمها عن وسطنا الصحفي، سواء في الصحف القومية أو المعارضة، فكثير من رؤساء تحرير الصحف المعارضة الذين يرتدون صباحاً ثياب البطولة وانتقاد النظام، يبيتون ليلاً في فراش السلطة هانئين وادعين، فمصلحتهم هي البوصلة التي تحدد دوماً وجهتهم، سواء كانت مصلحة الحزب أو قياداته، أو حتى مصالحهم الشخصية مع رجال النظام وهي كثيرة ومتشابكة، بل إن من المفارقات التي أخذت وصديقي نتندر بها، أن هناك من وزراء الحكومة من صاروا «أبقاراً مقدسة» لدى صحف المعارضة والصحف الخاصة، فلا تجرؤ على انتقادهم أو الاقتراب من عرينهم، في الوقت الذي تزخر صفحات تلك الجرائد بانتقادات لاذعة وسخريات تتجاوز كل حد لرئيس الجمهورية نفسه!

وبينما أخذنا نستعيد الكثير من الوقائع التي كان أبطالها ولايزالون يجيدون لعب أدوارهم المرسومة لهم، سواء في معسكر المؤيدين أو في فسطاط المعارضين، تملكتنا حالة عارمة من الضحك، الذي لفت إلينا الأنظار في ذلك المقهى الكبير بميدان التحرير، فيما ظلت ريم تنقل نظراتها بيننا، وعلامات الاستغراب بادية بوضوح عليها، تكاد تظن أن لوثة جنون قد أصابتني وصديقي، لكن ذلك الأخير حاول السيطرة على نفسه سريعاً، وقال موجهاً كلماته التي حرص على أن

تحوي قدراً كبيراً من الجدية، رغم أن احتقان وجنتيه بالضحك لم يزل عن وجهه بعد:

آسف آنسة ريم أننا نضحك بهذه الطريقة، لكنه الواقع، وشرّ البلية ما يضحك.

نصحها صديقي بأن تستعين أيضاً بمواقع التواصل الاجتماعي، فهي مجتمع واسع ومؤثر، بعيداً عن الأنظار والعيون، ولا يقدر أحد خطورته حتى الآن، لكنه يصلح كوسيط جيد لتكوين شبكة من الداعمين للعديد من الأفكار والقضايا، كما وعدنا بنشر قصة القرار الظالم لفصلها من الجامعة في صحيفته، وفي عدة صحف أخرى يكتب فيها موضوعات بالقطعة، وبأسماء مستعارة، لكنه جدد التأكيد على أن أحداً لا يجرؤ على نشر القصة إذا تضمنت أية إشارة إلى موقف «السيدة الأولى» أو وزير الثقافة، أبديت تفهمي وحاولت التخفيف عن ريم، وقلت لها ونحن نخرج من المقهى، بينما كان «ميدان التحرير» يستقبلنا برحابته ومداخله المترامية:

ابتسمي أنت في مصر!

التفتت إليّ، وهزّت رأسها موافقة، لكنها لم تبتسم.

(20)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

اليوم تعود خوند فرح إلى الحياة، لتثأر من جلاديها.

هكذا حدثت نفسي وأنا أطأ للمرة الأولى في حياتي دار القضاء، كل الوجوه هنا تتشابه، لكن إحساساً عميقاً يجعلني أشعر بالمظلومين، أتفرّس في وجوه الظالمين، يختلط عليّ الأمر في كثير من الأحيان، فلا أدرك الفارق بين الظالم والمظلوم، لا تشغلني اليوم وجوه المظلومين، بقدر ما تستفزني وجوه الظالمين، إنها هنا في كل مكان، جنود الدرك، كبار التجار، كلهم جاؤوا يبحثون عن «حقوقهم»، وربما يستطيعون بما لديهم من جميل لسان وحسن بيان أن يقنعوا القاضي بعدالة قضيتهم، بينما لا يستطيع المظلوم الدفاع عن حقه، فيضيع، ويا لضيعة الحق على ألسنة الناس!

كل ما يعنيني اليوم هو أن أصل إلى القاضي عز الدين القيسراني، فقد سمعت كثيراً عن عدله وجرأته في الحق، رغم ما أثاره حكم أخير لصالح امرأة هجرها زوجها من لغط وغضب من جانب العامة والمشايخ على السواء، لكن الجميع يعترف له بعدله وجرأته، وأنا لا

أحتاج أكثر من ذلك، الجرأة والعدل، أحتاج إلى من ينصفني، وأنا أعلم خطورة ما أقدم عليه، ودون مساندة قاض جريء وعادل لن أحقق ما أريد، بل ربما أودى بي عملي سريعاً إلى الهاوية.

وقفت أخيراً أمام القاضي، كان شاباً دون الأربعين، وضيء الوجه، هادئ القسمات، حسن الهندام، صارماً إذا تحدث، نافذ البصر والبصيرة إذا استمع، سألني عن قضيتي، فرددت بعد تردد:

أريد أن أقاضي الملك.

نظر إليّ القاضي بتوجّس، وتوقف كاتبه عن التسجيل، بينما انتبه من كانوا في قاعة القضاء، فهذه ربما المرة الأولى التي تنتقل فيها صراعات الحكم من أروقة القلاع والقصور إلى ساحات القضاء، فقتل الخصوم في تقلبات السلطة باتت أمراً معتاداً، ولم تكن لتستفز أحداً، بل عدها الناس ضرورة من ضرورات الحكم وأثراً من آثار اضطراباته، فلم يُعرف من قبل أن أسرة مملوك شكت قاتله، أو أن أهل أمير هالك استعانوا بالقضاء للقصاص من قاتليه، لذا كنت أدرك أن ما أقدمتُ عليه خطير، وبدت الصدمة واضحة على الوجوه، شعرت بلحظات الصمت وقد طالت، حتى قطعها القاضي بصوت هادئ:

وما قضيتك ضد الملك؟

أتهمه بقتل زوجي وخطف ابني الوليد.

أجبت بصوت خفيض، ونبرات تملؤها، على هدوئها، كل معاني التصميم.

يبدو أن القاضي استشعر فيما أقول بعض الأهمية، فطلب مني أن

أقـص عليه القصة كاملة، وبعد أن اســتمع إليّ، صمــت لدقائق يتفكر فيما أقول، قبل أن يســألني إذا ما كان لدي شــهود على قصتي، فأجبته بأن شــهودي هم القابلة، وورد إحدى الجواري في حرملك الملك، فرد القاضي في هدوء:

هؤلاء شاهدتان امرأتان، لا تكفيان.

فلتستدعِ إذاً الملك وليواجهني، وأنا أتحداه أن ينكر.

نظــر إليّ القاضي نظرة فـزع، ثم أجال النظر فيمن حوله، وهمس في أذن كاتبه والجميع يتلفتون وتشرئب أعناقهم فضولاً لمعرفة ما أمر به القاضي.

(21)

القاهرة في المحرم 709هـ – يوليو 1309م

استطاعت دنيا الدمشقية أن تصنع في أسابيع قليلة، ما لم تحققه غيرها من المغنيات من شهرة في سنوات طويلة، فرغم أن أحداً لم ير وجهي حتى اليوم، أو يتعرف إلى شخصيتي، لكن صوتي كان سلاحي الأمضى نحو آذان وقلوب عليّة القوم، الذين بات صوت دنيا، أهم ما يحرصون على وجوده في مناسباتهم وسهراتهم.

كفّت هيفة عن تحريضها لي على العمل معها كإحدى الخواطئ، واكتفت بما تجنيه من وراء السهرات العديدة التي يطلب فيها عليّة القوم حضور دنيا الدمشقية، فقد كنت أترك لها جلّ ما أجنيه من أموال، فليس بي حاجة إلى مال، بل إن هيفة أخذت تروج عبر فتياتها، وعلاقاتها داخل القصور الكثير من الأساطير والحكايات عن دنيا وتصنع هالة من الغموض حول تلك الشخصية، ربما لتبرر إصراري على الغناء من وراء حجاب، فيزداد إقبال الأمراء وكبار التجار على أن يزينوا بصوتي لياليهم ومناسباتهم.

حتى في «رواق البغدادية» تغيرت علاقاتي، آمرة الرواق صارت

ألطف، منحتني غرفة أكبر، مضاءة دوماً بمصباح تقوم بنفسها على تغيير زيته يومياً، وتأتيني بالطعام إليّ في غرفتي، حتى بدأت أشعر بأنني في نُزل أو في مسافر خانة، ولستُ في رواق لاحتجاز الأرامل والمطلقات، ورغم أن أحزاني وقلقي مما أقدمت عليه من مغامرة خطيرة لم يدعا لي الفرصة لأستمتع بمذاق الطعام أو الراحة في ذلك الرواق الكئيب، لكن غرفتي الجديدة منحتني تسلية غير متوقعة، فقد كان بها كوة تطل على الطريق، منها يتجدد هواء الغرفة، وأتسرى عبرها في ساعات الفراغ بمراقبة المارة، ومشاهدة حركة الباعة الذين يجوبون الطرقات.

كل الوجوه تبدو حزينة، وإن حاولت أن تخفي ذلك الحزن بضحكات متعالية، أو بحركة دائبة، ألمح قلقاً يعتصر عيون المارة، سواء كانوا من عامة الناس أو من الباعة وأصحاب الحوانيت، لا أعرف ما يمكن أن يكون أصابهم بهذا الحزن، لكن المؤكد أن وراء كل واحد منهم قصة تشبه قصتي، ووراء كل باب من تلك الأبواب المغلقة أمراً مؤرقاً يخفيه، لكن أحداً لا يتكلم، وكأن الجميع يترقب لحظة ينفجر فيها ذلك الحزن المتراكم داخل الصدور، فالحزن وإن بدا كبيراً، لكنه في لحظة ما يتحول إلى غضب، والغضب تغذيه المظالم وطول أيام الصبر، فإذا جاءت لحظة الانفجار، تناثرت مكنونات القلوب المكلومة في كل اتجاه.

وحدها الشيخة غازية، كانت تواجهني بصمت مؤلم، عندما أذهب لأتحدث معها تتفادى الحديث في أي أمر يخص مسلكي الجديد، للحظات كنت أشعر بأن عيونها تمزق ستري، وأنها تعرف حقيقة ما يجري، كدتُ أضعف أمامها، وهممت في غير مرة أن أكشف لها كل شيء، لكنها كانت سرعان ما تهرب بالحديث إلى مسار بعيد، وكأنها

لا تريـد أن تعـرف، غموض تلك المرأة يحيرنـي، أتملك – كما يزعم الصوفيون – قدرات سـحرية تجعلها تقرأ الغيـب؟ أم أنها تجيد قراءة القلـق الـذي أكابد في إخفائـه حتى لا يبدو للعيان، لأسـتطيع مواصلة رحلتي نحو المجهول؟

وبينما أنا غارقة في حيرتي، إذا بهيفة تدخل غرفتي بغير اسـتئذان وكأن كارثـة حلت بها، وبوجـه مصفر مغطى بعرق بارد لا أدري إن كان مصدره لهاثها من الطريق أم قلقها المسـتعر، جلسـت على حافة فراشي وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، وبينما الفضول والقلق يفترساني، قالت هيفة بكلمات متقطعة:

كارثة........ الملك........ يريدك.

لـم يعـد الفضول والقلـق ما يعترياننـي، لكن الصدمـة أيضاً، هل انكشـف سري هكذا سـريعاً؟ كيف علم الملك بما أقدمتُ عليه، إنني لم أعتمد على أحد سوى هيفة، فهل خانتني تلك الخاطئة؟ ماذا أفعل الآن؟ هل أهرب؟ وكيف يمكنني ذلك؟ مئات الأسـئلة انفجرت في رأسي بلا أمل في إجابة، كنت أعلم أنني سـأواجه الجاشنكير إن آجلاً أو عاجلاً، لكنني لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه السـرعة، هل أبلغه أحد عيونه بما جرى في دار القضاء، لكن ما دخل هيفة بهذا الأمر، لو أراد الملك أن يلقي القبض عليّ لأرسل جنوده إلى الرواق، ولما استطاع أحد منعهم، فلماذا تتدخل هيفة في هذا الموضوع، أتكون قد علمت من إحدى فتياتها بما جرى؟

وبينما أسـئلتي الصامتة تنهال على رأسـي، كانت هيفة قد التقطت أنفاسها، وبدت أكثر هدوءاً:

الملك يريدك أن تغني عنده في القلعة... الليلة.

هدأت فجأة عاصفة الأسئلة الصامتة، وبدأت رياح أسئلة من نوع آخر – أقل خطراً – تجتاح أفق عقلي، لكن هذه المرة كان لدي القدرة على أن أطرحها بصوت مسموع:

هل طلب منك أن تغني «دنيا» أم «خوند فرح»؟

نظرت هيفة إليّ وحدقتا عينيها تضيقان، وبدت أنها لم تفهم المغزى من سؤالي:

طلبوا مني أن أحضر دنيا للغناء... لكن؟

صمتت عن إتمام سؤالها، وكأنها فهمت فجأة ما كنت أسعى لمعرفته بسؤالي، وأدركت الآن أن دنيا الدمشقية لا تملك أن ترفض الحضور، لكن في الوقت ذاته الجاشنكير وكثير من رجاله يعرفون صوت خوند فرح ووجهها الحقيقي، ولذا كان لا بد من حيلة ما للخروج من هذا المأزق، حتى لا يفتضح الأمر، فيعرف الجميع أن الغانية دنيا الدمشقية، ما هي إلا خوند فرح زوجة أو أرملة الأمير المملوكي علم الدين سنجر الجاولي.

أخيراً وجدتُ الحل، لكن الأمر كان يتطلب مساعدة من هيفة وقد بدأنا العمل على الفور، فقد كان الوقت ضيقاً، والعواقب إذا لم ننجح خطيرة.

(22)

القاهرة، أكتوبر 2010

بينما كنت أغوص في أعماق الماضي بحثاً عن نفسي وعن حقيقة تلك المرأة الغامضة، كانت ريم تنطلق نحو فضاءات مغايرة، تستخدم الإنترنت وسيلة للبحث عن مخرج لمأساتها وحشد دعم لا تجده في الواقع، وقد بدا ذلك الفضاء الإلكتروني أكثر رحابة من الساحة السياسية والإعلامية، التي استكانت للقيود والخطوط الحمر التي تحاصرها وتكبّلها، أو حتى لقواعد وخطوط حمر أو بألوان أخرى، لا يعرف أحد إن كانت حقاً موجودة!

في ذلك اليوم طلبت مني ريم أن أرافقها إلى أحد استوديوهات قناة فضائية عربية معروفة بمواقفها الناقدة للنظام في مصر، كان مكتب تلك القناة في وسط القاهرة بالقرب من «ميدان التحرير» قريباً من مقر صحيفتي، اتفقنا على اللقاء في ميدان «عبدالمنعم رياض»، ثم التوجه للقاء التلفزيوني، وبعدها قالت إن هناك وقفة احتجاجية ستشارك فيها ضد ممارسات الشرطة، وعمليات التعذيب التي تجري بحق عدد من الشباب المحتجزين.

رغم عدم قناعتي بجدوى ظهورها في تلك القناة، وخشيتي من

إمكانيــة أن تأتي بتأثير عكســي، وأيضاً رغم عــدم اقتناعي بكثير من مظاهر الاحتجاج التي تقودها الحركات التي ظهرت في البلاد في تلك الفترة، في أعقاب تعديل الدســتور عــام 2005، لكنني لم أرد أن أخذل ريم، فقد تكبدت من أجلي الكثير، رغم محنتها، وشــعرت بأنها بحاجة إلى وجودي بجانبها، ومن الصعب أن أخذلها بعد ما كان.

التقينا حســب الموعد المتفق عليــه، وتوجهنا إلى مكتب تلك القناة الإخباريــة، حاولت ريم أن تراجع معي أفكارها، ومــا تريد التركيز عليه في قضيتها، صارحتها بمخاوفي، وأنني أخشى أن يثير ظهورها فــي تلــك القناة حفيظة قــوى كانت تتصور أنها انتهــت من عقاب تلك الفتــاة التــي تجرأت وفعلت ما فعلت يوم افتتاح «شــارع المعز»، لكن أن تتحول القضية إلى موضوع سياســي، يستخدم في إثارة المزيد من المشــكلات ربما دفعها إلى مســتوى آخر من الصدام أكبر من ســابقه، لكن ريم التي كانت مأخوذة بإحساســها المتفاقم بالظلم، والعجز في آن واحــد، جعلها تقلل من تلــك المخاوف، بل إنها بدأت تتهمني بالتخاذل، وبأن «عملي في إحدى الصحف الحكومية جعلني خانعاً وخاضعاً».

أدركــت علــى الفــور غضبي الــذي طفح ســريعاً علــى وجهي، فاعتــذرت، وحاولت أن توضح أنها لا تقصد أيــة إهانة، لكن ما تعنيه أن الحساسيات التي يفرض عليّ أن أراعيها دوماً في عملي، وتلزمني بهــا طبيعة الصحيفة التــي أعمل بها، تدفعني في بعــض الأحيان إلى التعامــل بتحفــظ مع كثير مــن الأمور التي لا تدخل فــي نطاق العمل، ورغم أن توضيحها حاول أن يكون أقل قسوة من تعليقها الأول، إلا أن شعوري بالإهانة لم يقل، شرحتُ لها بكلمات حاولت بكل ما أوتيت من قــوة أن تخرج هادئة، وتبقي على رباط الصداقة الذي بدأ يتكون بيننا،

أن أي صحفي محترف لا بد أن يدرك حقيقة السياسة التحريرية التي تحكم جهة عمله، وأن مخالفة تلك السياسة أمر غير مهني، وإن كان البعض يظنه بطولة، لكن الإصرار على مخالفة تلك المحددات ينتهي غالباً بخروج الصحفي من جهة عمله، إجباراً أو اختياراً، وأنني عندما رفضت السياسة التحريرية لصحيفتي فيما يتعلق بالقضايا السياسية، اخترت أن أنتقل إلى القسم الثقافي، حيث المحاذير أقل والضغوط أخف، حاولت أن أشرح لها أن التزامي المهني في عملي، لا يعبر بالضرورة على حقيقة مواقفي ووجهات نظري في كثير مما يجري حولي، وأن نفس الأمر ينطبق على زملائي العاملين في صحف حزبية، فليس بالضرورة أن يكونوا موافقين على سياسة الحزب الذي يصدر الصحيفة ليجيدوا العمل فيها، بل على العكس أحياناً نجد من يقف في قناعاته الشخصية على النقيض من تلك الأفكار التي يعبر عنها.

وصلنا إلى البناية التي يقع بها مكتب تلك القناة، فتوقفت عن الكلام، وبينما نستقل المصعد إلى المكتب، التفتت إليّ ريم وقالت بعيون محتقنة:

آسفة، لا بد أنك تتفهم مدى التوتر الذي أعانيه، إنني أعلم جيداً حجم المخاطرة التي أقوم بها، لكن ليس أمامي سبيل، لقد اخترت طريق المقاومة، فإما أن أكمل وأستخدم الأسلحة التي تتاح لي، أو أنسحب في هدوء وأكتفي بما وقع لي من خسائر، أرجوك لا أريد أن تتزايد خسائري بفقدانك.

أومأتُ برأسي تأثراً بكلماتها التي استشعرتها تخرج من أعماقها،

وحاولت أن أبتسم، لأمنحها بعض الهدوء والثقة، ففوجئت بيدها تمسك – للمـرة الأولـى – بيـدي، وبينما كانت تضغط على يدي، لتشـعرني بارتعاشاتها وقلقها، كان باب المصعد ينفتح بينما جملتها الأخيرة تتردد في فضاء أذني وعقلي، لتجسد إحساسها بالضعف والحاجة، وتثير في داخلي أحاسيس متشابكة تدهمني للمرة الأولى:

أرجوك.. كن إلى جواري... لا تتخلّ عني.

(23)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

دخلت إلى قلعة الجبل فدهمتني كل ذكريات الماضي الذي لاتزال جراحه لم تندمل، أحداث تلك الليلة المشؤومة تحوم حول عقلي وتعتصر قلبي، نفس الطرقات والجدران شاهدة على ليلة كان يفترض أن تكون ليلة سعدي وسعد زوجي، فإذا بها تتحول إلى لعنة عليّ وعلى أسرتي التي تمزقت، ولا أعلم لها مصيراً.

آخر عهدي بهذه القلعة عندما كنت خوند فرح الأميرة المملوكية زوجة الأمير علم الدين سنجر الجاولي، المقاتل المغوار، وأحد قادة المماليك المشهود لهم بالبطولة، أبواب تلك القلعة كانت تفتح لي على مصراعيها لأدخل وسط انحناءات الجواري والغلمان، فإذا بي الآن أتسلل من الأبواب الخلفية مع الجواري والعازفات، نتوارى من عيون الحرس، ونخشى أن تقع أعين حضور الحفل من علية القوم علينا.

لعنة الله على تلك الدنيا التي تمنحنا لحظات من الطمأنينة والسعادة، ولا تلبث أن تسترد ما أعطت، لتترك لنا أزمنة من الحسرة والألم.

هكذا حدثتُ نفسي وأنا أتسلل مخفية وجهي عن الحرس وقادة الجند، خشية أن يتعرف إليّ أحدهم، رغم ما قامت به فتيات هيفة من

زينــة مبالغ فيها، أخفت كثيراً من ملامــح وجههي، لكن ذلك لا يكفي، فالجــزء الآخــر من خطة التخفي هو الأهم والأكثــر خطراً، ولا بد أن ينجــز على الوجه الأكمــل، تجنباً لأي خطأ، فقد أســتطيع أن أغير أو أخفي ملامح وجهي، لكن كيف أستطيع تغيير صوتي؟

دخلت ســريعاً بصحبة العازفــات إلى «الحرملك» لنســتعد ونتهيأ لبدايــة الحفل، وكان علـــى هيفة أن تنفذ ما اتفقنا عليــه من أجل إنجاز الشق الآخر من خطتنا للتخفي، فسرعان ما أعلنت أنني أصبتُ بوعكة صحية مفاجئة، وأنه لولا الرغبة الســامية للملك بيبرس الجاشنكير بأن أغني في حضرته الليلة لما تمكنت من الحضور، ســرت همهمة وسط الجاريــات والعازفات، وعلى الفور طلبت هيفة أن ترافقني جارية من جــواري القصر إلى إحدى غرف جناح الحريم لأســتريح قبل وصول الملــك ورجاله، وكنت قد أشــرت إلى صديقتــي ورد عند دخولي إلى الحرملــك، فنادتها هيفــة بتلقائية وطلبت منهــا أن ترافقني، فلبت ورد الطلــب بترحاب طبيعي، وعندما ابتعدنا عن الجواري، رفعت حجابي وتكلمتُ إلى ورد فعرفتني على الفور، وارتمت في حضني وبكت بكاء حاراً أودعت فيه اشتياقها وألمها لما آل إليه أمري، لكنني سارعت إلى توضيح ما أريدها أن تفعله، لأنجو من هذا المأزق، فوافقت بلا تردد.

تســللت بصحبة ورد إلى مــا وراء الحجاب الذي يفترض أن أغني من ورائه، وهمست إلى هيفة، التي رفعت صوتها بطلب من ورد أمام الجميع، بأن تبقى فضلاً إلى جواري لأنني لازلتُ متوعكة، وقد أحتاج إلى مســاعدتها في أي وقــت، وبأدب وطاعة أجابــت ورد وبقيت إلى جانبــي، ولم تكد تمر دقائق حتــى كان الحفل قد بدأ، وتوافد الحضور، الملــك، وبجــواره الأمير ســلار، والأمير برلغي الأشــرفي زوج ابنة

الجاشنكير الوحيدة، وذراعه اليمنى في كل أعماله، والذي زادت سلطته بعدما تولى قيادة مماليك الجاشنكير وحرسه الخصوصي، ثم بدأ توافد الأمراء، وقادة الجند، والخليفة العباسي المستكفي بالله أبو الربيع سليمان الذي بارك استيلاء الجاشنكير على السلطة وطرد السلطان الناصر، وكان هناك عدد كبير من أعوان الجاشنكير في فعلته من بينها وجوه كنت أعرفها، وأخرى عرفتها فيما بعد مثل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر المرحل، الذي زاد نفوذه بعد هجائه للسلطان الناصر ومساندته القوية للجاشنكير، وكان هناك أيضاً على مقربة من الجاشنكير ذلك المتصوف الذي علا نجمه وكان يدعى نصر الدين المنبجي، وقيل إنه أغوى الجاشنكير بقدرته على السحر وإتيان أعمال تساعده على إحكام سلطته في البلاد، وشاع أن الجاشنكير لم يكن يتخذ قراراً إلا بعد الرجوع إليه، وقبل أن يستوي الملك في مجلسه، دخل إلى القاعة رجلان، أحدهما كان شمس الدين بن عدلان الذي عينه الجاشنكير قاضياً للقضاة بعد فتواه بأن السلطان الناصر خارج عن الدين وأجاز قتاله، وبصحبته رجل آخر كاد قلبي يتوقف عندما رأيته يدخل إلى ذلك المجلس، إنه القاضي عز الدين القيسراني!

آخر من كنت أتوقع أن يأتي إلى مجلس الجاشنكير هو القاضي القيسراني، الرجل الذي ظننته ينصرني، وأجد لديه العدل، فإذا به يأتي إلى مجلس الظلم، يا لضيعتي الليلة، ماذا تخبئ لي تلك الليلة الغريبة؟ هل يفتضح أمري، وتكون نهايتي في تلك القاعة المشؤومة، مثلما كانت بداية مأساتي فيها؟

عزفت الموسيقى فجأة فأوقفت نزيف الأسئلة، لكنها لم تستطع أن تخرجني من قلقي الذي بات يعتصرني عصراً.

وقبل أن يبدأ الغناء أشارت هيفة للعازفات أن يخفضن من عزفهن، قبل أن تقوم لتعتذر من الملك وضيوفه باسم المغنية دنيا الدمشقية التي توعكت الليلة، ولولا حرصها على المجيء إلى مجلس الملك المظفر، لما استطاعت التحرك من فراشها، لذا فهي تستأذن من الملك وضيوفه ألا يطول الغناء، والليالي قادمات لتعويض ما فات.

سرت همهمات وسط الحضور، لكن الجاشنكير الذي تغير وجهه قطع الهمس وأشار إلى العازفات أن يستكملن العزف إيذاناً ببدء الغناء، وصدحت ورد بغناء متقن، غالبه القلق، لكنه على الأقل كان مخرجي الوحيد من ذلك المأزق، فالجاشنكير لا يعرف صوتها لأنها لم تغن منفردة قط في حضوره، وإنما كانت إحدى مساعداتي، وكان المبرر الذي قدمته هيفة كافياً لتقبل اختلاف الصوت لمن استمعوا إلى صوتي في ليال سابقة، وهكذا مرت الدقائق التي غنت فيها ورد باسم دنيا الدمشقية طويلة وثقيلة، لكنها في كل الأحوال انتهت، لتستأذن من جديد هيفة في أن تستكمل إحدى المغنيات الأخريات الغناء، بينما اصطحبتني ورد إلى غرفة علوية في الحرملك تطل على القاعة بداعي الاستراحة، وحتى يخلو لنا المجال لنتحدث قليلاً.

أخبرتها بكل ما جرى لي منذ تركتني في تلك الليلة الحزينة في «رواق البغدادية»، لم تخف قلقها عليّ، وخوفها من بطش الجاشنكير، وأنه لن يتورع عن قتلي إذا تطلب الأمر، ولن يغفر لي تجرئي عليه، خاصة أن الناس بدأوا بالفعل يتجرؤون عليه، ويسخرون من حكمه، فما بالك لو جاءت امرأة لتقاضيه، حاولتُ أن أفهمها دوافعي، لكنها قاطعتني بقولها:

أعلـم أنك عنيدة، ولن يجدي معكِ تحذيـر، فقد بدأت طريقاً وعراً، أدعو الله أن يعينك ويحفظك لتتميه.

شـعرت بامتنان عميق لهذا القلب النقي الـذي لايزال يحتفظ بحب صادق لي في أحد أركانه، فالدنيا التي تفاجئنا دوماً بخياناتها وقساوتها، تدهشـنا في بعض الأحيـان بلحظات أخرى من الصـدق، تقوينا على مواجهة ساعات الزيف الطويلة.

وبينما أنا وورد في جلسـتنا الودودة، إذا بالقاضي القيسـراني يقوم منفعلاً وقاضي القضاة يشـده ليجلس، انتبه الجميع فجأة إلى ما يجري، حتى إن الجاشـنكير نفسـه انتبه إلى ما يجري وسـأل قاضي القضاة، الذي تلجلج كثيراً قبل أن يجيب، وحاول ألا يقول شيئاً، لكن القيسراني تحدث بجرأة غير مسبوقة في هذا المقام:

مـولاي الملـك المظفر، ما جئت اليوم لأحضـر مجلس غناء، وإن كنت أهوى الغناء ولا أجد فيه شـيئاً، لكننـي جئت اليوم في أمر يتعلق بمظلمة لامرأة ضدك، ويسـتوجب التحقيق فيما ادعته، استدعاء إحدى جواريك، وربما استدعاؤكم أنت شخصياً لاحقاً، وقد جئت اليوم لأطلب مثـول جاريتك أمام مجلس القضاء، وقد آثـرتُ إكراماً لمقامك أن آتي بنفسي بعدما طلبت مراراً من قاضي القضاة أن يطلب منكم ذلك، لكنه لـم يفعل، والحق أحـق أن يُتبع، ولا أظن الملك يأبـى أن يقوم القضاء على حقوق الناس حتى لو كان من شخص الملك ذاته.

ران صمـت ثقيـل علـى الحضـور، وكادت أنفاسـي تنحشـر في صـدري، ولم أسـتطع حتـى أن أرى ما يجري، فقد ابيضّ كل شـيء حولي، لم أعد أسـمع أو أرى أو أشـعر بما حولي، أحقيقة ما سـمعت

ورأيـت؟ أجاء هذا القاضي لمجلس الملك، ليحدثه في شـأني؟ من أنت أيها القاضي القيسراني، من أي طينة مزجت بشجاعة الأبطال خُلقت؟ كنت أظنك ضيعتني، لكنك من أجل حق امرأة بائسة تكاد تضيع نفسك!

ظل القاضي القيسـراني واقفاً في مكانه فـي انتظار جواب الملك، بينمـا تحول الجميع إلى أصنام جامدة، حتى الهمس لم يجرؤ أحد على إتيانه، نظر الجاشـنكير إلى من حوله، وعندما وجد الجميع وقد شلّتهم المفاجأة توجه بالحديث إلى القاضي القيسـراني محاولاً السيطرة على كلماتـه، لكـن إحساسـاً عميقاً بقسـوة الصفعة بدا واضحـاً في صوته المتحشرج:

ما كان للملك المظفر أن يقف في وجه العدالة أيها القاضي الشاب، استدعِ من شئت من الجواري.

لم يتوقع أحد إجابة الملك وموافقته، وأخذ قاضي القضاة يهتف بحياة الملك، وحرصه على العدالة، لكن الجاشـنكير أخرسه بإشارة من يده، وعندما استأذن القاضي القيسراني في الانصراف، سأله الجاشنكير:

مهـلاً أيها القاضي الشـاب، هل لي أن أعلم اسـم تلـك المرأة التي تقاضيني؟

إنها خوند فرح، امرأة الأمير علم الدين سنجر الجاولي.

تبدل وجه الجاشـنكير، واستحالت ملامح وجهه كتلة من الغضب، وبينما الهمسات تتردد بين أفواه وآذان الحضور، كان قبضة الجاشنكير تتكوم في غلّ بادٍ، ينذر بأن فصلاً جديداً من مأساتي سيبدأ الليلة.

جاء صوت الجاشنكير أشبه بأزيز يخرج من مرجل يغلي:

أيها القاضي، أجئت تحدثني عن امرأة خانت ودنست شرف زوجها، وشرف كل المماليك، وصارت الآن من بنات الخطأ تفتح فرجها لمن يدفع؟!

أيقنت أن الموقف قد بلغ ذروته، فالجاشنكير يعلم بما حاولت أن أنشره، وهذا يعني أنه لايزال يراقبني، ويترصد حياتي، كدتُ أسقط في رعبي فأغيب عن كل ما حولي، لكن صوت القاضي القيسراني أتى قوياً صامداً بما يكفي لتفجير بركان غضب وجنون الجاشنكير:

عفواً يا مولاي، ولكننا نتحدث عن أمرين مختلفين، فحتى بنات الخطأ يمكنهن أن يلجأن للقضاء بحثاً عن حق أو دفعاً لظلم، وإن كنتم جلالتكم ترون في مسلك «الخواطئ» أمراً مشيناً، فلماذا تمد خزائن الدولة أيديها لتتقاضى منهن الدراهم والدنانير اللاتي يفتحن مقابلها فروجهن؟!

وقعت إذاً الواقعة، ورجّت الأرض في قلعة الجبل رجاً، أدركت أنها الطامة الكبرى، فلم يجرؤ أحد يوماً أن يتحدى الجاشنكير مثلما فعل ذلك القاضي الشاب، صرتُ على يقين بأن القيسراني سيدفع ثمناً فادحاً لموقفه ذاك، وأنني بت الآن وقود معركة بين الملك والقاضي لن تنتهي بخير.

لم أفق وورد من الصدمة حتى كانت هيفة تقتحم علينا الغرفة وهي تلطم خديها في ضربات صامتة، لكنها عنيفة، وتردد:

ضيعتني أيتها المجنونة... ضيعتني أيتها المجنونة!

حاولت أن أتمالك ما بقي من أعصابي، وأمسكت بكتفيها، وكانت لاتزال تردد كلماتها الأخيرة، وقلت:

لا شــأن لك بما فعلتُ، أنت لا تعرفين أن دنيا الدمشــقية هي خوند فرح، تستطيعين أن تنكري علمك بكل شيء، فقط أسدي لي آخر خدمة، أخرجيني وورد من هنا ووفري لنا ملجأ آمناً حتى الصباح.

نظرت إليّ ورد مستغربة قبل أن تسأل:

ولماذا تريدنني أن أهرب معك؟

فرددت بهدوء لم أدرِ مصدره:

لأنك أنت الشــاهدة، ولا أظن أن الجاشنكير سيتركك حتى الصباح لتمثلي أمام القاضي.

عاد الصمت ليخيم على ثلاثتنا، وكان وجهها هيفة، وورد شــاحبين كوجوه الموتى.

(24)

القاهرة، أكتوبر 2010

انتهى التسجيل سريعاً، كان كل شيء يجري وكأنه تمثيلية معدة سلفاً، دقائق معدودات وانتهى كل شيء، لكن يبقى التأثير أبعد دوماً من تلك الدقائق، هكذا الإعلام، وهكذا سطوته، ورغم أنني واحد من العاملين في هذا المجال، لكنّ هناك فارقاً بين أن يكون المرء أو قريب منه أحد موضوعات الإعلام، وبين من يصنع تلك التغطيات، كان الجميع يتعامل مع ريم على أنها مجرد فقرة في برنامج، هذا كل ما تعنيه بالنسبة إليهم، مادة يسدون بها فراغ دقائق البث، لا يعنيهم حقيقة مأساتها أو عمق ما تتحدث عنه، فقط كل ما يعنيهم هو أن يقف الضيف أمام الكاميرا ويتحدث، ليس مهماً قيمة ما يقول، أو حقيقته، المهم أن يقول، أن «يعبئ الهوا» كما يتداول العاملون في تلك الصناعة.

وقفت خلف الكاميرا مع العاملين في الاستوديو، هالة الضوء المركزة على وجه «الضيفة»، بينما الاستوديو الغارق في الظلمة يمنحني الفرصة لقراءة متعمقة لذلك الوجه في مواجهة الكاميرا، أستمع إلى الإجابات فقط، لكنني أخمّن منها الأسئلة، ألاحظ ارتباكاتها، انفعالاتها، عيونها التي تلمع تحت سياط الضوء الباهر، لا أدري إن

كانــت عيونها تلمــع بدموع الإحســاس بالظلم، أم تئـن بفعل وخزات الضــوء المركــز على وجهها، أزمة تلك الإنســانة الجالســة على بعد خطوات تتحدث عن معاناتها أنها قالت كلمة، وها هي تدافع عن نفسها بكلمــات، والطرف الآخر الجالس في اســتوديو مكيف على بعد آلاف الكيلومتــرات يلقي إليهــا بكلمات، وينتظر رداً بكلمــات، هكذا يختزل الإعــلام حياتنا في بضع كلمات، ســينفضّ بعد قليــل العاملون في هذا الاستوديو ويذهبون إلى حياتهم، والتي قد يكون بها الكثير من المآسي التي تســتحق أن تروى، وســيخرج ذلك المذيع الجالــس في بلد وقارة أخرى من الاســتوديو ليواصــل حياته، وســتلقى الأوراق التي تحمل مشــكلة ريم في ســلة المهملات بعــد انتهاء البرنامج، ولــن يعود أحد ليتذكرهــا إلا إذا أرادوا أن يملــؤوا بمأســاتها دقائق أخرى من الهواء، بينمــا ســتبقى ريم وحدها قابضــة على جمرة الحزن التــي لا تنطفئ، حتى أنا ســأعود بعــد انتهاء لقائنــا إلى حياتي، وإلــى أوراقي الغارق فــي تفاصيلهــا، إلى تلك المــرأة المملوكيــة وحكايتهــا الغامضة، إلى تفاصيل عملي اليومي، وزيف الواقع الذي أعيشه، كلنا يمثل دوراً في هــذه الحياة، لا شــيء حقيقي، الكل يمثل، وبقــدر إجادته التمثيل، تأتي المكافأة، وحدهم من يأخذون كل شيء بجدية يفشلون ويعاقبون، لأنهم خرجوا عن النص، وأفسدوا العمل.

كنت بحاجة إلى أن أشعر بهواء الشارع، بعدما كاد هواء الاستوديو المعلب، وأفكاري الكئيبة أن تخنقني، لم أســتطع الرد على أســئلة ريم حــول ما قالته، ليس فقــط لأنني كنت غارقاً في أفــكاري، ولكن أيضاً لأننــي لم أكن مقتنعاً بصواب ما فعلت، وشــعرت بانقباض حقيقي بعد انتهاء التسجيل، ولم أكن أريد أن أخذلها برأيي هذا، فآثرت الصمت.

ألحت هي في سؤالي، بينما أمعنتُ في صمتي، حتى توقفت فجأة عن المشي، ونحن نجتاز ميدان «عبدالمنعم رياض»، في طريقنا نحو نقابة الصحفيين، حيث ستشارك في وقفة احتجاجية ضد ممارسات الشرطة، وأعمال التعذيب التي ترتكبها، سألتها لماذا توقفت، فنظرت نحوي باستغراب، وسألتني: «لماذا تصر على صمتك؟»، حاولت أن أقول شيئاً، لكنني لم أستطع، وأجبرني انتظارها إجابتي على الكلام:

أنت تحاربين معركة أقوى منك بكثير، تواجهين خصماً قادراً على سحقك، وقد طالك جانب بسيط مما يستطيع عمله، وأنت الآن تمعنين في استفزازه، وتضعين نفسك أداة تستغل في معركة أكبر، أنت لست طرفاً فيها، وربما تسيء إليك.

هدأت ملامح وجهها، وعاودت المشي، وبعد فترة خرج صوتها وكأنه محاصر بتلال من القيود، ويقاتل كي لا ينهزم أمام البكاء:

هل تظن أنني لا أدرك ما أنا مقبلة عليه، أنا أعلم أنني أواجه خصماً أقوى مني ملايين المرات، يستطيع سحقي دون أن تطرف عينه، وقد سبق له وسحق قبلي آلافاً، وربما ملايين، لكنني قررت أن أكمل معركتي حتى النهاية، كما قلت لك في أول لقاء لنا بعد ما جرى في شارع المعز، لو كنت جبنت ما كنت لأتكلم، مضى زمن التراجع، القبول بالهزيمة هو الانسحاق الحقيقي، لم يعد هناك ما أخسره، وأصعب خصم، هو ذلك اليائس الذي لا يخشى الخسارة، أما أن يستغل أحد قضيتي لمصلحته، فلم أعد أهتم بذلك، فمن يقاتل معركة حياة أو موت يستخدم كل ما يتاح له من أسلحة، يتحالف مع من يساعده حتى ولو كان ذلك هو الشيطان، لا تلمني، ولكن عليك أن تلوم من

دفعني إلى ذلك، مشـــكلتنا أننا نلوم الضحية إذا هي حتى انتفضت تحت سكين من يذبحها!

أجبرني انفعالها، على الســكوت، أنا لا ألومها، وإنما أخشـــى عليها من اندفاعها، فالصدق والحماس ليسا كافيين للانتصار في معركة فيها الطرف الآخر يمتلك الكثير من الأسلحة، ولديه مقومات الانتصار، كل خطــوة في أية مواجهة من هذا النــوع إما أن توجه لكمة لوجه الخصم مباشــرة، وإما أنها ســتفتح الطريق أمام تلقّي لكمة، غالباً ما تكون في مواجهة خصم بهذه القوة، قاضية.

وصلنـــا إلى شـــارع «عبدالخالق ثروت»، حيــث نقابتا الصحفيين والمحامين، كانت المنطقة أشــبه بجبهة قتال، صفوف من جنود الأمن المركزي بزيهم الأســود تحاصر المنطقة، ســياراتهم الزيتية تصطف بجوار الرصيف وتمتد من أمام شــارع معــروف، وحتى بداية مدخل نقابة الصحفيين، كانت الإشــارات واضحة، لكن انشــغالنا بالحديث لم يدعنـــا نلاحظ كل هذا العدد من الجنود والضبـــاط، وعندما اقتربنا من بداية الشارع الذي تقع به النقابة، كانت قوات الأمن قد أغلقت المدخل، فتجمع المشـــاركون فـــي دائرة منعزلة عن تلــك المجموعة التي كانت تقف على سلم النقابة، وترفع صوراً لبعض ضحايا التعذيب من جانب

الشـــرطة، خالد ســعيد[9]، عماد الكبير[10]، وشــعارات تطالب بســقوط قانون الطوارئ، ومحاسبة المسؤولين عن التعذيب.

بدأت الأعــداد في الدائرة الخارجية عند بداية شـــارع «عبدالخالق ثروت» تتزايد، وتمتد لتغلق «شـــارع رمسيس»، شباب وفتيات كانوا يخرجــون من كل اتجاه، من محطة متــرو الأنفاق على بعد خطوات، من شـــوارع وســط القاهرة، من بعض المقاهي القريبــة من المنطقة،

---

(9) هذه الأسماء لضحايا حقيقيين لوقائع تعذيب وقعت في مقار الاحتجاز وأقسام الشرطة، خالد محمد سـعيد صبحي قاسـم (وُلد يوم 27 يناير 1982 ومات يوم 6 يونيو 2010) شـــاب مصري من مدينة الإسـكندرية كان في الثامنة والعشرين من العمر عند مقتله ضرباً على أيادي مخبري الشــرطة، وظلت تفاصيل القضية مثار جدل سياســي وقانوني لم ينته، فقد أثار مقتل خالد ســعيد موجة غضب شـعبية في مصر وردود أفعــال من منظمات حقوقية عالمية، تلتها سلسـلة احتجاجات سلمية في الشارع في الإسكندرية والقاهرة نظّمها نشطاء حقوق الإنســان الذين اتهموا الشرطة المصرية باستمرار ممارستها التعذيب في ظل حالة الطوارئ، ووصف حقوقيون خالد ســعيد بأنه «شــهيد قانون الطــوارئ»، المفروض في مصـــر منذ عام 1981، ويعطي الحق لأفراد الأمن التصرف كما يشـــاؤون مع من يشـتبه فيهم، حكم بالسجن المشدد 10 سنوات على المتهمين بقتل خالد سعيد في مارس 2014.

(10) تعــود جــذور القضية إلى 20 ينايــر 2006 عندما ألقى النقيب «إســلام نبيه» معاون مباحث قسـم بولاق الدكرور القبض على الســائق «عماد الكبير»، وقام باحتجازه وتعذيبه ثــم هتك عرضه بالقوة، وقام بعدها بتصوير عملية تعذيبه وهتك عرضه بكاميرا موبايل.، أصدرت محكمة جنايات الجيزة حكمها بمعاقبة الضابط المتهم بالحبس ثلاث سنوات بتهمة تعذيــب المواطن عماد الكبير.. تصاعد اهتمام الرأي العام في نوفمبر 2006 عندما انتشــر فيديو التعذيب على شــبكة الإنترنت، ثم فجرتها إحدى الصحف الخاصة حتى اســتطاعت الوصــول إلى الســائق «عماد الكبير» وأجــرت معه حواراً أدلى فيــه باعترافات خطيرة عــن تعرضه للتعذيب داخل قسـم الشــرطة وتصوير الفيديو له أثنــاء هتك عرضه ليكون وســيلة ضغط مناسبة عليه وفضحه بين زملائه من ســائقي موقف بولاق الدكرور، وهي الاعترافــات التــي أُجبر «الكبير» علــى تكذيبها فيمــا بعد، لكن حملــة الجريدة تواصلت بصورة أشــد قوة بعد اتهامها بتزييف الحوار حتى أثبتت الجريدة ما تعرض له «الكبير» مــن ضغوط وعاد «الكبيــر» يعترف بالحقيقة كاملة، لتصبح القضية أكبر من أن تتجاهلها السلطات أكثر من ذلك وبدأت التحقيق.

يتجمعون، لا أدري كيف جرى تنظيمهم، لأول مرة أجد نفسي وسط مشهد كهذا، كنت أسمع كثيراً عن حركات الاحتجاج وتظاهراتها، وربما تردد كثيراً اسم حركة «كفاية»(11)، لكنني لم أكن قد عايشت أو اقتربت من تلك الحركة، رغم أنني بحكم عملي الصحفي أعرف عدداً من الأسماء التي تنتمي إليها، وبينها أسماء ثقافية بارزة، الآن أجدني في قلب مشهد لم أكن على يقين بأنه قد يحدث، أو على الأقل لازلت على إيماني بأنه عبثي، فما يجري صرخة في الفضاء، بلا طائل أو تأثير، تأملت الوجوه من حولي، بعضهم كانوا من أصدقاء ريم الذين تعرفت إليهم قبل فترة عندما رافقتهم في رحلة العمل الخيري في «بولاق»، لم تمنحنا الأحداث فرصة تبادل التحية، رُفعَت الشعارات وحمي الهتاف، وتحركت قوات الأمن لمحاصرة التجمع الجديد الذي زاد عدده عن ذلك التجمع الأول، وبدأ عدد من المحامين يخرجون من نقابتهم الملاصقة لنقابة الصحفيين للانضمام للوقفة، وبدأت المجموعتان اللتان تفصلهما بضعة أمتار في تبادل الشعارات والهتاف، مجموعة تردد نصف

(11) الحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية) هي تجمع من مختلف القوى السياسية المصرية تأسست عام 2004، وركزت منذ بدايتها على رفضها للتجديد للرئيس المصري آنذاك حسني مبارك لفترة رئاسة خامسة، ورفضها ما رأته من مناورات سياسية وتشريعية وإعلامية هدفها التمهيد لتولي ابنه جمال مبارك الرئاسة من بعده، فرفعت شعار «لا للتمديد لا للتوريث»، وفي يوليو 2004، صاغ ثلاثمائة من المثقفين المصريين والشخصيات العامة التي تمثل الطيف السياسي المصري وثيقة تأسيسية تطالب بتغيير سياسي حقيقي في مصر، وبإنهاء الظلم الاقتصادي والفساد في السياسة الخارجية، واتخذت «كفاية» أسلوب التظاهر أداة لمعارضة النظام المصري، وقد رد النظام على تنامي الحركة بحملات اعتقال وصدام قوية، وقد حازت الحركة دعماً إعلامياً مكثفاً من الصحف الخاصة والمعارضة التي ساهمت الحركة في رفع سقف الحرية، خاصة فيما يتعلق بالإشارة إلى أسرة الرئيس المصري وتحديداً زوجته وولده جمال، ويعتبرها المحللون واحدة من أبرز حركات الاحتجاج السياسي والاجتماعي التي مهدت الطريق أمام ثورة 25 يناير 2011.

الشـعار والأخرى تكمله، ضاقت الحلقة، وتلاصقت الأجسـاد، قوات الأمن تضغط بشـدة لمحاصـرة الجمع، لا تريـد للمحتجين أن يصلوا إلى شـارع «رمسيس» الشريان الرئيسي لوسط القاهرة، كانت تدفعهم بإصرار للانضغـاط إلى الداخل، بدأت مجموعـة ثالثة تتكون، ويعلو الهتاف، «لا للقمع. لا للفسـاد. لا للتمديد. لا للتوريث».. «يسقط يسقط حسني مبارك».

لا أعـرف فـي أية لحظة على وجه التحديـد كانت لحظة الصدام، كل ما أعرفه أن هراوات وعصـي الجنود وأقدامهم انهالت على الجميع بـلا تمييـز بين رجل أو امرأة، الـكل نال نصيباً وافـراً من الصفعات والضربات، كان كل همنا أن نحمي رؤوسنا، وأن نشكل درعاً من أجل حمايــة الفتيات، حاولنا أن نضعهن في منتصـف الحلقة لحمايتهن من الضربات، لكن اشتداد الضربات شتت جمعنا، وجعلنا نحاول الخروج من تلك الدائرة الخانقة بأي ثمن، لكن الثمن كان فادحاً، فممر الخروج محاط بالمزيد من الجنود الذين كانوا ينهالون على من يحاول الخروج بمزيـد من الصفعات، والعصي، وتم إلقاء القبض على البعض، بحثت عـن ريم التي كانت تقف إلى جواري، لكننـي لم أجدها، كانت تحاول البحـث عن مخـرج، لكن اثنين مـن الجنود حاصراهـا وانهالا عليها ضربـاً حتى سـقطت أرضـاً وأخذت تتلـوى ألماً وذراعاهـا تحيطان برأسـها تفادياً للضربـات المغلولة، تعرى جسـدها، وعلا صراخها، لكـن عنف الضربـات وارتفاع صيحات الألم مـن الجميع غطى على صراخهـا، اتجهـت إليها في جنـون، وأنا أصرخ، دفعـت أحد الجنود فسـقط أرضاً، وبينما كنت أتجه ناحية الآخر تلقيت ضربة على رأسي من الخلف أسـقطتني، وأفقدتني الوعي، والسيطرة على نفسي، وبدأت

أشاهد ما يجري حولي، وكأنه حلم غائم، يدور أمامي دون إرادة مني، ابتعدت الأصوات، تلاشـــى الألم، فقط وجـوه تصرخ، وعصي تنهال علـــى الرؤوس والأجســاد، أقدام مذعـورة تجري فـــي كل اتجاه، وأنا أغمض عيني وأرحل عن وعيي، كان وجه ريم يصرخ أمامي، لكنني لم أكن أسمع صوتها، كنت أهوي في بئر سحيقة.

(25)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

تحت جنـح الظلام وبصعوبة بالغة، اسـتطاعت هيفة أن تخرجني وورد من القلعة، اختفينا وسـط العازفات بعدما انفض الحفل، وارتدت ورد ثيـاب إحدى العازفات ووضعـت الحجاب على وجهها، فخرجت معنـا، وعندما خرجنا من أبواب القلعة لم تكن هيفة تصدق أننا نجونا، كانـت لاتزال تعاني صدمـة ما حدث في القصـر، التفتت إليّ وركب العازفات ينزل نحو المدينة متسائلة والقلق يتفجر من عينيها:

لماذا أُعرض نفسي لهذا الخطر من أجلك؟!

ليـس لدي إجابـة أرد بها، عقلي تجمد عند تلـك اللحظة التي نطق القاضـي القيسـراني فيها باسـمي في الحفـل، لا بد أن الجاشـنكير قد أطلـق كل مماليكـه في دروب المدينة للبحث عنـي في هذه اللحظات، لـن يتركني إلا جثة، لن يغامر بأن يعـادي القضاء، لكنه قادر على أن يخفـي صاحبة الشـكوى حتى لا يفتضح أمـره، لا يمكن الآن أن أعود إلى الرواق، فمن المؤكد أن رجاله اقتحموه الآن بحثاً عني، ولن يلبث إلا قليلاً حتى يكتشـف اختفاء ورد، وسيطلق كل كلابه لتقتفي أثرنا في كل ركن بالقاهرة.

«لا بد أن أفكر بسـرعة»، قلت لنفسـي، وأنا أنظـر إلى ورد التي وضعتها في مخاطرة كبرى لا ذنب لها فيها، التفتُّ إليها وقلت بصوت مكسور:

سـامحيني يا أختـاه، أنا من ورطك في هـذا الموقف، لكن لم يكن أمامي من سبيل آخر، سامحيني.

من وراء دموعها نظـرت ورد إليّ في حنان فياض، جففت دمعها وحاولت أن تبتسم:

لا تحملـي هماً من أجلي، لقد امتزج مصيرانا منذ سـنوات، وربما يكون فيما تبقى لي من عمر قيمة، بدلاً من أن أموت جارية في حرملك قصر لا يشعر بها أحد، على الأقل سيكون لحياتي ثمن.

لا تقولي ذلك يا ورد، لن يمسّـنا ضرّ إلا بإذن الله، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

ليـس بينها وبيـن الله حجاب، لكن بينها وبين كل ملك أو سـلطان، وبين استعادة الحق ألف حجاب.

غلبنـا الصمت، وقد أوغلنـا في الطرقات المظلمـة، وبدأت بيوت المدينـة تلوح في الأفـق بأنوارها الواهنة عن بعـد، فالتفتُّ إلى هيفة، وطلبـت منهـا أن تدبر لنا مكانـاً آمناً بعيداً عن الـرواق الذي لا بد أن جنود الجاشـنكير قد حاصروه الآن، فهزت رأسها موافقة أو استسلاماً لسـت أدري، وطلبت من سـائق «الكارو» أن يتوقف، وأن ينزلنا في مـكان يبتعد عن أي مكان أعرفه، ثم سـألته أن يوصـل بقية العازفات إلى مسكنهن.

وقفنا في العراء وحيدات، كأنما نبتنا فجأة في صحراء المدينة، تلفتت هيفة حولها في قلق، قبل أن تتحرك نحو بعض الأزقة المجهولة لي، سألتها ونحن نتبعها في وجل عن وجهتنا، فأجابت بصوت هامس مضطرب:

الحمَّام.

سألتها بفضول واستغراب:

الحمَّام؟!

ردت بثقة:

نعم، فأنا لا أستطيع أن أخفي تلك المصيبة في بيتي، والحمَّام بعيد عن الظنون، ولم أستطع أن أغامر بأن يعرف العربجي أو العازفات بوجهتنا، لذا علينا أن نشق طريقنا سريعاً إلى الحمَّام، وفي الصباح رباح ونكون قد دبرنا لكما مكاناً آخر.

كان رأيها رغم غرابته سديداً، لكن البقاء في الحمَّام لن يطول وسنكون بحاجة إلى مأمن آخر، وبينما كنت أفكر في ذلك المكان كنا قد وصلنا إلى وجهتنا، فنزلت هيفة معنا وفتحت لنا الباب ودلتنا على غرفة أعلى السطح، تخزن فيها بعض مستلزمات الحمَّام، وطلبت منا أن نبيت ليلتنا فيها وألا نفتح لكائن من كان إلا هي، ووعدتنا بأن تأتينا في الصباح الباكر لتدبر أمرنا، وقبل أن تنصرف استوقفتها وقد غلبني التأثر بموقف تلك المرأة التي كنت حتى قبل قليل أكن لها من الكره والاحتقار الكثير، وقفت أمامها وقبلت رأسها:

أشكرك يا هيفة بكل ما يمكن أن تملكه امرأة ضعيفة ومطاردة

مثلـــي، لقد قدمتِ لي ما لم يقدمه أنـــاس كانوا يتباهون بما يمتلكونه من عزة وشـــرف، لقد علمتني أن الشـــرف ليس كلمة نتباهى بها، إنما هو معنى نجسده بأفعالنا.

لأول مـــرة ألمح دموع هيفة، كنت أتصور أن امرأة مثلها لا تعرف الدموع إليها سبيلاً، فبعدما خبرت ما خبرت في الحياة، وامتهنت مهنة الخواطئ لا يمكن أن يؤثر فيها شـــيء يدفعها إلى البكاء، لكن دموعها في تلك اللحظة كانت أصدق من كل الكلمات، نظرت إليّ بعمق وقالت:

يا سيدتي، أنا لا أفهم كثيراً مما تقولين، ولا أعرف حتى الآن لماذا أســـاعدك، أنا امرأة لا يمكن لها أن تخالف جندياً من جنود الدرك، فإذا بي الآن أتحدى الملك شـــخصياً، صدقيني أنا لا أعرف لماذا أســـاعدك وأدخـــل نفســـي في تلك الورطة، لكن كل ما أعلمـــه أنك امرأة مظلومة تريـــد أن تســـتعيد حقها، وأنا وبناتي ذقنا طعـــم الظلم كثيراً، ووراء كل واحـــدة منا قصـــة، لكننا اخترنا طريقـــاً مختلفاً، ربما أنـــت اخترت أن تقاومي، ونحن استســـلمنا ســـريعاً، لكنني في النهاية أقول لك كما قالت صديقتك هذه، ربما يكون في مســـاعدتي لك قيمة أضفيها على ما تبقى من حياتي.

كم شـــعرت بضآلتـــي عندما احتقرت تلـــك المرأة فـــي البداية، إننا نستســـلم دومـــاً لتصورات وأفـــكار يصوغها غيرنـــا، وصفات جاهزة نسقطها على أشخاص يمتهنون مهنة معينة دون أن نفكر أن لكل منهم قصة، وأنه ربما يكون بداخله مختلفاً عما يبدو ظاهره، إننا ننصب من أنفسنا قضاة بغير حق على الجميع، نحاكم من أخطأ ونصدر الأحكام، وننفذهـــا دون أن نتفهـــم ما أدى به إلى ذلك، فها أنـــا الأميرة المملوكية

أتحول أمام المجتمع إلى مغنية في السهرات والقصور، وربما يدخلني بعض الناس في زمرة «الخواطئ» لمجرد أنني أتعامل مع «ضامنة المغاني»، دون أن يدري أحد حقيقة ما يجري، كم احتقرتُ تلك المرأة التي تتكسب من عرق البغايا، وتستخدم موهبتها في إغواء الفتيات الهاربات في العمل معها، ولم أتخيل يوماً أن حياتي ستكون أمانة بين يديها، وأنها ستقف معي هذا الموقف الذي يجبن الرجال على أن يقفوه معي، ويردوا الظالم عن ظلمه، في تلك اللحظة اقتحمتني فجأة كلمات الشيخة غازية «كلنا يحمل في داخله هيفة بقدر ما»!

وقبل أن تغادرنا هيفة استوقفتها، وقد تذكرت أمراً مهماً:

الآن ليس لدي سوى شاهدة واحدة وهي ورد، وتبقى الشاهدة الثانية، القابلة، فكيف سنصل إليها ونحملها على الشهادة أمام القاضي؟

فكرت هيفة، ثم لمعت عيناها، قبل أن تقول وهي تنصرف وتغلق باب الغرفة من الخارج:

لا تقلقي، سيقضي الله أمراً كان مفعولاً، أعرف شخصاً يمكن أن يساعدنا.

(26)

القاهرة، أكتوبر 2010

عندمـا أفقـت، وجدتني ملقى في سـيارة ترحيـلات كبيرة وحولي عـدد كبير من الشـباب الذين كانوا بجواري فـي الوقفة، أعداد أخرى لم أكن أعرفهم، يبدو أنهم كانوا ممن انضموا متأخراً، حاولت سـريعاً القيام، فأحسسـت بدوار مفاجئ، وألم شديد في مؤخرة رأسي، وعندما تحسست موضع الألم، وجدت كتلة كبيرة من الدم المتجلط، وقد تشرب شـعري الكثير من الدم النازف حتى صار العظم واللحم والشـعر كتلة صلبة، التفتُ إلى شـاب بجواري، وكان وجهـه مألوفاً لكنني لا أتذكر اسـمه، وسألته عن وجهتنا وماذا جرى؟ فأجاب بهدوء إنهم في الغالب سـيرحلوننا إلى أحد معسـكرات الأمـن المركزي، حيث سـيتم عمل حفلـة على الوافدين، وبعدها يتـم التحقق من هويتنا، ويتم الإفراج عن البعض، بينما يتم احتجاز البعض الآخر والتحقيق معه.

سألته مجدداً:

ومـاذا حدث للآخرين؟ أقصد الفتيات اللاتي كن معنا، أنت تعرف ريم، صحيح؟

أجاب:

نعم أعرفها، لقد التقينا يوم زيارة «بولاق».. ألا تذكرني؟

نعم نعم، سامحني، أنت تعلم، هذه أول مرة......

أعرف، ولا يهمك، ألف سلامة، يبدو أن الضربة كانت قوية، لقد استغرقت وقتاً طويلاً حتى تفيق، عموماً لا تقلق الفتيات عادة ما يتم إطلاق سراحهن فوراً، قلة منهن من يتم ترحيلهن إلى أمن الدولة.

وريم؟؟

من الصعب الآن أن نعرف، سيتضح كل شيء بعدما نصل.

عدتُ إلى الصمت بفعل الألم، واهتزازات سيارة الترحيلات العنيفة المكتظة بالشباب الذين أخذ بعضهم يغني، والبعض الآخر يطل من كوة في جدارها الحديدي ليتعرف إلى وجهتنا، بينما انشغل البعض بإبلاغ أكبر عدد من الشباب المرافقين له باسمه وعنوانه، حتى إذا استطاع أحد منهم الخروج يمكنه التواصل مع ذويه، بينما انهمك عدد قليل ممن نجح في الاحتفاظ بهاتفه المحمول بمحاولة الاتصال بذويهم أو أصدقائهم لإبلاغهم بأنهم قد تم إلقاء القبض عليهم، وإبلاغهم بأسماء من معهم، وبينما كنت أستعيد بعضاً مما جرى، وما قاله هذا الشاب إلى جواري الذي مازلت لا أتذكر اسمه، تذكرت كلمة «حفلة»، فعدت لسؤاله عما كان يقصده، لكن سيارة الترحيلات توقفت فجأة وبسرعة فُتح بابها الخلفي، وأخذ عدد من الجنود يصرخون فينا أن ننزل من السيارة بسرعة، وبدأ عدد من الشباب في القفز من السيارة، بينما تتلقفهم أيدي وعصي الجنود، عندها التفت إليّ ذلك الشاب وقال بتوتر «ها هي قد بدأت»!

تماماً مثلما فعل الجنود في الشارع عندما حاصروا المتظاهرين المحتجين وانهالوا عليهم بالعصي والأقدام، كرروا نفس الأسلوب، مع اختلاف أننا عندما كنا في الشارع كنا نستطيع الجري بعيداً، والخروج من الممر المفتوح بين صفوف الجنود، لكن هنا كان «الصندوق الأسود» الذي كونه جنود الأمن المركزي بأجسادهم محكم الإغلاق، لا ممر فيه ولا مخرج، فقط أياد وعصي تتبادل الأجساد المترنحة تحت وقع الضربات المنهالة فوق الرؤوس والأجساد، الآهات تتصاعد، ومعها تتصاعد حماسة الجنود في الضرب، لما يقارب العشرين دقيقة استمرت تلك «الحفلة الصاخبة» كان نصيبي منها مزيداً من الضربات، وتجدد نزف جرحي فأغرق ملابسي بالدم، حتى فوجئت بيد قوية تجتذبني من داخل «حلبة الرقص الدامي» وتدفع بي إلى داخل مبنى مظلم كئيب الجدران، عرفت فيما بعد أنهم يطلقون عليه اسم «المعسكر»، فقد كنا محتجزين في أحد معسكرات الأمن المركزي على أطراف القاهرة، وهنا يتم التعامل مع المتظاهرين دون عرض على نيابة، أو رقابة من أحد، البعض تكون عقوبته فقط البقاء لبضعة أيام، ويخرج بعد أن يكون نال نصيبه من «التأديب»، بينما البعض الآخر ممن يتم التأكد من نشاطه السياسي يُعرض على النيابة، بعد أن تكون جراحه قد اندملت، وصار في هيئة يمكن بها عرضه أمام النيابة، ولا يستطيع ادعاء تعرضه للتعذيب والضرب، لأن الآثار تكون قد انمحت.

في تلك الليلة، أخذوا منا كل ما كان معنا، أوراق ثبوتية، هواتف محمولة، ساعات يد، نقود، جردونا من كل متعلقاتنا، لم يتحدث معنا أحد، تركونا مكومين، منهكين من آثار «الحفلة»، نستعيد على وقع

تأوهاتنا أحداثها ووقائعها، حتى المصابون منا لم يتلقوا أية إسعافات، وتم توزيع الوافدين الجدد على غرف مختلفة في المعسكر كانت مجرد غرف خالية من أي أثاث، أشبه بفصول المدارس الخالية من مقاعد الدراسة، لم تكن تشبه الزنازين بهيئتها التقليدية، إلا في وجود بعض «الجرادل» الملقاة في نهاية الغرفة لزوم التبول لمن يحتاج.

عندما اكتمل عددنا، أمر أحد الضباط جندياً بأن يغلق باب «العنبر»، ذلك الشاب، الذي تذكرت اسمه فجأة «أيمن» ارتمى إلى جواري يتألم من مواضع الضربات، فقد صمد حتى نهاية «الحفلة»، أخذت أنظر إليه، وأتساءل لماذا يحتمل كل هذا العذاب، ويبدو أنها ليست المرة الأولى، وبينما كنت أتأمل أيمن والشباب الذين معنا، دهمني الدوار مجدداً، فاستغثتُ به، وبدا صوته المذعور وهو يصرخ طالباً النجدة لي يبتعد وكأنني أغرق:

حد يلحقنا، الراجل هايغمى عليه.

قام أحد الشباب بسرعة نحوي، وقد علمتُ فيما بعد أنه طالب بكلية الطب، ونظر إلى رأسي، ثم قام إلى باب «العنبر» وأخذ يصرخ: «الحقونا، واحد بينزف، هاتوا لنا شاش وقطن بسرعة»، ظل ذلك الشاب يصرخ لفترة، وعندما لم يجد مجيباً، نزع قميصه وخلع «الفانلة» الداخلية ومزقها قطعاً طولية، وربط بها رأسي بشدة، وأراحني على جانبي، فبدأت رويداً رويداً أغوص من جديد في نوم أو إغماء عميق.

في تلك الليلة رأيت الكثير من الهلاوس والأحلام غير المكتملة، أناس أعرفهم وآخرون أرى وجوههم للمرة الأولى، كل ما أتذكره أنني رأيت تلك المرأة المملوكية مجدداً، كانت تسير وحدها في طريق

موحش، تهرب من شـــيء لا أراه، حاولت أن أســتوقفها، لكنها تابعت ركضهـــا المحمــوم، فركضت خلفها، مررنا بشــواهد قبور ومســاجد مهجورة، كان الطريق مظلماً ومترباً، وعند جدار قديم توقفت وارتمت على الأرض تلتقط أنفاســها، فسألتها «ممَّ تهربين؟»، أخذت تلهث، ثم أشارت إلى الأفق البعيد خلفنا، في البداية لم أر شيئاً، لكن سحابة كثيفة مــن الغبار أخــذت تتصاعد، رأيت بين ذراتها جنود على خيول ســود يعدون بسرعة نحونا، وعندما همّت أقدام خيولهم أن تدهمنا، أفقت من نومي، فوجدت كل الشباب الذين كانوا معي في العنبر يغطون في نوم عميق، بعضهم جالس، وبعضهم مضجع.

فــي الصبــاح الباكــر، أطلت وجوه الجنــود من جديــد، وبدأوا في استدعائنا واحداً تلو آخر إلى غرفة التحقيق.

كنت أول من نادوا على اســمي، دخلت إلى غرفة التحقيق، مساحة صغيرة، وكأنها في مصلحة حكومية، مكتب معدني، أمامه مقعد واحد، والضابط الذي يتولى التحقيق يرتدي ثياباً مدنية ويدخن ســيجارته في هدوء، تأملني في صمت عند دخولي إلى المكتب، وعندما أصبحت في مواجهته مباشــرة لا يفصلنا إلا المكتب المعدني، حياني بأدب وأشــار إليّ بالجلوس، جلست دون كلمة، فبادر هو إلى الحديث:

يبــدو أن خطأ غيــر مقصود جاء بك إلى هنا، ونحن نعتذر عن هذا الخطــأ، أنت تعرف الفوضــى التي تحدثها مثل تلـك الاحتجاجات، لا وقت ولا فرصة للتأكد من شخصية من يأتي إلى هنا.

رددتُ باستغراب:

خطأ غير مقصود؟!

حافظ الرجل على نبرة صوته الهادئة:

نعــم، خطأ فنحن نعلم أنك صحفي تعمل فــي المجال الثقافي، يعني كتب وروايات ومعارض فنية، ولا شــأن لك بالسياســة وقرفها، وأنت أيضاً صحفي في جريدة قومية يعني «بتاعنا» ولست من الأشكال إياها.

حاولــت أن أتكلــم، أن أقول له إنني كنت بالفعل أشــارك في الوقفة الاحتجاجيــة، ولم يكن هناك خطأ، إنني «مــش بتاع حد»، إنني أعمل في جريدة قومية تسيطر عليها الحكومة، لكن ليس معنى ذلك أنها تملك عقولنا وضمائرنا، حاولت أن أقول له أشــياء كثيرة، لكن صمتاً مخزياً عقد لساني، فكرر الرجل اعتذاره، وقدم لي أوراقي وبطاقتي الصحفية وبقية متعلقاتي، ونادى على أحد الجنود، ففُتح الباب، أمره الضابط أن يصطحبني إلى العيادة الطبية ليرى أحد الأطباء الجرح ويقوم باللازم.

وقبل أن أخرج التفتُّ إلى الضابط وسألته:

وماذا ستفعلون مع الشباب في الداخل؟؟

ابتسم ابتسامة باهتة، قبل أن يقول:

نراك على خير يا أســتاذ حســام، المرة القادمة إن شــاء الله أشرب قهوة في مكتبك.

هــززت رأســي، وقد فهمت مغــزى إجابته وقلتُ بصــوت لا يكاد يسمع:

إن شاء الله.

(27)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

لـم أذق طيلـة الليل طعـم النوم، القلق يفترسـني، وفـي كل لحظة أترقب جنود الجاشـنكير وهم يقتحمون الغرفـة، ويقتادونني أنا وورد إلى القلعة، مجرد تخيلي المثول بين يديه يصيبني برعب قاتل، الموت أهون من أن أقف بين يدي قاتل زوجي وخاطف ابني.

«سأقتله ثم أقتل نفسي»، أمنّي نفسي، وأنا أعلم أنني أعجز من أن أفعل ذلك، فلو كان قتل النفس سـهلاً، لما عانيت ما عانيت في حياتي، ما أصعب أن يكون الموت أفضل من البقاء على ظهر الدنيا، لكن حتى ذلـك الموت يبدو الآن صعب المنال، أنا أجبن من أن أقتل نفسـي، أما الآن ورغـم أن ما واجهتـه في حياتي جعلني في أوقـات كثيرة أتمنى المـوت، لكننـي أدعـو الله الآن أن يؤخر موتي حتى يرينـي آية فيمن ظلمني، قد يكون موتي راحة لي، لكنه سيكون أيضاً راحة للجاشنكير، وهذا ما لا أتمناه، لأتحملن قسوة الدنيا، طالما كان وجودي يؤرقه، هذه هـي قيمة حياتي الآن أن أعذبه بوجـودي، ربما كان ذلك هو ما أملكه من انتقام، قد يكون بقاء المظلوم أقوى صفعة يتلقاها ظالمه.

لكن ما ذنب هـؤلاء الذين تورطوا معي في انتقامي، ورد، القابلة، هيفـة، القاضي عز الدين القيسـراني، ومن يدري من ستشـمله دائرة الخطر في الأيام المقبلة؟

هل أنا لعنة على كل من عرفني؟! على زوجي، وابني، وصديقتي ورد، والقابلـة، علـى «رواق البغدادية» الذي كان نسـيا منسـياً حتى دخلته؟؟ أنا لم أظلم أحداً في حياتي، بل دوماً كنت الضحية، مفعولاً به، لـم أتمرد على ما كنتـه، فهل يعاقبني الله الآن لأنني قررت ألا أصمت علـى ظلمي، وأن أقـاوم؟ هل بذلك أكون قد تمـردتُ على قدري؟ أي قدر ذلك الذي يطالب المظلوم أن يصمت وأن يقبل يد قاتله بدعوى أنه ينفذ إرادة الله، ألم يقل الله أنه حرم الظلم على نفسـه، وجعله بين خلقه محرماً، فكيف يعاقبني إن أردتُ رد الظلم؟ رأسـي يكاد ينفجر، يا ربّ ليس لي سـواك، أنت ملجئي ومعيني، أشـكو إليـك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس.

فـي تلك اللحظة ارتفع أذان الفجر من مئذنة المسـجد الكبير، «الله أكبر... الله أكبر»، نعم الله أكبر من الجاشنكير وجنوده، أكبر من شيوخه وقضاته وجلاديه، لأول مرة منذ وقعت مأساتي، أستشعر وجود الله في قلبي بهذه القوة، كم أنت قريب وحنون يا ربّ، أنقذني مما أنا فيه، فأنت الوحيد القادر على ذلك.

غفـت عينـي لأول مرة في تلك الليلـة لفترة لم أعلـم مداها، لكنها كانـت عميقة بحيث أنني عندما أفقت على صوت هيفة وهي تفتح باب الغرفة، شعرت وكأنني نمت دهراً، دخلت الغرفة وكانت متدثرة بثياب فضفاضة غير تلك المزركشـة التي كانت عـادة ترتديها، فبدت امرأة

كتلك المصريات اللاتي يملأن الشوارع ويشبهن جميعاً نساء الرواق.

تحركت هيفة على عجل، ألقت إلينا بملابس تشبه تلك التي ترتديها طلبت مني وورد أن نغير ملابسنا على الفور ونتبعها، لم تمهلنا وقتاً كي أسألها إلى أين؟ قالت إن الوقت أمامنا ضيق للغاية، ونحتاج إلى أن نتحرك قبل أن تمتلئ الحواري والأزقة بالناس، نزلنا معها على عجل، سارت ونحن نتبعها في حارات متقاطعة، حتى دخلت بنا إلى حارة تتفرع من «شارع المعز»، ودلفت إلى بيت كبير من بابه الخلفي، استوقفتها قبل أن ندخل:

بيت من هذا؟

جذبتني من ذراعي وقالت بحدة:

ادخلي أولاً وبعدها ستعرفين.

نزعت ذراعي من بين يديها، وقد تملكني غضب مفاجئ، وعاودتني الشكوك فيها، وقلت بحدة وقد بدأ صوتي يعلو:

لن أدخل قبل أن أعرف، بيت من هذا؟

بيت القيسراني، والد القاضي عز الدين، وإذا لم تدخلي الآن ولمحتنا عيون بصاصي الجاشنكير فسيفتضح أمرنا.

تملكتني دهشة، وشلتني المفاجأة عن إبداء أي رد فعل، استسلمت ليد هيفة وهي تجذبني إلى الداخل، وعندما طرقنا باباً صغيراً عند مدخل الخدم، فُتح الباب على الفور، وكانت إحدى خادمات البيت في انتظارنا، سلمت على هيفة وبدا أنها تعرفها من قبل، قادتنا إلى غرفة

بداخـل البيـت، وهناك كان في انتظـاري الجزء الثاني مـن المفاجأة، القابلة التي تولت توليدي كانت في انتظارنا، بدا عليها القلق وعدم الفهم واعترتها الدهشة لرؤيتنا ندخل عليها، وبدا سؤالها عن الأمر استنكاراً أكثر منه استفهاماً.

بينما خرجت الخادم من الغرفة لتأتينا بشيء نشربه، سألت هيفة عن الأمـر، فقالت إنها عندما فكرت فـي الأمر بعدما تركتنا في الحمَّام، لم تجد مخرجاً سوى الاتصال بالقاضي عز الدين القيسراني، فهو الوحيد القادر على حمايتنا من بطش الجاشنكير، ولما كانت تعرف من سنوات إحـدى الخادمات في بيته، فقد اسـتطاعت من خلالهـا مقابلة القاضي، وروت لـه مـا أعانيه من خطـر، واقترحت عليه أن تأتي الشـاهدتان وخونـد فرح إلى بيته؛ لأنه من غير المضمون أن تبقيا على قيد الحياة حتى الصباح لتذهبن إلى دار القضاء، ورغم تردد القاضي عز الدين، إلا أنه اسـتجاب لها في النهاية، وأرسل في اسـتدعاء القابلة إلى بيته، والتي لم تكن تعلم حتى ذلك الوقت أنها مطلوبة للشهادة بشأن ما جرى في تلك الليلة الحزينة في بيت الأمير الجاولي.

هدأت بعض هواجسـي، لكن القلق لم يغادرني بعد، اتسـعت دائرة الخطر الآن ولم تنحسـر، فقد شـملت إلى جانبي وورد والقابلة وهيفة، و«رواق البغدادية»، القاضي عز الدين نفسـه، فكونه قاضياً، لا يعني ذلك أن من حقه استقبال المتقاضيات والشهود في بيته، التقاضي مكانه دار القضاء وليس بيوت القضاة، خاصة إذا كان المتهم في تلك القضية هـو الملك، فإن الأمر قد يسـاء فهمه، ولا بد أن يسـاء فهمه، فما فعله القاضـي عز الدين فـي حفل القلعة لم يكن معهوداً مـن قبل، وبالتأكيد اعتبره الجاشـنكير اجتراء عليه، ولن يغفره مطلقاً، لكن ربما المفاجأة

ووجـود حشـد من الأمـراء ورجال الدولـة، حـال دون أن يذهب في غضبـه إلى منتهـاه، وربما ظن أنه قادر على إخماد القضية في مهدها دون أن يبدو أنه يتحدى القضاء، والآن فإن القاضي عز الدين يمعن في تحديه باستدعاء صاحبة الدعوى وشـاهدتيها إلى بيته، وإحدى هاتين الشـاهدتين جارية هاربة من «حرملك» الجاشنكير نفسه، فأي مصيبة جلبتها على ذلك القاضي وبيته؟!

دخلـت الخادم إلى الغرفة تحمل أقداحـاً، وتبعها القاضي عز الدين فسلّم وجلس، وأشار إلينا أن نشرب ما قدمته الخادم قبل أن يتكلم، وبعد فترة شـعرتها أبداً طويلاً، يكسـوني القلق والحرج، حتى إني لم أجرؤ على أن أرفع عيني لأرى القاضي عز الدين وهو يحدثني:

وجودكـم اليوم فـي داري أمر غيـر معهود، ولولا أني أستشـعر خطـورة الموقف، لما وافقـت على هذا الاسـتثناء، لكنني لا يمكن أن يكـون التزامي كقـاض حائلاً دون مسـاندة ضعيف، خاصـة إذا كان مهدداً.

حاولـت أن أتكلم، لكـن خانتني الكلمات، فاتجـه القاضي إلى ورد وطلب منها أن تروي شهادتها على ما جرى، فروت له ثم تلتها القابلة، وبعد أن أتمتا شهادتيهما قام القاضي مغادراً، وقال إنه سيؤمن لنا وسيلة للإدلاء بشـهادتنا في دار القضاء، لكن الأمر ليس بمأمون العواقب، لم يكن وجهه هادئاً مثلما التقيته في دار القضاء، أو حتى في الليلة السابقة في حفل القلعة، بدا عليه الاضطراب، وإن حاول أن يخفيه بتلك الجدية البادية على وجهه دوماً، لكن من خبر القلق، وتسـللت سـمومه في كل خلاياه مثلي، يشتم رائحته من بعد.

عـادت الخـادم إلينا، وطلبـت منا أن نتوجه معها إلى حيث سـنقيم خلال فترة بقائنا في البيت، بينما استأذنت هيفة في الانصراف، مؤكدة أنها سوف تعود لتراني عندما يسنح الأمر، لأن تردد امرأة مثلها على بيـت قاضٍ أمر يثير الريبة، تفهمت قولها، وإن أثار بداخلي مزيداً من التوتـر، فـإذا كان مجرد رؤيتها تدخل هذا البيـت مثيراً للريبة، فكيف بإقامة ثلاث نسـاء في بيت القاضي إحداهن زوجة أمير تتحدى الملك، أو مغنية دمشـقية مجهولة الأصل تجوب القصور تتكسب من صوتها، وجارية هاربة من قصر الجاشنكير، وقابلة شاء حظها العاثر أن تكون شاهدة على جريمة الجاني فيها الملك نفسه.

انصرفت هيفة وودعتها بامتنان كبير للمرة الثانية خلال ليلة واحدة، وبينما أسـير مع الخادم إلى حيث سـنقيم، سـألتها عما إذا كانت سـيدة البيت تعلم بإقامتنا، فمن الواجب أن نسـلم عليها ونسـتأذنها، أخبرتني أن القاضي عز الدين يعيش وحيداً في هذا البيت الذي يعود لأبيه، وقد رحل الأب وكان قاضياً رفيع الشـأن أيضاً، والزوجة وكانت ابنة أحد كبار شيوخ الأزهر في عام واحد، ليخلفا فراغاً كبيراً في قلب القاضي عز الدين وفي بيته الكبير.

أقمـت مع ورد في غرفة واحدة، بينما أقامت القابلة في غرفة غير بعيـدة عنا، ظلت أشـباح القلق تطارد كل رغبة فـي الراحة، وأحداث الشـهور والأيام الأخيـرة تطاردني بلا رحمة، ما ألبـث أن أنتهي من اسـتعادتها حتى تعود مجدداً، وأخطر مـن اضطراب الماضي، ترقب المسـتقبل، ماذا ينتظرني في قادم السـاعات والأيـام؟ الله وحده يعلم، لكـن وبينما أفكر فيما هو قادم، أحاطني إحسـاس مـن الماضي ضاع بيـن حطام حياتي في الشـهور الأخيرة، وهو إحسـاس البيت، الأمان

المفقود، أعاد وجودي في بيت – وإن لم يكن بيتي – إليّ ذلك الإحساس بالهـدوء، ولو كنت في قلب العاصفة، إحســاس ضاع في ذلك الرواق الكئيب، وعثرت عليه على غير انتظار هنا، يا لشوقي لبيتي، ولحياتي السابقة عندما كان لي بيت!!

(28)

القاهرة، أكتوبر 2010

انتهى ذلك الكابوس في معسكر الأمن المركزي، خرجت فاقد الاتزان، دهمتني آلام لا تحتمل، وكأن صفعات وركلات الجنود لاتزال تنهال على جسدي، رأسي يؤلمني ألماً رهيباً، مددت يدي لأتحسس الجرح، توقف النزف بعدما قام طبيب المعسكر بخياطته ووضع ضمادات نظيفة، لكنني احتفظت بذلك الثوب الممزق للطبيب الشاب الذي عالجني أول مرة، كأن تلك القطعة الممزقة من ثوبه، المتشربة بعرقه ثم بدمي تصفعني بقوة، فتخلف ألماً أشد قسوة من تباريح الجسد، كانت روحي لاتزال تنزف.

الوقت لايزال مبكراً جداً، الشمس غائبة، وغمامات كئيبة تحتل الأفق، أحسست بأنني أريد أن أصرخ في تلك الصحراء الواسعة، لكن شجاعتي حتى على الصراخ خانتني، ألقت بي سيارة الشرطة التي تولت إخراجي من المعسكر عند بداية الطريق المأهول، أحسست بحنين عارم إلى بيتي، لا أعرف هل كنت أحنّ في تلك اللحظة إلى البيت وإحساس الراحة والهدوء، أم كنت أبحث عن مخبأ يؤويني من تلك العاصفة التي وجدت نفسي في قلبها فجأة ولاتزال أصداء أنوائها تطن في داخلي؟!

أول شـــيء فعلته بعدما وصلت إلى بيتي هو الاتصال بريم، رغبتي فــي الاطمئنـــان عليها كانت أقــوى من آلامي، ردت ســريعاً على غير المعتاد، وكأنها كانت تنتظرني، صوتها ملتاع، قلق، منهك، لكنه صامد، طمأنتها واطمأننت عليها، ســألتني عن مكاني، قلت «البيت»، ســألتني عــن العنوان، أجبتهــا بطريقة آلية، حاولت أن تســألني عمّا حدث لي، لكنني كنت قد وصلت إلى ذلك الشــاطئ البعيد، تماماً كغريق ظل يقاوم الأمواج حتى نجا، وعندما استشــعر الأرض تحت قدميه انهار جســده المنهك، استسلمت لإحساس النجاة، لكن لم تغادرني هواجس الغرق.

غبتُ في نوم مكدود، غياب بلا راحة، لكنه أفضل من يقظة مؤلمة، أطيــاف الليلة الماضية لاتزال تعبئ فراغ عقلي، كل شــيء يعاد آلاف المــرات، الصفعات، الركلات، الدماء، الصــراخ، الألم، ثم.... فراغ، لتعود نفس الصور والأحاســيس مجدداً، لكن في إحدى المرات لمحت وجهــاً أعرفه بين زحام الصور، كانــت تقف على الجانب الآخر على سلم النقابة، صامتة، لا تحمل شيئاً، لا تحتج، فقط تنظر إلى ما يجري، نعــم هي، تلك المــرأة المملوكية، لمــاذا تطاردني فــي أحلامي، لماذا تأتيني دوماً، لا تمنحني شيئاً، سوى المزيد من الغموض، وقفت تتأمل المشــهد المضطرب، لا تتحرك، وكأنها غير موجودة، لكنها موجودة، وعندما ســقطتُ على الأرض، وانهالت العصي على جسدي، وجدتها بجانبــي، تمد يدهــا نحوي، تســاعدني لأقوم، كيــف لا تطالها عصي الجنود، أتعجب، كيف لا تخشاهم، لاتزال تمد يدها، أحاول أن أمد يدي لأقوم، ألمسها، كأنها بلا جسد، أشعر بأنني أمسك فراغاً، لكنني مطمئن لحضورهــا، أتامل وجهها، قلق، لكنه متماســك، متألم لكنه صابر، من أنت ؟ من أنت؟ تكلمي، من أنت؟ لماذا أنا؟ أرجوك تكلمي، من أنت؟

أفيق فجأة على صوت جرس الباب، يقطع عاصفة الأسئلة، يخرجني من هوة الحلم المؤرق، أقوم متثاقلاً، كل خلية في جسدي تتألم، أتحامل على نفسي، أتلمس خطواتي نحو الباب، أشعر بأنني على وشك السقوط مع كل خطوة لكنني أواصل السير، أفتح الباب، فيطل وجهها، نال منه التعب والألم والقلق، لكنه لم يفقد قدرته على التحدي.

ريم!

نطقت باسمها واهناً، مندهشاً، لكن بارتياح، أحسستُ بسعادة لأننا مازلنا هنا، لأننا رغم كل شيء موجودان، دخلت، استندتُ إليها، حتى وصلت إلى أقرب مقعد فتهالكت عليه، وجلست هي في مواجهتي، لحظات من الصمت المرتبك، قلنا فيها الكثير.

آسفة، أنا التي ورطتك في كل هذا، أتحمل وحدي المسؤولية.

أبداً.

أعرف أنك غاضب، لقد عشت عمرك بعيداً عن مثل تلك المواقف، وأنا من أقحمك فيها.

لا تقولي ذلك، أرجوك.

أنا لعنة، منذ أن عرفتني وأنت لا ترى من جانبي سوى المشكلات.

أكملت جملتها الأخيرة بصعوبة، وانهمرت دموعها، وكأنها تريد أن تعتذر بالتطهر مما تراه مسؤولية بشأن ما جرى لي، لم تكن دموعها تغسلها هي، بل تغسلني أنا، كلما انهمرت دموعها، أحسست بنزيف روحي يتوقف، وكأنما تسكب دموعها في قلبي، فيتدفق نهراً عذباً يروي روحي التي تشققت.

جثوت على ركبتي أمامها، أمسكت كتفيها، رفعت وجهها لتواجهني، ابتسـمتُ، لأول مرة منذ شهور أجد ابتسامة تنبت على وجهي، وجهها الغارق في الدمع بدا بريئاً، نقياً كصفحة سماء بعد انقضاء المطر:

أتذكريـن عندما التقينا في ذلك المقهى في وسـط البلد بعد ما حدث في «شارع المعز»؟

نعم.

أتذكرين ما طلبته منك في ذلك اليوم؟

أجل، سألتني أن أعيد إليكَ روحَك، وأنا لم أفهم وقتها ما تقصده.

ليـس مهماً أن تفهمـي، المهم أنك فعلتِ، أنت أعـدتِ إليّ روحي، وأعدتنـي إلـى روحي، لا أعرف كيف حدث ذلـك، أنت، وتلك المرأة المملوكيـة، ذلك العالم البعيد المجهول، في الشـوارع والأزقة الفقيرة التـي كنت أمر بها كل يوم، لكنني لم أشـعر بهـا يوماً، تلك النقابة التي أنتمـي إليها، وأذهب إليها مئات المرات، لكنني لم أكن أتصور أنها قد تحمل معاني أخرى غير تلك التي تعودتها، كل شـيء معك دوماً كان مختلفـاً، له زاويـة لم أكن أراها، له عمق لم أصـل إليه من قبل، حتى تلك المرأة التي اكتشفتها، وسـاعدتِني على اكتشافها، جعلتني أغوص في نفسي أكثر، هذه المرأة هي أنت، هي أنا، هي كل شيء، ولا شيء، أرجوك لا تعتذري، فما فعلته من أجلي لا يستحق الاعتذار من جانبك، لكنه يستحق الشكر، أنا مدين لك بروحي.. التي عادت.

(29)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

أقمنا في بيت القاضي عز الدين القيسراني عدة أيام، حظينا خلالها بهدنة أشعرتنا بأن القلق بات يبتعد عني، هدأت ورد، بعدما ظلت الكوابيس تعكر نومها دوماً، لكنني كنت على يقين أن هذا الحال لا يمكن أن يدوم، فهذا ليس بيتي، ولا يمكن أن نعرض القاضي الذي أكرمنا للخطر ببقائنا عنده، وكانت القابلة قد استأذنت في العودة إلى بيتها لترعى صغارها، فأذن لها القاضي، وعندما استشعرت الخطر في مغادرتها لأن بصاصي الجاشنكير لا بد أنهم يترقبون عودتها، وطلبت من القاضي ألا يسمح لها بالخروج، رد بحسم:

إنها شاهدة وليست متهمة، ولا يمكنني احتجازها، فضلاً عن أن هذا بيت، وليس سجناً، فمن شاء فليبق، ومن شاء فليرحل، وطلب منها القاضي راجياً ألا تفصح عن مكاننا، لأن في ذلك خطراً كبيراً على الجميع.

في تلك الليلة، وكانت ليلة جمعة، استأذنت في الدخول على القاضي، كان جالساً يطالع بعض الكتب، فدخلت وسلّمت، وجلستُ،

ســألني عن الأمر، فصارحته بما أستشــعر من خطر، وطلبت منه أن يســمح لنا بالرحيل، تفكر قليلاً ثم ســألني أين أنوي أن أذهب، ســكتُّ حيرة وجهلاً، فنظر إليّ وقد اكتست ملامحه اطمئناناً رغم ما نعانيه:

{قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}.. صدق الله العظيم.

رددت بتسـليم وإيمان «صــدق الله العظيم»، لكـن هواجس كثيرة كانت لاتزال تساورني، فقلت:

ولكن هذا الأمر لن يسـتمر إلى الأبـد، وأنا لا أرضى أن أعرضك للخطر، فلمَ تتحمل كل هذا العبء؟

أغلق القاضي المجلد الذي كان يطالعه وقال:

يا سـيدتي، القاضي هو خادم العدالـة، وطالما نذر حياته من أجلها فإنه يسـعى إلى تحقيقها بشتى السـبل، ونصرة المظلوم هي أكبر آيات العدل، فكيف إذا كان المظلوم امرأة ضعيفة والظالم سلطاناً جائراً؟!

لكنك تواجه خطراً كبيراً بتحدي الجاشنكير.

الخطر موجود في كل وقت ومكان، وأن يتعرض الإنسـان للخطر أو حتــى يموت من أجل نصــرة مظلوم فهذا أفضل الجهاد عند الله، ألم تســمعي حديث الرسـول الكريم «خير الجهاد، كلمة حق عند سـلطان جائر»؟!

أسـكتتني حجته، لكـن اضطرابي لايزال واضحــاً، فتابع القاضي القول:

لا تقلقــي، فقــد اعتــدتُ الأخطار بســبب مواجهتــي لضيّقي الأفق

وجهال العلم، ممن يرون في الدين خدمة لنزواتهم، وستاراً لأهوائهم، وهؤلاء كانوا أخطر من ألف جاشنكير.

نعم علمتُ بمواجهتك لبعض العلماء الذين هاجموك، لأنك حكمت لامرأة ضد زوجها، ويقولون إنك تناصر النساء.

أنا أنصر المظلوم، رجلاً كان أم امرأة، لكن عُماة القلوب من الجهلاء لا العلماء، لا يرون في المرأة إلا عورة يجب أن تستر، وجسداً للمتعة لا يحق له أن يحتج.

لاحظت انفعاله، فآثرت السكوت، فبادرني بقوله:

ربما يجعل الله بعد ضيق فرجاً، وقد نكون الآن في حال أفضل مما هو قادم، لقد أرسلتُ في طلب الجاشنكير ليمثل أمام القاضي، وليدلي بشهادته.

انخلع قلبي لقوله وصحت:

الجاشنكير عنيد، ولن يقبل إهانة كتلك.

بهدوء رد:

المثول أمام القاضي ليس إهانة، لكنه العدل.

لكنه لن يفهم الأمر على هذا النحو، سيفعل المستحيل حتى لا يتم ما تريد.

إذا كنت خائفة لهذه الدرجة، فلماذا بدأتِ الطريق؟

كنت أبحث عن حقي، وأدرك أن الطريق وعرة، وظننتني وحدي أتحمل العبء.

إذا كانت لدى امرأة وحيدة مثلك تلك الشجاعة لتقاضي الملك، أيجبن القاضي إذاً؟

سكتُّ، وقد أسرني القاضي بمنطقه وكرم خلقه، إنه حقاً يستحق تلك السمعة التي شاعت عنه وعن أبيه بأنهم سدنة العدل، دعوت له بالنصرة، واستأذنت في الانصراف، ورغم ما منحني حديثه من راحة، لكن شيئاً في أعماقي كان يستشعر الخطر، فاعتياد المآسي يجعل القلب يشتّم رائحة الأحزان من بعيد.

ولم يكذب حدسي، فقد جاءت الأحزان بأسرع مما توقعتُ.

في ذلك الصباح، خرج القاضي عز الدين ليصلي الجمعة، وبينما كنت وورد جالستين، أحدثها عما دار بيني وبين القاضي من حديث في الليلة السابقة، تناهى إلى أسماعنا أصوات مؤذني الجمعة، ولم تمض سوى سويعات حتى جاء القاضي عز الدين ملتاعاً، مكفهر الوجه، مضطرب الجنان، طلب من الخدم بالبيت أن يحكموا إغلاق الأبواب، وأن يقفوا في مكان آمن، تملكني رعب لم أعهده في حياتي، حتى تلك اللحظات الجنونية التي كان الموت فيها يلامس نحري، سألت القاضي عن الأمر، فأجاب باقتضاب لكن بصوت غريب: «لقد بدأوا الحرب سريعاً»، وفي تلك اللحظات كانت هيفة تقتحم باحة الدار لاهثة، وكأنها كانت تفر من طوفان، تلقيتها بين يدي، وهي تكاد تهوي أرضاً، وكلماتها تتساقط من شفتيها متقطعة، «لا بد أن تهربوا... جميعاً.... الآن».

لماذا نهرب؟ وما هذا الهلع المفاجئ الذي دهم القاضي رابط الجاش دائماً، أية مصيبة تلك التي أخرجته عن طوره، وجاءت بهيفة على تلك الصورة؟

قبل أن يجيب أحد عن أسئلتي، جاءني الجواب من خارج أسوار المنزل، كانت أصوات هادرة تتدفق غاضبة، تكيل سباباً للقاضي «الزنديق المنحرف الذي يخفي الخواطئ في بيته»، كان الصوت هائلاً، مرعباً، لا بد أنهم بالعشرات، لا، بالمئات، آلاف، أصابني الرعب، شُلّ تفكيري، بدأت المعركة فعلاً، لكن من سنواجه؟ جنود الجاشنكير أم عامة الناس، أي مصير يترقبنا خلف تلك الأسوار؟ هل سيقتلوننا، أم يلقون القبض علينا فقط؟ هل يعرفون حقيقتنا أم أنهم جاؤوا لينفذوا أمراً ما، أيعلمون ما يفعلون أم أنهم جهلاء استغلهم الجاشنكير ورجاله؟

كل أسئلتي ضاعت سدى، فلم يكن هناك من يجيب عنها، الجميع يركض ذعراً في كل اتجاه، القاضي عز الدين يقف يوجه الخدم إلى إحكام إغلاق الأبواب وتحصينها بكل ما تطاله أيديهم من أثاث وأخشاب، أنا وورد وهيفة نساعد قدر استطاعتنا، لكن الهلع يجعلنا غائبتين عما يجري، وكأننا نشاهد ما يحدث لغيرنا، نقف أحياناً لنتابع، نجري على غير هدى في الغرف الداخلية، نحضر أشياء نلقي بها وراء الأبواب، نقف مجدداً في باحة البيت لنشاهد، تنهال فوق رؤوسنا الشتائم والهتافات التي تطالب بقتل «قاضي الخواطئ»!

سألت هيفة عن بعض ما لديها، فهي الوحيدة ربما التي تعرف جانباً من أسباب ما يجري، أبلغتني بجمل مبتورة أن قاضي القضاة ابن عدلان أصدر قراراً بعزل القاضي عز الدين القيسراني، بعدما اتهمه بإخفاء نساء خواطئ في بيته، وإقامة علاقة معهن وإخفاء جارية هاربة من حرملك الملك، ليصدر أحكاماً لصالحهن، وأوعز إلى خطباء الجمعة في المساجد القريبة من «بيت القاضي» أن يهاجموا القاضي

عز الدين، فاستجابوا طوعاً لأوامر الملك وقاضي قضاته، ورغباً من عند أنفسهم انتقاماً من هذا القاضي الذي دأب على مهاجمتهم وفضح أكاذيبهم وجهلهم، مستغلين أحكامه التي أصدرها من قبل لصالح بعض النساء، وأثارت غضب بعض الجهلاء ليقلّبوا العامة ضده، ويحثونهم على تطهير حيهم منه ومن النساء الخواطئ اللاتي يخفيهن في بيته.

بدأتُ أفهم بعضاً مما يجري حولي، لكن حشد الغاضبين في الخارج لم يمهلنا طويلاً، فبعدما فشلت محاولاتهم لاقتحام البيت، بدؤوا في إلقاء الحجارة وكرات اللهب إلى الداخل، وتدريجياً بدأت تلك الكرات اللعينة تنهمر على باحة البيت، أمر القاضي القيسراني الجميع أن يتراجعوا بعيداً عن الأسوار والأبواب، رفض بعض الخدم، فذلك معناه أن يقتحم المهاجمون الأبواب، لكنه نهرهم بحسم، وطلب منهم أن يبتعدوا خوفاً من أن يحترقوا بتلك الكرات المشتعلة، ثم التفت إلينا وطلب منا أن نخرج من البيت من باب خلفي، قبل أن يفطن إليه محاصرو البيت ويسدوا علينا آخر فرصة في الهرب.

طلبتُ منه أن يأتي معنا، فرفض، ألححتُ عليه، رد:

إنهم يريدونني أنا.

انفعلتُ:

يريدونك بسببي.

التفتَ إليّ، وقال بصوت لن أنساه ما حييتُ:

بك أو من دونك كانوا سيتخلصون مني، هؤلاء لا يحتملون من يخالفهم، إما أن أكون تابعاً، وإما ميتاً.

قلت أحاول إقناعه بالمجيء معنا للمرة الأخيرة:

هؤلاء جهلاء مخدوعون، تعالَ معنا، فأنت درعنا الأخيرة.

ردّ بحسم:

هؤلاء مجرد سكين في يد من يخدعونهم، ويتخفون وراءهم، الآن عليكم بالفرار، وليكن الله معكم، فهو الحامي والنصير بعدما سقطت درعكم الأخيرة.

قال كلماته تلك، وأمر الخدم بأن يجبرونا على الخروج جميعاً من الباب الخلفي، وأن يخرجوا معنا، حاولنا جميعاً أن نرفض، صرخ فينا بعنف، وقد بدأت رؤوس الغاضبين تطل من فوق أسوار البيت، جرني الخدم جراً إلى الداخل، وبينما كنت أخرج من نفس الباب الخلفي الذي دخلتُ منه إلى البيت قبل أيام، كانت كرات اللهب تنهمر بغزارة، مخلفة الحرائق في كل اتجاه، وكان باب البيت الكبير ينفتح تدريجياً تحت وقع ضربات وتدافع الغاضبين، لم تكن هناك مقاومة تمنعهم، فقد وقف القاضي عز الدين القيسراني، وحده ينتظرهم، وينتظر مصيره ببسالة لم أرها يوماً، وربما لن أراها.

(30)

القاهرة، المحرم 709هـ – يوليو 1309م

نجاتنا في ذلك اليوم كانت معجزة حقيقية، لحظات فصلت بيننا وبين موت محقق على أيدي هؤلاء الجهلاء الغاضبين، من هؤلاء؟! لست أدري، ولا أحد يدري!

تفرق جمع الفارين بعد قليل من خروجنا من بيت القاضي، ذهب الخدم إلى وجهة لا أعرفها، ورغب بعضهم في العودة إلى دار القاضي، لكن هيفة منعتني من العودة معهم، وحذرتني من أنه ربما كان هناك بين الحشد الغاضب بعض بصاصي الجاشنكير، وإذا كان الله قد كتب لنا النجاة في الأولى، فلربما لا يحالفنا الحظ مرتين، اقتادتني مجدداً عبر الحواري المتداخلة كمتاهة لا تنتهي، أخبرتني أنه من الصعب العودة نهاراً إلى الحمّام، فهناك عشرات النساء الداخلات والخارجات منه، وربما يكون دخولنا إليه في هذا التوقيت مخاطرة كبيرة.

اتجهنا نحو أطراف المدينة، هذه المرة لم أجرؤ على أن أسالها إلى أين نحن ذاهبون، لم يعد بيدي التحكم في مصيري، لم يعد باستطاعتي الرفض، كان عليّ فقط أن أنصاع لأوامرها، وأن أتقبل شاكرة ما

تفعلـــه، ومازلـــت ســـاعتها رهينة خوفـــي وحزني علـــى القاضي عز الديـــن، ومـــا يواجهه من مصير مجهول بســـبب مســـاندته لي، نظرت إلـــى ورد، التي خيّم عليها صمت عميـــق، ولم تنطق بكلمة منذ كنا في بيت القاضي، كانت مستسلمة هي الأخـــرى لمصيرنا المجهول الذي بات بيد تلك الغانية، نظرت إليها في يأســـها، ولم أســـتطع الهروب من إحساســـي بالذنب، أنا اللعنة التي أصابت كل مـــن اقترب مني، مجدداً شـــعرت بحزن وغضب في آن واحـــد، حزن على كل من أحببته ودفع ثمن مأســـاتي، وغضب ممن ظلموني ولايزالـــون يضيفون إلى لائحة ضحاياهـــم المزيد والمزيد، لكنني شـــعرت بأنني يجـــب أن أتوقف، لا يمكن لرغبتي في الانتقام أن تتحول إلى انتقام ممن يســـاعدونني، لا بد أن أعترف بضعفي وعجزي، ما أنا سوى امرأة أراد القدر أن يضعها فـــي هـــذا البلاء منذ كانت طفلـــة، عليّ إذاً أن أتقبل قـــدري لعله يتغير، فربمـــا ما أواجهه من مصائـــب مرده أنني أتمرد على قدري، نعم، هذه هي الحقيقة التي لا أريد أن أعترف بها، فالله يعاقبني، لأنني لا أرضى بقضائه.

منحني اليأس سكينة غير متوقعة، وقادتني تلك الفكرة إلى استسلام مريح، لكن هذه الراحة لم تدم طويلاً، فقد عاودتني الهواجس بأن عليّ أن أفعل شيئاً لأنقذ من ورطتهم في مأساتي، فصنعت بفعلي ذلك مآسي جديدة، عليّ أن أوقف دائرة الغضب والانتقام، أن أستســـلم استســـلاماً نهائياً وأخيراً، ربما يكون ذلك دليلاً على تسليمي بقدري.

في تلك اللحظات وقفنا أمام بيت صغير، بدا مهجوراً منذ ســـنوات، بابـــه يعلوه تراب كثيف، ونوافذه متهالكة، كان البيت كمن يحتضر منذ ســـنوات، لكـــن انتظاره أمراً مـــا جعله يبقى على قيـــد الحياة، بصعوبة

استطعنا فتح بابه ودخلنا، كوة صغيرة من السقف أضاءت ببصيص نور تلك الظلمة الكثيفة المتراكمة في مدخله، على هدى ذلك البصيص تحركنا نحو إحدى الغرف المغلقة، فتحتها هيفة بسهولة هذه المرة، وهي تكلمنا دون أن تنظر إلينا:

لم آتِ إلى هذا المكان منذ سنوات.

سألتها بفضول:

لمن هذا البيت؟

بحزن أجابت:

إنه بيتي... أو بالأحرى آخر بيت سكنته كزوجة وأم.

ألجمتنا الدهشة، فانهالت الأسئلة على عيوننا المحدقة، ولم تنطقها شفاهنا.

نعم كنت زوجة وأماً... لماذا تبدو الدهشة على وجهيكما؟

إذاً لماذا أنت الآن من.....؟

لم تستطع ورد إكمال سؤالها، لكن هيفة أجابت رغم ذلك.

الخواطئ.. أليس هذا ما تودّين قوله؟

كان صمتنا هو الرد، فواصلت وكأنما تحدث نفسها:

لكل إنسان في هذه الدنيا قصة، بعضها ظاهر للناس ومعروف، وبعضها الآخر، وربما الأهم منها، مطمور تحت رماد الذكرى، ندفنه

بأيدينـــا ونكابد ما حيينا ليظل مجهــولاً، لكنه قد يظهر بين حين وآخر، إننـــا لا نصنع مصائرنا ولا نختـــار أقدارنا، وكم تحفــل الدنيا بغرائب لا تخطـــر على بـــال، فلماذا تتعجبان أنني كنـــت ذات يوم زوجة وأماً، ولا تتعجبـــان من أميرة مملوكية صارت علـــى الأقل أمام الناس غانية مطـــاردة، وجاريـــة في قصر الســـلطان صارت بين عشـــية وضحاها مطلوبة لسيف السلطان؟!

هززنا رأســينا موافقتين باستســـلام حزين على ما قالت، فُتح الباب وأطـــل أحد أركان الغرفـــة، بينما وقفت هيفة تغالب هبة الذكريات التي دهمتهـــا عندما عانقت عيونها تلك الغرفة المغلقة، اصطنعت ابتســـامة مضيافة على وجهها وهي تشير لنا بالدخول: «مرحباً بكما في بيتي».

دخلنا إلى الغرفة، أثاثها بســـيط وفقير، لكنه كان مرتباً بعناية رغم الأتربة المتراكمة على بعض الأســـطح، تشـــاركنا فـــي إزالة الأغطية الموضوعـــة على الأثـــاث وإزالة الأتربة فبدت الغرفـــة أكثر حميمية، كنت متشـــوقة لأســـتمع إلى قصة هيفة رغم كل ما يحيطنا من أخطار، سألتها بطريقة غير مباشرة:

يبـــدو أن هذا المكان عزيز عليكِ لتحافظي على أثاثه بتلك الصورة كل هذه السنوات؟

نظرت إليّ وقد فهمت مغزى سؤالي:

البيـــوت والذاكرة دوماً بحاجة إلـــى رعاية، فما تريدين أن تحتفظي به عليك رعايته، وهذا المكان لا أريد أن أنســـاه أو ينســـاني، رغم أنني هجرتـــه منذ ســـنوات، لكنني أعلـــم أنني هنا، وعندمـــا أبحث عن ذاتي

الحقيقية لا أجدها سوى في أحضان هذه الغرف الفقيرة، وعندما أموت أريد لروحي أن تصعد من تلك الغرفة التي شهدت أجمل أيام حياتي.

كانت مفاجأة لنا أن تتحدث هيفة عن الموت، تلك المرأة التي لا تعرف سوى الحياة ومتعتها، وربما يكون مجرد ذكر الموت أمراً مستبعداً في حياتها، فإذا بها مسكونة به، تترقبه وتنتظر قدومه المجهول.

وقبل أن أواصل أسئلتي، وجدتُ هيفة وقد حاولت أن تسترد شخصيتها التي عرفناها بها، وكأنها ترتدي ملبساً تداري به حقيقتها، وقفت عند باب الغرفة متأهبة للمغادرة:

ربما يأتي وقت تستمعون فيه إلى قصتي التي لا يعرفها أحد، وربما تجدونها قريبة جداً من قصتكم، فالقصص كلها تتشابه، وحدها النهايات ربما تختلف، لكن عليّ الآن أن أرجع إلى المدينة لأرتب أموراً لا تنتظر التأجيل، وسأعود لكما في المساء، بطعام وشراب، ولتدبير ما سنفعله، أنتما هنا في مأمن، لكن حذار أن يشعر بكما أحد، سأغلق الباب من الخارج، حتى لا ينتبه أحد إلى أن البيت قد فُتح.

غادرتنا هيفة وحيدتين وسط ركام البيت المتهالك، والذكريات المتداعية، جلسنا صامتتين لساعات، خوف وقلق وترقب، انتظار طويل تبدو لحظاته كدهر لا ينتهي، أفكار سود تلاحق عقلي، ماذا جرى للقاضي عز الدين؟ هل نجا من هؤلاء الغاضبين؟ هل عرف الجاشنكير بمكاننا هذا؟ ماذا لو رأى أحد بصاصيه هيفة وتتبعنا إلى هنا؟ هل سيأتون الآن، أم ينتظرون للمساء عندما تهدأ المدينة ويقتلوننا في صمت بعيداً عن عيون المتطفلين، وحتى لا يعرف أحد بقصتنا؟

هل سيحملوننا أولاً إلى القصر ليقتلونا هناك، أم يقتلوننا ويدفنون جثثنا هنا في هذا البيت المهجور؟

أسئلة سود، وأفكار أكثر سواداً، لم أستطع أن أفلت منها، وربما كان الانغماس في تلك الأفكار محاولة للهرب من التفكير الذي ظل مسيطراً على عقلي منذ خروجي من بيت القاضي، عليّ أن أفعل شيئاً لأنقذ الجميع، حتى لو كنت أنا الضحية.

أفقت من أفكاري على سؤال واهن من ورد التي بدت وكأنها تذبل في كل دقيقة:

هل أتى المساء؟

نظرتُ إلى خارج الحجرة وتابعت بصيص الكوة، وأشعة النهار فيها تنحسر شيئاً فشيئاً، وأجبت بغير وعي:

لا أدري!

لكن الحقيقة التي كنت أريد قولها: «ليته لا يأتي»!

في ذلك المساء، كان كل شيء يمر بطيئاً، الوقت، الأفكار، الأحلام الحزينة.

حتى الخوف كان بطيئاً كثير التفاصيل، يحاصرني من كل اتجاه، فلا أجد منه مهرباً، لا أكاد أفلت من إحدى الأفكار السود، وأتنفس بعض الهواء، حتى تعود ذات الفكرة لتجثم فوق صدري وكأنها بلا نهاية.

في وقت متأخر من الليل سمعنا حركة خارج الباب، وأصوات

هامســة لم أتبين تفاصيلها، انتفضتُ أنــا وورد، لم تكن أحد منا نائمة، كنــا نصطنع النوم لنهرب مــن أفكارنا أو حــوار يضاعف آلامنا، في تلك الظلمة الحالكة لم نكن نرى شــيئاً، لكننا نتبادل الخوف في صمت، إذا كانــت هيفــة هي من بالبــاب، فمع من تتحدث؟ لا بد أنهم اكتشــفوا أمرنا، لقد أخبرتنا عندما ذهبت أنها ســتأتي بمفردها، بالتأكيد هم جنود الجاشــنكير، كيف ســنخرج من هذا البيت؟ لا بد أنه ســيكون قبرنا بعد قليل، اقترب الصوت أكثر، إنه صوت هيفة لم يعد في ذلك شك، لكنها تتحدث همساً، لا بد أن الجنود يقتادونها لتدلهم على مخبئنا، ثوان وتجز سيوفهم رقابنا، وربما يحملون رؤوسنا لسيدهم ليتأكد من موتنا، الموت يطل من كل ركن في تلك الغرفة المظلمة.

انبثــق ضوء مصباح يتراقص من عند الباب الذي بدأ ينفرج رويداً رويــداً، وكأنه يتمزق، أطلــت اليد التي تحمل المصبــاح، كنا واقفتين نرتجف عن مدخل الغرفة، أمســكت ورد بملابســي كطفلة تلوذ بأمها في مواجهة الخطر، شــعرت بارتعاشها المكتوم، فحاولت التماسك كي لا أخذلهــا، بينما كنت أكثر منها هلعــاً، ضوء المصباح أصاب عيوننا بتشــوش شديد، لم نســتطع أن نفتح عيوننا لوهلة كي نعرف مَن القادم، لكــن المصباح أضاء نصف وجه كان يلتفت إلى الوراء ليســاعد أحداً علــى الدخــول، كانت هيفة، لكــن من غير الواضح مــن كان برفقتها، قبضــت ورد بكفّها على ذراعي، وكأنما تســتمد من جســدي الضعيف بعض الدفء لتواجه به ارتعاشها المنتفض.

دخلــت هيفــة وبــدا أن خلفها أحــداً، تعكس ملابســه البيض ضوء المصباح، لم أتبين هوية ذلك القادم، فقد كان المصباح موجهاً للأســفل لينيــر موضع الأقدام، استشــعرت بعضاً من الأمان، فلــو كانوا جنود

الجاشـنكير لمـا احتاجوا إلى أن تنيـر لهم هيفة موضـع أقدامهم، فهم يتحركـون في الظلام، وكأنهم «خفافيـش» تعرف طريقها جيداً، دخل الجسـد النحيل الملتف بالأبيض بسـهولة من البـاب المنفرج، واقترب خلف هيفة في بطء، بينما كانت ترفع المصباح فبدت الوجوه، وجوهنا المكفهرة، ووجوه القادمين المجهدة، كانت هيفة وخلفها الشيخة غازية التي ابتسـمت ابتسامة هادئة منحتنا بعض الأمان، عندما لمحت عيوننا الخائفة على وميض المصباح الواهن.

كانت الشيخة غازية آخر من أتوقع أن أراه في هذه اللحظات، فهي لم تكن راضية عما بدأته، فلماذا تأتي الآن، وماذا تريد منا؟؟ هل جاءت لتوبّخنـي، وتسـتعرض حكمتها في مقابل جهلـي وتهوري؟ أعلم أنني أخطأتُ وورطتُ غيري فيما لا قبل لهم به، لكن آخر ما أنتظره في هذا الموقف هو التوبيخ، لكنني لا أملك سـوى الصبر والانتظار، واحتمال كل ما يضعه القدر في طريقي، فمثلي لم تعد لديها رفاهية الاختيار.

ألقت الشيخة غازية السلام، وجلست لتلتقط أنفاسها، ووضعت هيفة المصباح في مكان بعيد حتى لا يرى ضوؤه في الخارج، منحنا نصف الظـلام الـذي خيم على الغرفـة فرصة لعدم تلاقـي العيون بوضوح، كنت شـغوفة لمعرفة أخبار ما جرى في بيت القاضي، وعندما وجهتُ سـؤالي إلـى هيفة أطرقت المرأتان وسـط صمت ثقيـل ضاعف قلقي واضطرابي، فعاودت السؤال، فجاءت الإجابة المؤلمة:

لقـد قتلـوا القاضـي عز الديـن بعد ضربـه ضرباً مبرحـاً، عقب اقتحامهـم الـدار، وقد رفض الهـرب أو قتال من اقتحمـوا عليه داره، وبعد أن انتهوا من جريمتهم ونهبوا محتويات الدار أضرموا النار فيه،

وخرجوا يطوفون المدينة يمثلون بجثمان القاضي ويحتفلون بنصرهم.

كأنما لسانها سكين يحزّ رقبتي كلما تحرك بتلك الكلمات، وكأنهم يمزقون جسدي أنا، ويمثلون بي في تلك الشوارع الكئيبة، أنا التي احترقت وليست الدار، أنا من تستحق هذا المصير، وليس ذلك القاضي الشجاع، ليتني ما قبلت الخروج، وأصررتُ على البقاء إلى جانبه ربما أخذوني أنا وتركوه.

انفجرتُ باكية، وقد بدأتُ أهذي بتلك الكلمات، حتى شعرت بيد حانية تحتويني وتهدهدني:

هدئي من روعك يا ابنتي، لكل منا مصير لا نملك منه فراراً، ولا يملك أحد تغيير القدر.

لم أجرؤ على النظر إلى وجه الشيخة غازية، لكنني استشعرت حنوها متدفقاً، يحتويني كحضن أم، فألقيت في حضنها بكل أثقال همومي وانتحبت:

أنا القاتلة، أنا من قتلت الرجل الوحيد الذي وقف إلى جواري، ليتني استسلمت لقدري وبقيت حتى الموت في الرواق، ليتني ظللتُ جارية في قصر السلطان، أو طفلة بلا قيمة تمرح في مروج بعيدة، ليتني ما خلقتُ أصلاً!

احتضنتني الشيخة غازية بقوة، وكأنها تقول لي «أتفهم ألمك أيتها الذبيحة». تواصل نحيبي زمناً طويلاً، ومرت برأسي تلك الأيام التي عشتها في بيت القاضي، موقفه مني ومساعدته لامرأة ضعيفة، تحديه للملك ولقاضي القضاة، شجاعته النادرة في مواجهة مقتحمي البيت،

وقراره بمواجهتهم وحيداً، لم أرَ يوماً شجاعة كتلك، لقد دفع ثمناً لخطأ لم يرتكبه، أنا من كان يجب أن تدفع الثمن.

أمسكتني الشيخة غازية من كتفي، ونظرت بعمق وحدّة في عيني، وكأنها تحولت في لحظة إلى شخصية أخرى غير تلك التي كانت عليها منذ دقائق، قالت بصوت صارم:

أفيقي من هذيانك، لا أحد يموت إلا بإذن الله، ولا تستطيع نفس أن تقدم أو تؤخر ساعتها المحتومة، أنت ونحن جميعاً في خطر الآن، ولا بد أن نتحرك بسرعة، وإلا سنكون صيداً جديداً لذلك الجنون الذي يجتاح المدينة، وقد كان القاضي أول ضحاياه، لكن ربما لن يكون آخر الضحايا.

أعادت كلمات الشيخة إلى رأسي المخاوف التي أسكتتها أحزاني على ما جرى للقاضي للحظات، فإذا كانوا فعلوا ما فعلوا بالقاضي لمجرد أنه ساعدني، فماذا يمكن أن يفعلوا بنا؟

تحدثت هيفة للمرة الأولى بعد كلماتها القاتلة، وطلبت منا جميعاً أن نستعد للرحيل عن البيت؛ لأنه لم يعد مكاناً آمناً للاختباء، وإذا كانت العيون لم ترصده في ذلك النهار لانشغال الجميع بما جرى في قلب المدينة، فربما لا يتحقق ذلك في الغد عندما ينتشر البصاصون في الأسواق وأطراف المدينة بحثاً عن الهاربين من بيت القاضي، ومن السهل رصد الحركة المفاجئة في هذا البيت المهجور.

كنت كالمغيبة، أتحرك بغير وعي أو إرادة، وكذلك كانت ورد، اقتادتنا هيفة والشيخة غازية خارج البيت، سرنا بحذر في الشوارع المظلمة، وعندما اقتربنا من «الدرّاسة»، رأينا على البعد دورية من

جنود العسس تسير في الشوارع الخاوية، بسرعة قالت هيفة موجهة حديثها للشيخة غازية:

لقد رأونا مثلما رأيناهم، ولن يجدي هروبنا جميعاً نفعاً، اذهبي أنت بخوند فرح وورد من هذا الزقاق الصغير، وستجدين على الجهة الأخرى طريقاً مختصراً في نهايته سترين جامع الحسين، وأنا سأشغل هؤلاء الجنود وأخبرهم أنكن بعضاً من فتياتي، وأنكن تخشين الجند.

همّت الشيخة غازية بالحديث، لكن هيفة رفعت يدها في حسم وبصوت باتر قالت:

غازية.. ليس لدينا وقت للجدل، اذهبي الآن، أنا أعلم أنهم يبحثون عني، وسيقبضون عليّ في أي وقت، لقد سقطت الجارية التي أعرفها في بيت القاضي في أيديهم منذ الظهر، ومن المؤكد أنها أخبرتهم تحت التعذيب أنني من تساعد خوند فرح وورد على الاختباء، اذهبن الآن وبسرعة.

صدمتنا مخاطبة هيفة للشيخة باسمها مجرداً، لكن الموقف لم يسمح لأحد بأن يتكلم، حتى الشيخة غازية حاولت أن تتكلم، لكن إصرار هيفة كان أقوى، فقالت مودعة لها:

ليكن الله معك، سأذهب بهما إلى.....

قاطعتها هيفة فجأة وقالت:

لا أريد أن أعرف، حتى لا يجبرونني على الاعتراف، اذهبي بهما إلى مكان آمن، وإذا قدر الله لي أن أنجو فسوف أعثر عليكن.. اذهبن الآن.. بسرعة.

بغيــر وداع، فارقتنــا هيفة نظرت إليّ وهي تتحــرك باتجاه موكب جند العســس، بينما كنت ألتفت إليها والشــيخة غازية تجرني جراً نحو الزقاق المظلم، أهكذا كُتب عليّ أن أودع من يســاعدونني؟ أن أمنحهم فقــط لعنتي، ليواجهوا بســببي مصيراً مظلماً، أن أســير أنا في دروب مجهولة، نحو قدر يطاردني بغير رحمة؟!

كانت دموعي تتســاقط فــي صمت على تراب الزقــاق المظلم، لا أسمع سوى لهاث صدورنا ونحن نهرول، طلباً للنجاة أم لملاقاة قدرنا؟!

لستُ أعرف.

(31)

القاهرة في ديسمبر 2010

لـم يعـد لدي شـك الآن أنني أحب ريم، أشـعر بأنهـا تبادلني نفس الإحسـاس، لكن شـيئاً يقف بيننا، يحـول دون اقترابنـا واعترافنا، أنا مازلت أسـير عالمي الغامـض، وترددي اللعين، صحيـح أنني بدأتُ أتلمس طريقي نحو اكتشاف ذاتي، واستعادة روحي، لكنني لست مستعداً للحب، أو بتعبير أدق ما يرتبه الحب من التزامات، لم أكن متعجلاً في السـعي نحو تجربة عاطفية جديدة وأنا لاأزال أستكشـف عالم روحي، أبحـث عن أشـياء لا أعرفها بعد، وأظـن ريم لم تكن متشـجعة أيضاً للاقتراب أكثر، كانت مثقلة بما لديها من هموم ومشـكلات، أزمتها في الجامعة، نشاطها السياسي، رغبتها في استعادة حقها، أظنها كانت هي الأخرى تبحث عن نفسها، كان كل منا يسير في طريق مختلف، نذهب في اتجاهات متناقضـة أحياناً، وربما تتقاطع أحياناً أخرى، أنا أنغمس فـي ذاتي، أغـوص أكثر فأكثر في البحث داخلـي، وهي تنجرف بقوة نحـو تيار الحياة العامة، بكل تعقيداتها ومشـكلاتها، كلانا يهرب، لكن بأسـلوبين مختلفين، وفي اتجاهين متباينين، كلانا يبحث عن شـيء لم يجـده بعد، ولا يعلم أين يجده؟ لكن ما أنـا متأكد منه أننا عندما نجد ما نبحث عنه سيكون شيئاً عظيماً.

في تلك الفترة صارت لقاءاتي مع ريم شبه يومية، ترافقني في رحلة البحث عن حقيقة تلك المرأة الغامضة التي تطاردني في الأوراق وفي الأحلام، وباتت تسكن في رأسي لساعات طويلة، تتزاحم في حضورها عشرات الأفكار وتختلط في مواجهتها مشاعري، لكنني على يقين الآن بأنها موجودة وتربطني بها رابطة ما، لست أعلمها، لكنني أكثر حرصاً على التوصل إلى أي شيء يقربني من فهم تلك الرابطة، صرتُ أفكر فيها طويلاً عندما أخلد إلى النوم، علّها تأتيني في أحلامي، فما يضنّ الواقع به، ربما تمنّ به الأحلام.

توغلتُ أنا أيضاً في عالمها، لم يكن ذلك مجرد اهتمام بريم وإنما أيضاً اهتمام بذلك العالم الذي بدا لي يتشكل بعيداً عن العيون، رغم أنني من نفس الجيل، ربما أكبر قليلاً، لكن كانت هناك أشياء لم ألحظها من قبل، كنت جزءاً من عالم مختلف، بينما كان يتشكل في الجوار عالم مختلف، أبطاله شباب في أواسط العشرينيات، أقل أو أكثر قليلاً، يبدو بعضهم للوهلة الأولى كمن يبحث عن طريقه في هذه الحياة، يتخبط في دروبها، بين الفن والثقافة، بين السياسة واكتشاف عالم الأفكار الكبرى، معظمهم من أبناء طبقة متوسطة تعاني أوضاعاً صعبة، بفعل الضغوط الاقتصادية وتراجع أهميتها ودورها لصالح اتساع الطبقتين الأعلى والأدنى، كانت تلك الطبقة تصارع من أجل البقاء، هؤلاء الشباب جزء من ذلك الصراع، ألتقي يومياً بشباب على المقاهي، وفي ندوات الاحتفاء بالكتب الجديدة ومعظمها روايات لأسماء شابة، العروض المسرحية أو الندوات الفنية، وجوه تتكرر في أكثر من مناسبة ومكان، معظمها لا يترك أثراً في الذاكرة، اللهم إلا بمظهره الغريب أحياناً، أو تعليقاته المفاجئة في أحيان أخرى، لكن في كل الأحوال كانت هناك

أشــياء مشــتركة بين معظم تلك الوجوه، الإحباط الذي يلامس حواف الغضب، والاندفاع الذي يولد رغبة عارمة في فعل أي شيء ولو اتسم بالجنون.

كانت الجلسات المتكررة على مقاهي وسط البلد تتحول تدريجياً إلى ما يشبه حلبة ملاكمة، تتصارع على أرضها الأفكار والآراء، لكنها لا تنتهــي إلى منتصر أو مهزوم، مجــرد نزيف وصراخ، الأخبار تتناثر هنــا وهناك، مــن الغضب على مظاهر التزويــر الفاضحة للانتخابات البرلمانية، إلى مشاكســات حول نتائج مباريات كرة القدم، كان الجميع يتلهــى بأخبار ما يجري حولنا ربما ليخفي صراعاً أكبر يدور بداخله، إلـــى أن جاءت أخبار ما يجري فـــي تونس من احتجاجات عارمة ضد السلطات هناك والمعروفة بقسوتها وإحكام قبضتها على الأمور، لكنها بـــدت عاجزة أمام التظاهرات التي تجتاح البلاد، وأشــعلت شــرارتها محاولة شـــاب يدعى «محمـــد البوعزيزي» الانتحـــار اعتراضاً على صفعة وجهتها له ضابطة شرطة، تحمس الشباب كثيراً لما كان يجري هناك في تونس، وكانت ريم ترى أن مصر مليئة بآلاف وربما ملايين «البوعزيــزي»، وأن ما يجري أكبر من مجرد حركة احتجاج مؤقتة، حاولت أن تجرّني إلى حوارها مع الشــباب في تلك الليلة، لكنني كنت في عالم آخر، لا يرى في كل ما يجري ســوى مظهر لعبث يتوالد كل يــوم، يطل علينـــا ويحاصرنا بوجوه مختلفة، قمت فجأة وبلا اســتئذان انصرفــت تـــاركاً خلفـــي الجميع يتبادل نظرات الدهشـــة من ســلوكي المفاجئ!

كل شـــيء في حياتي كان مشوّشـــاً بشدة، فلم أعد قادراً على التفكير فيما أريد، الشك يتسلل إلى عقلي وروحي من كل اتجاه، حتى أصبحت

أشــك في أنني أريد شــيئاً من تلك الحياة، لا أستطيع أن أكون رأياً فيما يجري حولي، تحولت في تلك الفترة إلى «مفعول به»، يســعى كل من حولــي إلى اجتذابي نحوهم، وأنا لا أعــرف أين أريد أن أكون، وربما جعلتني تلك الحالة عصبياً بصورة غير مسبوقة، حتى إنني كنت أتفاجأ مــن ردة فعلــي العنيفة على أمور اعتدتها في حياتــي اليومية، ولم تثر أعصابي مثلما كان يحدث في تلك الآونة.

عقب مشادة متكررة، فوجئت باستدعاء من رئيس التحرير، والذي بــدا في ذلك اللقاء – على غير المعتاد – لطيفاً معي، أخذ يفتح أحاديث ودية بعيدة عن اهتمامات العمل، وكأنه يمهد الســبيل نحو نقطة معينة يريــد الوصول إليها بطريق غير مباشــرة، ســألني بعدهــا عن عملي ومــدى رضائــي عنه، ولما كنت أعلم أن العمل فــي مثل تلك المواقف هو آخر ما يقلق رؤســاء التحرير، فقد ســألته بشــكل مباشر عن سبب اســتدعائي، فأحــس الرجل بأنني أفقــد أعصابي ســريعاً، فتطرق إلى الموضوع مباشرة:

بلغتني معلومات غريبة في الفترة الأخيرة عنك، وطبعاً لم أصدقها، فأنا أعلم أنك شخص متزن.

أية معلومات؟

ســألت باســتغراب، وبقليل من الحدة، فلم يكن هناك بدّ من الدخول مباشرة في الموضوع والكفّ عن المراوغة:

معلومات أمنية عن بعض لقاءاتك مع شــباب ليســوا فوق مســتوى الشبهات، ووصلت لمشاركتك في إحدى تظاهرات المعارضة.

تراجعــت في مقعدي أمام مكتبه، وقد انتابتنـــي حالة من الارتياح، فتلك أمور لم تعد تقلقني، وكنت على يقين بأنها سرعان ما ستصل إليه، بـل تعجبت أنه تأخر في الحديث معي بشـــأنها، وقد قررت أن أخوض اللعبة حتى نهايتها:

وهل هناك ما يمنع أن يكون لي موقف سياسي محدد، حتى لو كان معارضاً؟!

نظر الرجل إليّ بدهشـــة، وقد فهم أنني أراوغ، لكن يبدو أنه رفض الاستســـلام مبكراً، واستهوته اللعبة، فقد كان كل منا يعلم ما سـيقوله الآخر سلفاً:

بالتأكيـد لا يوجـد مـا يمنع وجود موقـف أو حتى انتماء سياســـي للصحفــي، لكــن عندما تكــون صحفياً فــي جريدة قوميــة أي مملوكة للدولــة، فهذا يحتم عليك أن تحتفظ بآرائك السياسـية لنفسـك، حتى لا تؤثر في حيادك في عملك.

معــك كل الحق، نحن مملوكــون للدولة وليــس للحكومة، والدولة فيهــا كل الاتجاهــات، والمفروض أنها تعبر عــن كل التيارات، وليس المؤيدين فقط، أليس كذلك؟!

لم أنتظر أن يرد، فأردفت:

والظاهر أن حضرتك نسيت أني الآن لا أعمل محرراً سياسياً، وإنما في القسـم الثقافــي، يعني أكتب عن القصــص والروايات والمعارض الفنيــة والآثار، حاجات لا تهم الحكومة ولا يزعجها موقفي السياســي فيها.

اعتدل الرجل في مقعده، واكتسى وجهه بجدية صارمة، وبدا كأنه مل فجأة من لعبة المراوغة والجدل الذي لن يفضي إلى شيء:

أنت تعلم أن كل شيء يمكن تلوينه، حتى أبراج الحظ، ولا داعي لمثل تلك المراوغات، فأنا وأنت نفهم بعضنا جيداً.

وما المطلوب مني إذاً؟

يبدو أن أعصابك متوترة بعض الشيء، لذا قد يكون من المناسب أن تبتعد عن جو العمل قليلاً.

تريدني أن آخذ إجازة؟

لا يمكن إجبارك على أخذ إجازة، ولكن كما تعلم هناك قمة اقتصادية عربية ستقام في «شرم الشيخ» خلال الأيام المقبلة، ونحتاج إلى فريق كبير هناك لعمل العديد من الموضوعات عن النهضة السياحية والاقتصادية في المدينة التي تستضيف القمة لنشرها بالتزامن مع القمة، وقد اخترتك لتسافر قبل عدة أيام من انعقاد القمة لتساعد زملاءك هناك في التغطية.

ولكن هذا ليس اختصاصي.

الصحفي يستطيع أن يكتب عن كل شيء... أليس كذلك؟!

أدركت أن هذا الحوار لا يمكن أن يستمر بتلك الصورة، فهو يعلم أنني إذا رفضت سأكون ممتنعاً عن العمل، وإذا قبلتُ سيورطني في أمور قد لا أكون راضياً عنها، وفي كل الأحوال سأكون خاسراً، فكرتُ في الانسحاب، لكن شيئاً بداخلي جعلني أستبعد تلك الفكرة، وشعرتُ

بأنني قد أكون فعلاً بحاجة إلى الابتعاد عن القاهرة التي بدت خانقة بكل أحداثها وضغوطها وتوترها، لم أرد الموافقة مباشرة، وطلبت من رئيس التحرير مهلة قصيرة للتفكير قبل إبلاغه بقراري، منحني مهلة حتى صباح اليوم التالي، مختتماً كلامه بأنه واثق من موافقتي، في تلك اللحظة وجدت اتصالاً من ريم فاستأذنت في الانصراف، وكان الحوار أو بالأحرى المراوغة قد انتهت، فابتسم رئيس التحرير ابتسامة باهتة وأشار بهدوء نحو باب الخروج.

اتفقت وريم على اللقاء في المساء، طوال الفترة التي قضيتها حتى موعد اللقاء، وحتى وأنا في طريقي إليها كنت مشغولاً بالتفكير في قراري، كنت مشوّشاً فعلاً، جانب مني يحثني على الموافقة، فأنا بحاجة فعلاً إلى تغيير جوّ، لكن الموافقة تعني أنني أقبل بقواعد اللعبة، وبالدور الذي يحدده رئيس التحرير لي، كما أن الرفض ربما يؤدي لمزيد من المشكلات، كنت أعلم أن لكل قرار مكاسبه وخسائره، لكن لا بديل عن اتخاذه.

وعندما التقيت ريم في وسط البلد، كانت بقايا الحيرة التي يموج بها عقلي بادية على وجهي، بادرتني بعد الجلوس مباشرة عما يشغلني، حكيت لها، فضحكت بصورة غير متوقعة، وكلما ازدادت دهشتي، علت ضحكاتها، واستمر هذا الموقف لفترة، حتى بدأ يثير غضبي، فكفّت عن الضحك، معتذرة، لكنها واصلت كلامها المتقطع بضحكات مكتومة:

يبدو أنك فعلاً أصبحت شخصية درامية، تبالغ في كل شيء، وكأنك مقدم على قرار مصيري، فيه حد يرفض يسافر «شرم الشيخ»؟!

رئيس التحرير بيفسّحك، أنت المفروض تشكره، الناس تدفع آلاف الجنيهات وحتى الدولارات كي تزورها!!

شعرت بالغيظ من تسطيحها للأمر، وهممت أن أشرح لها رأيي، فقاطعتني:

والله فاهمة، لكن لا أرى أن الموضوع يستحق كل هذا التفكير، صحيح رئيس التحرير يملك قرار إرسالك في هذه المهمة، لكنه لا يملك أن يجبرك على أن تكتب ما لا تريد.

أصابني رأيها بغيظ حقيقي، فرغم بساطة منطقها، لكنه كان حقيقياً، فرئيس التحرير يريد أن يبعدني بتلك المهمة، وأن يحرجني بنوعية عمل لا تتناسب مع شخصيتي وتوجهي، وهو أيضاً يملك قرار النشر من عدمه، ولكنه لا يملك إجباري على أن أكتب ما يريده هو، يستطيع فقط أن يمنعه من النشر، وطالما أراد أن يلعب معي تلك اللعبة، فسوف ألعبها، لكن بقواعدي أنا.

شعرت بارتياح مفاجئ لتلك الفكرة، بل وانتابتني سعادة افتقدتها منذ فترة بعيدة، وقررت ألا أنتظر حتى الصباح لأبلغ رئيس التحرير بقراري، فاتصلتُ به على الفور، ورد الرجل سريعاً وكأنه كان ينتظر اتصالي، أبلغته موافقتي، بل وشكرته بصدق على تلك الفرصة، بدا الرجل متفاجئاً من حالتي، التي جاءت على عكس ما كنت عليه قبل بضع ساعات فقط، ولا بد أنه ظن أني صرتُ مجنوناً حقاً، ولم يفت الرجل أن يكرر – بغرور هذه المرة – أنه كان واثقاً من ردي، فلم أشأ أن أفسد عليه انتصاره الصغير، فلحظات الزهو تكون أحياناً أنسب الأوقات لتوجيه ضربة إلى خصمك، وهو ثمل بنشوة نصره!

أنهيتُ المكالمة، وقد ظننتُ أنني جننتُ فعلاً، فالأمر حقيقة لم يكن يستحق كل ذلك الارتباك والتفكير، وبدأت أنظر نحو ريم، التي كانت تغالب في تلك اللحظات ضحكاتها، وتحاول أن تكتمها بجهد حقيقي وهي تنظر إليّ كطفل مهزوم في لعبة، ويرفض الاعتراف بهزيمته، ظللتُ أنظر إليها في صمت، وبدأ وجهي يحتقن، وفجأة انفجرنا سوياً في ضحك هستيري لفت أنظار كل من كانوا بالمقهى!

كم أحبّ تلك الإنسانة، كم أشعر معها بالراحة والدعم.

وبعد أن انتهينا من جلستنا، سألتها ونحن نغادر المقهى باتجاه «ميدان التحرير»، سؤالاً جاداً:

تفتكري أنا اتجننت فعلاً؟

لم أنتظر إجابة، فقد انفجرنا في موجة ضحك هستيرية جديدة، جعلتنا كمجانين حقيقيين في الشارع، ينظر إلينا الناس بدهشة، ويشاركنا بعضهم الضحك.

(32)

القاهرة في المحرم 709هـ – يوليو 1309م

طالت رحلتنا عبر الدروب والأزقة المظلمة، كانت الشيخة غازية تدور بنا في طرق مجهولة، هرباً من العيون وجند العسس، وطلباً للوصول إلى المكان الذي كانت تقصده ولا نعلمه، وبعد فترة طويلة من الهرولة، توقفت ورد وقد أوشكنا على الهلاك، وسألت الشيخة غازية بكلمات متقطعة عن وجهتنا، فأجابت الشيخة وهي أكثر منا تعباً ولهاثاً، إن المكان اقترب، فهي تقصد «تكية الدراويش».

واصلنا الهرولة، وعندما وصلنا كانت التكية تقبع في ظلام واضح، وبصيص ضوء واهن يطل من بعض الغرف العليا، طرقت الشيخة غازية الباب بحذر وهي تتلفت يمنة ويسرى، خوفاً من أن يلمحنا أحد، كان الفجر يوشك أن يبزغ، وقد بدأت بعض الحركة تدب في المكان، سأل صوت من خلف الباب عن الطارق، وعندما أخبرته، فتح الباب، فأطلّ وجه رجل كهل، حيته الشيخة غازية بوقار، وسألته عن «قطب

العارفين»[12]، فاستأذنها في إبلاغه بحضورنا، كان الرجل ينظر إلينا في ريبة، وكانت هيئتنا بعد ساعات من الهرولة في الشوارع والخوف من المجهول تبدو حقاً مذرية وتدعو للريبة، لكنه في النهاية دخل إحدى الغرف وعاد ليقودنا إليها.

بدت التكية فقيرة متقشفة في كل شيء، الباب الرئيس يؤدي إلى قاعة تتوسط التكية، وتتفرع منها المداخل المؤدية إلى الغرف التي عرفت فيما بعد أنها غرف المتصوفة المعتكفين، أو ما كان يطلق عليهم الدراويش، وقد دخلنا إلى إحدى تلك الغرف لنلتقي «قطب العارفين»، ولم أكن أعلم حتى تلك اللحظة هل هذا اسم الرجل أم لقبه، ومنذ دخلنا، لم تتفوّه الشيخة غازية بكلمة، كانت صامتة يكسو وجهها خشوع عميق رغم الإجهاد، وكأنما هي في حضرة مكان شديد التقديس، أو توشك على مواجهة عظيم يتضاءل وجودها في حضوره.

تقدمتنا الشيخة وألقت بالسلام على الرجل الجالس في الغرفة بيده مسبحة خشبية طويلة، جلست على مقربة من الرجل الذي لم يكن عجوزاً أو مسناً، وإن بدت ملامحه أكبر كثيراً من سنه الحقيقية، لكنها بدت أيضاً مضيئة رغم الضوء الواهن في الغرفة، أشار الرجل في صمت إلى خادم التكية بالانصراف، وأشار لنا بالجلوس، كان الجو غامضاً بالنسبة إليّ ولورد، فلم ندخل يوماً تكية للدراويش، وكانت كل نظرتنا لهم أنهم أناس مجانين يهذون بكلمات غامضة، ورغم أن تعاملي مع الشيخة غازية قد غير كثيراً من تلك الفكرة، إلا أن الغموض الذي

---

(12) هو ابن عطاء الله السكندري الفقيه المالكي والقطب الصوفي، أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية، (658هـ – 1260م/ 709هـ – 1309م). لقب بـ«قطب العارفين» و«ترجمان الواصلين» و«مرشد السالكين»، توفي بالمدرسة المنصورية في القاهرة سنة 709هـ ودفن بمقبرة المقطم بسفح الجبل، ولايزال قَبره مَوجوداً إلى الآن بجبانة سيدي علي أبو الوفاء تحت جبل المُقطم. من الجهةِ الشرقية لجبَانة الإمام الليث. وقد أقيم على قبره مسجد.

كان يحيط بالصوفية وأفعالهم وأقوالهم لم يتبدد من رأسي تماماً، وكان واضحـاً من الاحترام والتبجيل الذي تبديه الشـيخة غازية في حضرة ذلك الرجل أن له مكانة كبرى، روت الشـيخة غازية للشـيخ المعتكف قصتنا، كان يستمع في صمت ويهز رأسه، بينما أصابعه لا تتوقف عن التسـبيح، كأن للرجل حضورين، أحدهما ظاهر بجسده الموجود معنا في الغرفة، والثاني هائم في ملكوت آخر لا يُرى.

انتهت الشيخة غازية من قصّ ما جرى لنا حتى لحظة وصولنا إلى التكية، وقالت إنها لم تجد ملاذاً تلجأ إليه بتلك المرأتين المسـتضعفتين المطاردتين سوى التكية، فردّ الشيخ بعد طول صمت:

يفعل الله ما يشاء.

كنت أحاول أن أتكلم، لكنني لم أجد كلمات ألقي بها في هذا الموقف، فسـألت الشـيخة غازية شـيخها الوقـور، وكانت تخاطبـه دوماً بلقب «مولانـا»، إن كان يـأذن لنا جميعاً بالإقامة فـي التكية لحين أن نتدبر أمرنا، فأشـار لهـا بالإيجاب فقامت شـاكرة، وقمنا نحـن وراءها في صمت، لكن قبل أن نخرج من الغرفة، اسـتوقفها الشـيخ بسؤال أدخلنا في حيرة لا تنتهي:

أما آن لقلبك أن يصفو لأختك «هيفة»؟!

سـقط السؤال علينا كضربة سـيف قاصمة، وتغير له وجه الشيخة غازية، التي تهاوت نظرتها إلى الأرض، وقالت وهي تنسحب في ممر التكية الغارق في الظلمة:

يفعل الله ما يشاء يا مولانا.

لم يكن الموقف يحتمل طرح ما يتفجر في رأسي من أسئلة، من تلك الشيخة، وما سرّها؟ هل حقاً هيفة أختها؟ كيف يجتمع الضدان، ضامنة المغاني، وشيخة الصوفيات؟ أكلّ ما يجري حولي صدفة، أم أن هناك أمراً ما أكبر مني وأعمق من أن أحيط بتفاصيله؟ مَن ذلك الرجل الذي يبدو كأنه يحمل هموم العالم كلّه في غرفته الصغيرة المتهالكة؟ لماذا تتقاذفني المقادير بتلك الصورة؟

حتى الأمكنة وتحولاتها لا ترحمني من سياط الأسئلة، من بيت فقير إلى قصور الأمراء والسلاطين، إلى بيت هانئ أنا سيدته المتوجة، ثم إلى منفى إجباري وكأن الأرامل والمطلقات مصابات بالجذام يحتجن إلى حماية الناس منهن، ثم إلى دنيا المغاني والخواطئ، ومنه إلى بيت قاض جليل، إلى عوالم مهجورة تحمل ذكريات بعيدة لأناس اختلفت مصائرهم وتباين حاضرهم عن ماضيهم، وها أنا الآن أدخل مرغمة إلى تكية للدراويش، عالم مجهول، لم أتخيل يوماً أن أكون بين هؤلاء المجاذيب، أسرار تتكشف كل يوم، أناس يظهرون في حياتي ثم يختفون، لا يتركون وراءهم سوى أسئلة والمزيد من الغموض حول ذلك القدر المحدق بي من بعيد، أكاد أراه يسخر مني، يدخلني تجربة تلو أخرى، يلهو بألمي، يمنحني أملاً في النجاة، ثم يضعني على هاوية يأس سحيق، كم أنتظر تلك اللحظة التي أواجه فيها ذلك القدر المراوغ، لتأتي سريعاً فقد طال انتظاري.... وألمي.

ألقيت وورد جسدينا المنهكين على أرضية الغرفة الفقيرة التي أخبرتنا الشيخة غازية أنها ستكون ملاذنا خلال الأيام المقبلة، حتى تتدبر أمرنا، فلم تكن تدري ماذا تفعل، وكل مكان الآن غير تلك التكية يمثل خطراً علينا، فبالتأكيد عيون البصاصين تجوب كل مكان للبحث

عنا، أخبرتنا أيضاً أنها ستضطر للعودة إلى «رواق البغدادية»، حتى لا يؤدي اختفاؤها المفاجئ إلى لفت الأنظار، وربما تحاول بطريقة أو بأخرى أن تعود إلى التكية تحت دعوى الاعتكاف لتكون قريبة منا، وطلبت منا أن نلجأ إلى الشيخ ابن عطاء الله إذا ما احتجنا شيئاً.

همّت الشيخة غازية أن ترحل دون أن تقدم لنا تفسيراً لعشرات الأسئلة التي تتفجر في رؤوسنا دون أن تجد إجابة، بدت وكأنها مريضة أو أن هموماً لا تُحتَمل تحاصرها هي الأخرى، كنت أعرف أن امرأة مثلها لا تهوى الإفصاح، وإنما تناسبها العزلة، والبقاء في صمت بعيداً في عالمها السماوي، لكن ما حدث في غرفة الشيخ ابن عطاء الله لم يكن يحتمل الانتظار، استوقفتها وسألتها مباشرة:

هل حقاً هيفة أختك؟!

اتجهت بوجهها نحو السماء التي بدأت في تلك اللحظة تفصح عن ملامحها بعد طول اختباء وراء ظلمة الليل، كانت كمن يستعيد ذكرى بعيدة، أو يغوص في أعماق داخله، زفرت ولم تلق سوى بكلمة واحدة لا تروي عطشاً:

نعم.

كان صمتنا أقوى من كل الأسئلة، أردنا أن نعرف المزيد، لكنها كانت قد اتخذت قرارها بالصمت، ولم يكن أي منا يملك القدرة على أن يدفعها لحديث لا تريده، انصرفت في هدوء، بينما كانت صوت أذان الفجر يتردد في جنبات المدينة الهاجعة، رفعت وجهي للسماء، التي كنت أشعر بأنها تخلت عني، وتركتني أواجه مصيري، ورغم تعبي وإرهاقي، لم أجد سواها ملجأ وملاذاً.

في ظهر ذلك اليوم استيقظت وورد بعد نوم مكدود من عناء اليوم والليلة السابقين، وعندما جلسنا صامتتين في مواجهة بعضنا البعض، حاصرتنا كل الأحزان التي وقعت لنا منذ طفولتنا، كنت وورد نتبادل اجترار أحزاننا وآلامنا بكلمات تخشى أن تعانق الشفاه، وأخيراً وجدت في نفسي الشجاعة لأتكلم:

قررت أن أنهي مأساتي بيدي، لم يكن أمامي سوى طريقين، الاستسلام للموت أو مقاومة الظلم، وقد اخترت الطريق الثاني، لكنه لم يقدني في النهاية سوى إلى الطريق الأول الذي كان ينبغي أن أسلكه من البداية.

بدا الاضطراب المفاجئ على وجه ورد، واحتقنت ملامحها بشدة، واستجمعت نفسها لتتكلم، كان ما فهمته من كلامي مزعجاً لها بشدة:

أنت قبل كل شيء امرأة مسلمة، ولا يمكن أن تفكري في مثل هذه الأشياء.

فهمت ما ذهبت إليه، ولم يكن بعيداً عن عقلي في كثير من الأحيان، لكنني كنت أجبن من أن أفعله، قلت لها في يأس:

لقد قررتُ أن أذهب بنفسي لقصر الجاشنكير وأسلم نفسي هناك، حتى لا تتسع دائرة اللعنة التي تصيب كل من حولي.

لم يقل انزعاج ورد، وإن هدأت ملامحها بعض الشيء باستبعاد فكرة إقدامي على قتل نفسي:

وهل تتصورين في هذا الجنون حلاً لمأساتك، هل تتصورين أن الجاشنكير يريد الآن قتلك، إنه يعلم الآن أن موتك راحة لك، وهو أذكى

من أن يمنحك تلك الراحة، إنه لا يريد سوى إذلالك، ولسوف يفعل إن أنت استسلمت.

لكنني لم أعد أستطيع المقاومة، وكل خطوة أخطوها تسقط دونها أرواح بريئة، ويتعذب أناس كل جريمتهم أنهم ساندوني في محنتي.

لم تتراجع ورد كعادتها أمام دموع ضعفي التي بدأت تنهمر، وبدت في تلك اللحظة أقوى مما تخيلت يوماً:

أظنك كنت تدركين عندما اخترت السير في هذا الطريق أنه لن يكون مفروشاً بالورود، وتوقنين أيضاً أنه لا تموت نفس إلا بإذن الله، لكن ربما ما لا تدركينه أن استسلامك في هذه اللحظة سيكون خيانة لكل من ساندوك، ستخونين دم القاضي عز الدين، وعذاب هيفة، وتضحية الشيخة غازية والشيخ ابن عطاء الله، ستخونينني أنا التي اخترت أن أكون إلى جوارك وربما تكون حياتي الثمن، ستخونين زوجك وابنك اللذين من أجلهما قررت أن تنتقمي ممن ظلموك، ستخونين حتى نفسك التي رفضت أن تكون مجرد امرأة مهملة في «رواق البغدادية» تعيش وتموت دون أن يتذكرها أحد، أرجوك يا أختاه، لا تخونينا جميعاً وتخوني نفسك.

كانت كلمات ورد تصدر من أعماق سحيقة، تنطلق منها لتستقر في داخلي فتحدث تأثيراً غامضاً، لم أتخيله يوماً، فلم أكن أتصور أن تكون تلك الصديقة الرقيقة الهشة أحياناً، هي سندي الصلب في لحظة الانكسار، أن تكون تلك الفتاة التي لم تعرف سوى العزف والخدمة في القصور كجارية هي كتلة اللهب التي تنير حياتي، وتمنحني القدرة على السير في طريقي المجهول، لم أستطع الرد سوى بدموعي، التي

لم تكن في تلك اللحظة دموع استسـلام أو ضعف، وإنما دموع عرفان وامتنان لم أشعر بهما يوماً تجاه إنسان.

احتضنت ورد بكل ما أحمله من حزن وألم وقلق، أحتضنها، وكأنني ألوذ بها من نفسي ومن ضعفي، تعانقت دموعنا، كم أحب هذه الإنسانة، وكم أشكر الله على وجودها إلى جانبي في تلك اللحظة، وكما أخشى أن أحُرم منها، في تلك اللحظة التي كنت في أشد الاحتياج لوجودها معي، هالنـي مجرد التفكير في أن أفقدها، لكن صوتاً تردد فجأة في داخلي، أصابني بفزع، حتى إنني لم أستطع حتى مجرد التفكير فيه.

(33)

القاهرة، يناير 2011

في ليلة السفر إلى شرم الشيخ، لم أستطع النوم، ليس قلقاً من تلك المهمة الغريبة التي جاءت على غير انتظار، وإنما شغفاً بمتابعة ما كان يجري في تلك الليلة المثيرة، بعيداً هناك في تونس، في تلك الليلة فر زين العابدين بن علي من قصره تحت ضغط ثورة شعبه، أنباء متضاربة كانت تأتي من كل اتجاه، لا أحد يعرف حقيقة ما يجري، لم يصدق أحد أن الرئيس قد يهرب، لم يتخيل أحد أن الأمر يمكن أن يكون بتلك السهولة، هل كان الرجل ديكتاتوراً من ورق، أم أن أساطير القوة والسيطرة كانت خدعة كبيرة سرعان ما تهاوت مع أول هبّة غضب؟!

في الصباح عندما اتجهت إلى المطار، لم يكن من حديث للناس سوى ما جرى في تونس، الكل مندهش، يبدو أن السياسة العربية اكتسبت طابعاً دراميا، جعلها أخيراً تستحق المتابعة، لكن كل التعليقات تسأل وماذا بعد؟ هل يمكن أن يتكرر ما جرى في تونس هنا في مصر؟! بعض الزملاء أخذوا يتناقشون حول الإجابة، وكالعادة اختلفوا، لكن أحد الزملاء ممن كان ينظر إليهم على أنهم مطلعون على بواطن الأمور، قال في جملة واثقة «مستحيل، مصر مش تونس»، حاسماً

بذلك كل الأسئلة، ومغلقاً الباب أمام أي اختلاف، ظلت تلك الجملة ترن في أذني طويلاً، «مصر مش تونس»، «مصر مش تونس»، «مصر مش تونس»، وعندما قررت أن أسأل زميلنا المطلع عن سبب يقينه، دهمني على الفور وجه الضابط الذي حقق معي في معسكر الأمن المركزي، للمصادفة كان متجهاً هو الآخر إلى شرم الشيخ على نفس الرحلة، سلم علي بحفاوة، وكأننا أصدقاء، وجدته أيضاً يسلم بودّ غير معهود على زميلنا «المطلع»، آثرتُ الصمت، وتشاغلتُ بقراءة صحف الصباح التي لم تستطع مواكبة خبر الساعة.

في «شرم الشيخ»، عالم لا ينتمي إلى ذلك الذي تتركه على بعد خمسين دقيقة بالطائرة، إنها حقاً «مدينة الرئيس»، كل شيء فيها محسوب بدقة، من تخطيط شوارع المدينة وتوزيع أراضيها لإقامة الفنادق والمنتجعات الفارهة، إلى اختيار ألوان الواجهات وسيارات التاكسي الحديثة، كل شيء هنا ينضح بحيوية وفخامة مثيرة، لكنني دوماً أشعر بأن ما أراه ليس سوى واجهة المسرح، كنت شغوفاً دوماً لمعرفة ما يجري في الباحة الخلفية لتلك المدينة التي تبالغ في إظهار زينتها، كنت على يقين بأن قصصاً حقيقية تستحق أن تروى تدور خلف تلك الستائر المخملية، ولما كنت خارج اهتمام فريق العمل، الذين كانوا يعلمون طبيعة المهمة وملابسات إضافتي لفريق العمل بها، فقد كان لديّ متسع من الفراغ يمكنني من التعرف إلى المدينة التي لا تبدو على السطح، أو «شرم الشيخ التي لا يعرفها أحد».

في المساء، كانت المدينة تكتسي رداء البهجة بألوان شتى، على «خليج نعمة» تلتقي اللغات واللهجات، ترقص رقصة مبهجة، على موسيقى شرقية وغربية، كان الجو جذاباً، لكنني شعرت بأن ذلك الوجه

الملون المصطنع للمدينة ما هو إلا قناع تريد أن تبدو به أمام زائريها، المطاعم الفاخرة، المقاهي ذات المقاعد الأنيقة، الجلسات الهادئة تحت أضواء الشموع، كلها مظاهر لحياة معدة سلفاً، كصالون بيت جاهز لاستقبال الضيوف دائماً، متأنق بتكلف، لكنه ليس البيت الحقيقي الذي أتطلع لرؤيته، سألت أحد العاملين في الفندق عند عودتي عن مكان شعبي يمكنني أن أسهر فيه، فدلني على «السوق القديم»، بداية «شرم الشيخ» الحقيقية، قبل أن تكون مدينة ذات خمس نجوم، المقاهي الشعبية تضفي على المكان طابعاً مصرياً خالصاً، غير تلك المقاهي الأوروبية المنتشرة في «خليج نعمة» السياحي، هنا تسمع لهجات أبناء الصعيد وبحري ومدن القناة، وليس الفرنسية والإنجليزية بلكناتها المتعددة، على الرغم من أن كثيراً من الأجانب يجوبون المكان، لكن الطابع المصري كان طاغياً، رائحة الشيشة ودخان «سلوم» لا تعطي لرائحة التفاح الصناعي مجالاً لمنافسة، أصوات الطاولة والدومينو وقهقهات العمال الجالسين يتابعون مباراة ساخنة بين اثنين من زملائهما هي الموسيقى الحقيقية التي يصدح بها المكان.

وجوه الجالسين في أمسيات الاستراحة بعد انتهاء العمل النهاري الطويل تبدو مختلفة عما كانت عليه في الصباح، بعض تلك الوجوه عرفتها، هذا هو سائق الفندق الذي اصطحبنا من المطار، وإلى جواره أحد موظفي الاستقبال، وآخر من الأمن، ورابع من خدمة الغرف، يبدون مختلفين تماماً بعدما خلعوا الزي الموحد، يبدون شباباً منطلقين، يتخلون عن طابعهم المتحفظ الذي تفرضه عليهم طبيعة العمل، يتخلون عن الأدب المبالغ فيه لأنهم لا يتعاملون مع زبائن، وإنما مع أصدقاء، يعلو صوتهم عندما يتحدثون إلى بعضهم البعض، يتناسون فروق

الدرجات الوظيفية بينهم، يتنادون بأسمائهم مجردة دون أن تسبقها كلمة «مستر»، تلك الكلمة المستوردة والتي تبدو كقبعة يصرون على وضعها فوق رأس كل جملة يخاطبون بها العملاء!

قررت أن يكون هؤلاء الشباب مدخلي إلى ذلك العالم المجهول الذي أثق بوجوده، لكن لا بد من مدخل، اقتحمت جلستهم، واستأذنتهم في الجلوس فرحبوا بودّ حقيقي، وإن لم يخلُ من دهشة، تعارفنا سريعاً، ودار الحديث في كل الأنحاء، قصوا تفاصيل عن حياتهم في المدينة البراقة، كانوا جميعاً من أصول بسيطة، استقطبتهم أضواء المدينة وإغراء المشروعات السياحية الكبرى بها، لكنهم لم يجدوا سوى وهم، ساعات عمل طويلة، وأجور زهيدة، وقيود من أصحاب العمل، تصل على العبودية، لا تأمين صحي أو اجتماعي، لا عقود قانونية للعمل، القليل منهم من تم «تثبيته» أي حصل على تعيين قانوني في الشركة المشغلة للفندق، بينما البقية مؤقتون، حتى يسهل التخلص منهم إذا ما وقع طارئ يؤثر في الإقبال السياحي على المدينة، دون أية توابع مادية أو قانونية، فقط قرار غير مكتوب بإنهاء عملهم، فينتهي وجودهم في المدينة كلها، فالسلطات الأمنية على صلة وثيقة بأصحاب المشروعات في المدينة، وبالطبع لا يسمح بوجود عاطلين في مدينة ذات وضع أمني دقيق، لأنهم ربما يمثلون إزعاجاً لا تحتمله المدينة.

كانوا يتحدثون عن تلك الأوضاع بحنق واضح، لكن باستسلام غريب، فعلى الأقل حالهم أفضل من العاطلين، يدركون جيداً أن عاقبة الاحتجاج وخيمة، لن تقتصر فقط على الفصل من العمل وإنما تتجاوزه لمناطق أبعد، ففي هذه المدينة لا يُسمح لأحد بأن يحتج، هنا يأتي الجميع ليرتاحوا، يسترخوا على الشواطئ الجميلة، ويستمتعوا بالماء

والهواء والملاهي المتعددة، ولا يسمح لأحد بتعكير الصفو، وبالطبع كان أهم من يأتون إلى المدينة للاسترخاء والترويح عن النفس الرئيس وكبار المسؤولين.

تحدثوا طويلاً عن صفقات تقسيم الأراضي والمشروعات السياحية الكبرى بين رجال الأعمال النافذين، وعن الشباب الذين يبيعون أجسادهم لإمتاع النساء الأوروبيات المسنات اللاتي يأتين إلى المدينة بحثاً عن متعتهن المنسية منذ عقود، وكيف أن كثيراً من هؤلاء الشباب صاروا يمتلكون الآن مطاعم ويخوتاً وشركات سياحية تدر عليهم آلاف الدولارات شهرياً، بفضل تلك العلاقات، والتي تتحول في بعض الأحيان إلى زيجات مؤقتة، يحصل هؤلاء الشباب بمقتضاها على جنسيات أوروبية تفتح لهم أبواب الجنة والمسؤولين عندما يعودون إلى مصر.

بعد نهاية السهرة، عرضتُ أن أصطحبهم معي إلى الفندق، وكنت أظنهم يقيمون في مكان ما بالفندق، ضحكوا وأخبروني أن مساكنهم تقع على أطراف المدينة، وأنهم يسكنون كل أربعة أو خمسة في غرفة واحدة، طلبتُ أن يصطحبوني إلى مسكنهم، أخذوا ينظرون إليّ مندهشين، لكنهم استجابوا تحت ضغط إلحاحي، وهناك على أطراف المدينة وبعدما تختفي الفنادق والمباني المضيئة، تظهر عن بعد أشباح مدينة أخرى، أو بالأحرى الوجه الآخر للمدينة بلا مساحيق، مساكن فقيرة، شوارع غارقة في مياه الصرف الصحي، أصوات «الصراصير» تؤكد أن برك الصرف تلك صارت جزءاً من شخصية المكان وتكوينه وليست خللاً طارئاً، صعدتُ معهم إلى شقتهم، السلالم متهالكة والأثاث متواضع، كل شيء ينضح بالفقر، لم يكن المشهد

خارج وداخل المسكن يختلف كثيراً عن تلك المشاهد في «بولاق»، الكل يعاني، لكن الفرق أن هؤلاء يرون ويصنعون نهاراً الوجه الملون للمدينة، بينما يعيشون ليلاً في جنباتها المظلمة، كل شيء دوماً له وجهان!

التقيت في الشقة ببقية رفاقهم في السكن، بدوتُ غريباً، وعندما عرفوا أنني صحفي، تعامل بعضهم معي بتحفظّ، لكن سرعان ما تلاشى ذلك التحفظ، وبدأت حلقة جديدة من الحكايات تدور حول كوب شاي جديد، لكن لفت نظري أحد الأشخاص قالوا لي إنه يجيد ثلاث لغات، وإنه يبحث عن عمل بعد فصله من يومين، كانت ملامح الحنق بادية عليه، وعندما سألته لماذا لا يجد فرصة أخرى خاصة أن لديه ما يكفي من المؤهلات والخبرة، أجابني بأن أحداً لا يجرؤ على توظيفه لأن الشركة التي فصلته يمتلكها أحد أكبر رجال الأعمال النافذين، وأن الجميع يخشى أن يتحداه، والبديل الوحيد أمامه هو أن ينتحر على طريقة «البوعزيزي»، ضحك الجميع مما ظنوه دعابة من صديقهم المحبط، لكن ملامح الشاب كانت مثقلة بغضب كبير.

شكرت الشباب على استضافتهم لي، واستأذنتهم في أن أكتب شيئاً عن حياتهم دون الكشف عن هويتهم فرحبوا، طلبوا لي أحد أصدقائهم من سائقي التاكسي ليعيدني إلى الفندق، فقد تجاوزنا منتصف الليل، وسيارت التاكسي لا تصل عادة إلى هذا المكان البعيد، لأن سكانها لا يقدرون على أجرتها الباهظة، وفي طريق العودة، كان السائق غاضباً من كل شيء، من رجال الشرطة الذين يتعمدون إهانته كلما غدا أو راح، بينما يمدون أيديهم ليشاركوه حصيلة يومه، ومن مالك التاكسي الذي يلتهم كل ما يكسبه ويلقي إليه بالفتات، وحتى ركاب التاكسي الذين

يعاملونه باحتقار، ولا يدركون أنه شاب جامعي متخصص في العلوم، ظل السائق يصبّ لعناته على كل شيء، وعندما حاولت تهدئته، علق حانقاً «والله الواحد يولع في نفسه زي الراجل بتاع تونس ويخلص من القرف ده»، أصابتني الدهشة من أن يصبح «البوعزيزي» نموذجاً لشباب مصري يعمل في مدينة مرفهة تستضيف قمة رسمية رفيعة المستوى من أجل «رخاء الشعوب العربية»!!

ودعت السائق وأنا مازلتُ غارقاً في حيرتي، تطاردني مشاهد التناقض في مدينة واحدة، بين ذلك المنتجع الذي لا يدخر جهداً في أن يرسم وجهاً باسماً في استقبال الأجانب، بينما لا تتورع نفس المدينة عن أن تبدي وجهاً عابساً في مواجهة أبناء الوطن، وعندما وصلت إلى غرفتي جلست أكتب عن «شرم الشيخ التي لا يعرفها أحد»، عن «مدينة الرئيس» التي ينتشر في جنباتها مئات «البوعزيزي» ممن ينتظرون الفرصة لينفجر غضبهم، كنت حائراً إذا كان الغضب قد تسلل إلى مدينة النجوم الخمسة فكيف الحال إذاً في بقية ربوع مصر، لكن صوتاً اقتحم عقلي على غير انتظار وأخذ يتردد بلهجة غريبة وبإيقاع سريع متكرر وكأنه صوت نقار الخشب:

«مصر مش تونس».. «مصر مش تونس».. «مصر مش تونس»!

(34)

القاهرة في صفر 709هـ – أغسطس 1309م

نهمي لمعرفة أخبار ما جرى مع هيفة يفوق طاقتي على الصبر، كنت قلقة عليها، أخشى أن تكون قد أصابها مكروه، كانت ورد تحاول تهدئتي، رغم أنها لا تقل عني قلقاً أو شغفاً لمعرفة ما يجري في الخارج.

أيام مرت، ولا أحد يروي عطشنا لمعرفة ما يجري، فرض علينا الشيخ ابن عطاء الله نظاماً صارماً للتحرك داخل التكية، كنا كسجينتين في غرفتنا الصغيرة، فقط خادمة التكية من حقها الدخول إلينا لتلبية احتياجاتنا، معظم الغرف تظل مغلقة طوال النهار، ولا يسمع منها ليلاً سوى أصوات ترتيل القرآن والتهجد في الصلوات، حاولت أن أشغل وقتي بالعبادة، لكن شيطان الفكر والقلق كان يطاردني في كل حين، ولم أجد مفراً من الخروج عن صمتي، طلبت من الخادمة عندما زارتنا لتقدم لنا وجبة الغداء، أن ألتقي الشيخ ابن عطاء الله، نظرت إليّ في حيرة وهزت رأسها وانصرفت.

بعد قليل عادت تحمل لي الإذن بلقاء «قطب العارفين» بعد صلاة

العصر، سألتني ورد عن سبب رغبتي في لقاء الشيخ، وخشيتها من أن يحمله إقحامنا له فيما لا شأن له به على اتخاذ قراره بطردنا من التكية فنصير صيداً سهلاً لجنود الجاشنكير، لكنني كنت أتميز غيظاً ولا أطيق انتظاراً على ذلك السجن الذي أعيش فيه معزولة عما يجري في الخارج.

بعد العصر جاءت خادمة التكية تستدعيني، فذهبت إلى الشيخ في غرفته، ألقيت السلام وجلست على مقربة من مجلسه، وانتظر الرجل أن أتكلم، لكن شجاعتي خانتني للحظات، وعندما استجمعت نفسي سألت الشيخ:

هل أنا سجينة هنا يا مولانا؟

ضحك الشيخ على غير توقع، ونظر إليّ في وداعة، وسألني:

لماذا يا ابنتي، هل أساء إليكِ أحد هنا؟

أجبت على الفور:

حاشا لله، لكنني أشعر بأنني معزولة لا أعرف ماذا يجري في الخارج.

لا أعتقد أن ما يجري في الخارج سيسرك أن تعلميه، فمن الأفضل ألا تعرفي عنه شيئاً أو يعرف عنك أحد شيئاً، وأنت تدركين خطورة أن يكتشف أحد وجودك بيننا، نحن قوم ودعنا الدنيا وتركناها لأهلها، ووجودك هنا وإن كان من باب نصرة المظلوم، لكنه قد يجرّ المتاعب على أناس لم يعد بينهم وبين الدنيا ودّ، «فما نفع القلب شيء مثل عزلة، يدخل بها ميدان فكرة».

رسالة الشيخ بدت واضحة، لكنني كنت بحاجة إلى معرفة المزيد، فضولي لا يطاق، سألته عن الشيخة غازية ولماذا لم تأت طوال تلك الأيام الأخيرة لتطمئننا على ما يجري؟ فأجاب الشيخ في حكمة وهدوء، أن للشيخة غازية شواغلها الكثيرة، وربما خشيت أن يشك أحد في ترددها إلى التكية، رغم أنها من أقطاب الصوفية المعروفات، لكن الحذر واجب بعد ما كان، وهنا انتهزتها فرصة لأعرف «بعض ما كان».

لو تسمح لي يا مولانا أن أتجاوز الحد، وأسألك عن هيفة والشيخة غازية، فمسألة أنهما أختان كان مفاجأة لي.

ولماذا المفاجأة يا ابنتي، أليس البشر جميعاً إخوة؟!

لم تعجبني محاولة الشيخ التهرب من الإجابة، فآثرتُ الهجوم:

ألا يثير الدهشة أن تكون «ضامنة المغاني» أختاً لـ«شيخة صوفية»؟

أدرك الشيخ أنني لن أستسلم بسهولة لمراوغاته، فأجاب بعد صمت:

لتعلمي يا ابنتي أننا جميعاً خطاؤون، والمتصوفة ليسوا أفضل من غيرهم، بل إن خطايانا جميعاً تثقل كاهلنا، ولكل منا ماضٍ، ربما لا يتخيله أحد، ولولا عطف الله علينا ورحمته بنا لكانت مصائرنا مختلفة، فلربما كنت ستجدين هيفة هنا في التكية، والشيخة غازية هناك في المبغى، فرب معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

ولكن ما قصتهما؟ كيف كانتا أختين وافترق بهما المصير بهذا الشكل؟

هذا أمر يخصهما، وأخشـى أن أكون بحديثي عنهما قد اغتبتهما أو أفشـيت سـراً لا يريدان كشفه، لكن كل ما أسـتطيع أن أقوله لك إنهما كانتا ابنتين لواحدة من الأسر البسيطة، التي عاشت لا تطلب من الدنيا سـوى سـتر بناتها، وكانت غازية التي اشـتهرت بلقـب البغدادية هي الشقيقة الكبرى، حيث كانت الأسرة تعيش في «بغداد»، وعندما دهمها التتـار الملاعين وأعملـوا في أهلها الذبح والتنكيـل، هربتا إلى مصر وتزوجتا، وكان لكل واحدة منهما بيت وأسـرة، لكن الأقدار شاءت أن تفقدا بعد سـنوات زوجيهما في معركة واحـدة، وكما غيّرت المعارك مصير أسـرتيهما، غيّر رحيل الزوجين مصيـر الأختين، وكان لهيفة أولاد صغـار بينما حُرمت غازية الإنجـاب، واعتبرت ذلك ابتلاء من الله، واتخـذت مـن أطفال أختهـا أبناء لها، لكن البلاء كان شـديداً، فقد أغـرى أحد قادة الدرك هيفة بالـزواج ورعاية أطفالها، لكنه غدر بها، ثم ألقى بها ظلماً في السـجن، وعندما خرجت بعد سنوات، وجدته باع أطفالها في سوق الرقيق فضاعوا إلى الأبد، ولم تستطع الخالة المغلوبة علـى أمرها أن تفعل لهم شـيئاً، وكانت صدمـة الأختين كبيرة في فقد الأبناء بعد الأزواج، وقد وضعتهما الصدمة على طريقين مختلفين أشد الاختلاف، فالأخت الكبرى غازية وجدت سلوتها في الاتجاه نحو الله، وعرفت طريق التصوف، وكانت هي أول من سـكنت رواق الأرامل، ومن اسـمها استمد الرواق شهرته، بينما ضلت هيفة الطريق، وسلكت طريقاً مغايراً، هداها الله.

كنت أسـتمع إلى الشـيخ ابن عطاء الله، وهو يروي القصة التي لم أتخيل يوماً أن أستمع إليها، وكأنه يحكي قصة أعرفها، أو كأنني عشت بعـض فصولها، الآن تفهمت لماذا اختارت هيفـة وغازية أن تقفا إلى

جواري، ربما كانتا تنتقمان لنفسيهما من خلالي، ربما تريان في وليدي المختطف صورة لأولادهما الذين ضاعوا في شتات الدنيا، ربما لا تريدان لضحية أخرى أن تنهزم، في تلك اللحظة شعرت بأحاسيس متداخلة، لم أستطع أن أحيط بها، مزيج من الاحترام، والشفقة، والقلق.

كان الشيخ ابن عطاء الله يبدو منهكاً بعدما أتم القصة، ليس من جهد الحكاية، وإنما من قسوة وقائعها، شعرت به يعيش كل الآلام التي عانتها الأُمّان، التي أنجبت والتي لم تنجب، نظر الشيخ إلى الأفق، وقد بدأت الشمس تميل إلى المغيب، وأصابعه تواصل تحريك حبات المسبحة التي تتساقط بين يديه مخلفة إيقاعاً رتيباً، كأنما هو نزف الأيام والذاكرة، أحسست في تلك اللحظة برغبة في مصارحة الشيخ واستشارته فيما يمكن أن أفعله لأخرج من مأساتي، وصارحته بأن اليأس يغالبني في كثير من الأحيان، وأنني أفقد قدرتي على الصمود، استمع لي الشيخ باهتمام، وابتسم عندما أنهيت كلامي، وتحدث بكلمات مطمئنة وكأنه يحدث نفسه:

العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان، فلا ترفعن إلى غيره حاجة، هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟!

لكنني يا سيدي أشكو تكالب الهموم والأحزان على قلبي.

رد الشيخ بصوت عميق رقيق:

اعلمي يا ابنتي أن من علامات موت القلب عدم الحزن على ما

فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من الزلات، لكن احذري أن يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه، فأوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة والبلية والطاعة والمعصية. فإذا كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإذا كنت في البلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإذا كنت في الطاعة فمقتضى الحق شهودها عليك، وإذا كنت في المعصية فمقتضى الحق منك الاستغفار، وأنت الآن في وقت البلية بعد النعمة، والصبر دواء ما لا يرجى منه شفاء.

صمت الشيخ وقد لامست كلماته قلبي، وأدركت مقصده رغم غموض كلماته، ونزعت عني رداء الهمّ، فلما استشعر الشيخ ما أحسسته ابتسم، وقال وهو يقوم لصلاة المغرب:

يا ابنتي لا تقفي أمام تلك اللحظة من الحياة، فلو دامت لحظات الهمّ لمات الناس كمداً، الحزن لا يدوم، والفرح لا يطول، أريحي نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقوم به نفسك، وليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه – سبحانه – هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوّدك حسن الاختيار.

خرج الشيخ من غرفته، وتبعته في صمت، نظرتُ إلى باب الغرفة الذي اجتزته بحال، وخرجت منه بحال أخرى، وكأنما ولدتُ من جديد، وكأن الهموم والأحزان ثوب نزعته عني.

(35)

القاهرة في صفر 709هـ - أغسطس 1309م

لم تستمر فترة الصمت والانتظار طويلاً، فقد جاءت الأخبار سريعاً، وتنامى خبر القبض على هيفة إلى فتياتها المنتشرات في كل ربوع القاهرة، وانتظرت الفتيات إطلاق سراح «ضامنتهن» لكن الوقت طال، فذهبن إلى دار الشرطة، يسألن عن مصير هيفة فأخبرن بأن أمراً من قاضي القضاة ابن عدلان صدر بحبسها دون تهمة واضحة، ما أثار «فتيات الخواطئ» فتربصن بموكب قاضي القضاة عند ذهابه إلى دار القضاء، وعندما مر بأحد الشوارع الضيقة استوقفته الفتيات وسألنه عن مصير ضامنتهن، فرفض في بادئ الأمر أن يجيبهن، فعلا صراخ الفتيات، وتبادلت جماعة القاضي والفتيات الصياح، وقام أحد الحراس بضرب الفتيات لإبعادهن عن القاضي، لكن الفتيات تجمعن كجسد واحد وانهلن بالقباقيب ضرباً على جماعة القاضي وحراسه، فأصيب بعضهم، وهرب من لم يصب، ونال القاضي قسطاً وفيراً من الضرب، ومزقت الفتيات ثيابه، وروى بعض المارة أن القاضي ابن عدلان جرى إلى دار القضاء شبه عريان والجميع يشاهدونه ما بين ساخر أو شامت أو غاضب، بينما البعض يسخر منه، ويهتف

للخواطئ، والبعض الآخر يسخط على الزمان الذي تهين فيه العاهرات قاضي القضاة!

في تلك الليلة زارتنا الشيخة غازية، وقد علمت بما رواه لي الشيخ ابن عطاء الله، ولما سألتها عن سبب مساندتها لي، أجابت بكلمات قصيرة:

أظنك عرفت الآن قصتي أنا وهيفة، ومن ذاق الظلم لا يطيق أن يراه، وقد رأينا فيك قصة الأمس تُستعاد، ولما اخترتِ طريق المقاومة، استشعرنا أن ذاك الطريق الذي كنا ينبغي أن نسلكه منذ البداية، وبغير اتفاق بيننا، بدأت هيفة بمساعدتك، وعندما ضاقت بكم السبل لجأت إليّ، فكان ما كان في ذلك اليوم الحزين الذي بدأ بقتل القاضي عز الدين، ثم بسجن أختي هيفة.

لأول مرة تصف هيفة بـ«أختي»، وعندما سألتها عن ذلك، أجابت بسؤال «أوليست أختي؟!»، فلم أجد ما أرد به سوى صمت أعقبه سؤال عن أحوال «أختها» إن كانت لديها ما تعرفه، فقالت إن الجاشنكير علم بأمر مساعدة هيفة لنا، فأوعز لقاضي القضاة بحبسها حتى تكشف عن مكان اختبائنا، ولما كانت لا تعلمه فقد طال حبسها، إلى أن كان ما وقع من بعض فتياتها بحق القاضي في ظهر ذلك اليوم، وقبل أن تتجه الشيخة غازية إلى حضرة الدراويش في باحة التكية، أوصتنا بمزيد من الحذر والحرص، وقالت إن انتقام الجاشنكير لما جرى لقاضي قضاته لا بد أن يكون عظيماً، فما جرى من الفتيات لم يكن إهانة للقاضي ابن عدلان وحده، وإنما للجاشنكير نفسه، فالجميع يعلم أن ابن عدلان هو شريك الجاشنكير في كل جرائمه، ومستشاره الأقرب، وهو

من يصدر له الفتاوى باستحلال دم خصومه، وهو من أصدر قراراً بعزل القاضي عز الدين القيسراني، وأشعل غضب العامة عليه حتى انتهى الأمر بمقتله، فضلاً عن أن سكوت الملك على ما جرى يضر بهيبته المهتزة أصلاً بفعل ما يعانيه الناس من فقر وقحط منذ توليه السلطة بعد إبعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

كنت أدرك أن الشيخة غازية تعني كل كلمة تقولها، وقد توقعت ما ذهبت إليه، لكن ما لم أكن أتوقعه، وظللت أفكر فيه طويلاً، كيف سيكون عقاب الجاشنكير ورده على ما جرى لقاضي قضاته اليوم، عندما هممتُ وورد لمرافقة الشيخة غازية لحضور حضرة الدراويش، منعتنا برفق، وطالبتنا بالحرص على عدم الظهور لأحد في التكية غير الشيخ ابن عطاء الله وخادمته، وأن ظهورنا في تلك الحضرة التي يأتيها كثيرون من خارج التكية قد يثير تساؤلات، ربما تضر بالجميع، وافقتها مجدداً وجلست وورد نتابع الحضرة من خلف ستار في الطابق العلوي، كان الدراويش قد بدؤوا رقصتهم الغامضة، أخذوا يدورون ببطء، حول حلقة الرقص وحول أنفسهم، ومع تدفق أبيات الشعر والأذكار، يزداد الدوران سرعة وعمقاً، شعرتُ بأن كل ما حولي يدور، وأنني أدور معهم حولي نفسي، بعدها بدأت أشعر بأن مخاوفي تتطاير كلما ازداد الدوران قوة، ليحل بدلاً منها إحساس نوراني بطمأنينة غريبة، لم أعتدها من قبل، كنت كمن يلتحم بكون كبير، يشعر بضآلته فيستشعر الاطمئنان من ضخامة الكون الذي يلتصق به، أي سرّ يكمن في هذا المكان وفي ساكنيه من الدراويش الغامضين؟ أحقاً هم مجانين أم أولياء؟ هل يعرفون فعلاً حقيقة الكون، أم هم أدعياء منعزلون عن الدنيا؟ كل ما كنت أعرفه في تلك اللحظة

أنني وجدت في هذا المكان الغامض وبين ساكنيه أماناً لم أجده في غيره، وشعرت بطاقة غامضة تجتاح قلبي، تمنحني قوة على الصمود في وجه كل مخاوفي.

***

في الصباح كان الجميع على موعد مع الأخبار الصادمة، فقد «نودي في بالقاهرة ومصر وظواهرها بمنع جميع النساء بأسرهن من الخروج من بيوتهن، وألا تمر امرأة في شارع ولا سوق البتة، وتهدد من خرجت من بيتها بالقتل، فامتنع عامة النساء فتياتهن وعجائزهن وإمائهن عن الخروج إلى الطرقات، وأخذ والي القاهرة وبعض الحجاب في تتبع الطرقات، وضرب من يجدون من النساء، وتشددوا في الردع والتهديد، فلم تُر امرأة تمشي في الطرقات، فنزل بعدة من الأرامل وربات الصنائع ومن لا قيم لها يقوم بشأنها ومن تطوف على الأبواب تسأل الناس، ضيق وضرر شديد، وتعطل بيع كثير من البضائع والثياب والعطر فازداد الناس وقوف حال وكساد معايش، وتعطل أسواق وقلة مكاسب»[13].

ورغم أن الشيوخ في كل الجوامع وحلقات العلم شنوا حملة شعواء على النساء، وما يقمن به من مظاهر فساد، حتى ظهرت علامات القيامة في الآفاق، وأصدر الشيوخ الكثير من الفتاوى التي أجمعت على أن «أكثر ما يفسد الملك والدول.. طاعة النساء»[14]، و«أن ما وصلت إليه البلاد من فساد وكساد وسوء معايش للعباد سببه انحلال

---

(13) المقريزي، السلوك، ج4، ص1032 – 1033.

(14) ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج2، ص77.

النســـاء، ووقـوف الخواطئ علـــى النواصي، وانتشـــار الحمامات وما يجري بها من مفاسد ومعاصٍ، ولم تسلم امرأة من هجوم الشيوخ ليس لمسـلكها وإنما لجنسها، فطال هجوم الشـيوخ الخواطئ والمتصوفات على الســواء، فهاجم الشيوخ بعض النساء ممن سلكن طريق التصوف فلبســن الخرق كمـا يلبسـها المتصوفة من الرجال، وشـبههن خطيب بالجامـع الأزهر بالمسـيحيات في الأديرة، وعاب علــى المتصوفات رفـع أصواتهن بالذكر، وقال إن العجيب في هؤلاء الشـيخات أنهن لا يمضين إلى موضع لعمل الذكر فيه إلا بعد دفع الرسم المقرر لضامنة المغاني شأنهن في ذلك شأن بقية الغواني»![15].

وطـال مـن وراء تلـك الحملـة النســاء أذى كبير، فانتشـرت في الشـوارع والأسـواق هجمـات الدرك التـي كانت تلقـي القبض على النسـوة اللاتي يخالفن مرسوم الجاشـنكير، ومن نجون من أيدي جنود الدرك، طالتهن أيدي وأقدام جموع الكارهين للنساء، الذين انطلقوا في حشـود كبيرة يجوبون الطرقات والأسـواق بحثاً عـن أية امرأة تتجرأ على مخالفة المرسـوم والتجول في الشارع، وقضت نساء كثيرات في تلـك الحملة، بعضهن أجيرات أو جوارٍ أجبـرن على الخروج لقضاء حوائج أسـيادهن، أو أمهـات اضطررن إلى الخـروج بحثاً عن قوت أطفالهـن، لكن كل ذلك لم يشـفع لدى الأيادي الغاضبـة والعقول التي امتلأت بفتاوى الشيوخ والتحريض ضد النساء في كل زمان ومكان.

لكـن كل ذلك لم يدفع الناس إلى الاستسـلام لمراسـيم الملك، وبدا أن غضبـاً يتزايد في القلوب، وزادت مراسـيم الجاشـنكير من صدمة

---

(15) ابن الحاج، الدخل، ج2، ص141 – 142.

الناس ومعاناتهم، فأحوالهم تزداد سوءاً كل يوم، الأرزاق صارت شحيحة، وحتى النيل لم يأت بالفيضان المنتظر لذلك العام، وبدأت الأمراض تنتشر بين الناس، وفرض الملك المزيد من «المكوس» لشراء ذمم رجاله في الشام وغزة، وحتى لا ينضموا إلى خصمه السلطان الناصر، ولايزال الجاشنكير يعتبره تهديداً لحكمه، كما أطلق الجاشنكير يد رجاله من المماليك في الإقطاعيات التي منحها لهم ليضمن ولاءهم، فارتكبوا فيها الكثير من المظالم والموبقات، ولم يجد الناس من يستنجدوا به من ظلم المماليك، فالملك أضعف من أن يتصدى لرجاله، لأنه يخشى إغضابهم.

وأصدر الجاشنكير مرسوماً أيضاً بمنع احتفال للقبط كانوا يقيمونه على أطراف القاهرة في موضع عند النيل يقال له «شبرا الخيمة»، حيث كانوا ينصبون منذ سنوات بعيدة خيمة كبيرة يحتفلون فيها بأعيادهم وقديسيهم، وكان الجاشنكير نفسه يزورهم هناك قبل توليه الحكم، لكنه قرر فجأة حظر تلك الاحتفالات «حماية للإسلام والمسلمين» كما قال المرسوم، وبرره رجال الدين الذين انهالوا ثناء على الجاشنكير «حامي الإسلام ومقر الشريعة»، وعلى قراره الذي «حفظ البلاد والعباد من فتنة الكفار وأفعال الجاهلية».

وأخذ الناس يتكلمون في الأمر أياماً، حتى نسوه وعادوا مجدداً إلى معاناتهم، فقد طال ركود التجارة، وخشي التجار من الإفلاس، وعندها لجؤوا إلى الأمير سلار نائب السلطنة، والذي تدخل لدى الملك ليخفف القرار، ويقال إن سلار تلقى هدايا باهظة ليتدخل لدى الجاشنكير، وبالفعل لم يستمر المنع إلا زمناً محدوداً سمح بعدها بخروج الإماء لشراء حوائج مواليهن من الأسواق بشرط ألا تنتقب واحدة منهن،

بل يكن سـافرات عن وجوههن، وألا تخرج العجائز لقضاء أشغالهن، وأن تخرج النساء إلى الحمامات ولا يقمن بها إلى الليل، فكان ذلك من أنواع الفرج.

لكـن ذلك الفرج لم يطل هيفة التي طال غيابها، وغمض مصيرها، وبتنا جميعاً في حيرة، حتى مقدمو الدرك ممن لجأت إليهن فتيات هيفة أنكروا أنهم يعلمون عنها شيئاً، وقالوا إن رجال السلطان تسلموها فور القبض عليها، وهم من تولوا استجوابها في القلعة.

كان من الصعب أن أستمر في ذلك السجن بالتكية، بينما قلبي يموج بغضـب، والقاهرة في الخارج تموج بغضب أشـد، صرتُ الآن على يقين بأن قدراً ما ينتظرني، ولا مفر من القدر سوى ملاقاته، ويبدو أن أوان تلك الرؤية الغامضة قد أوشك على التحقق، لذلك قررتُ الخروج لملاقاة القدر، ولو كان الثمن حياتي.

(36)

القاهرة في صفر 709هـ – أغسطس 1309م

بدا أن كل شـــيء يتحرك عكس كل التوقعات بســرعة وضد المنطق أحياناً، فالبسطاء الذين كانت تحركهم خطب رجال الدين، ويخشون بطش عسكر المماليك، ولا يهتمون سوى بقوت يومهم، والسعي على الأرزاق، عــلا صوتهم، أو بالأحرى صراخهم. الأوضـــاع في مصر وصلت حداً لم يعد الناس يحتملونه، ضاقت المعايش، وغاض النيل، وزاد القهر، فلم يجد الناس سوى أن يجأروا بالشكوى، وخرج الجميع من صمته.

في ذلك اليوم، وكان جمعة، اعتلى منبر مسجد الحاكم قاضي القضاة ابــن عــدلان، وأخذ يتحدث – كعادتــه – عن الفتنة التي تعيشـــها الأمة، والأخطـــار المحدقة على الحدود من الصليبين وأعداء الأمة مرجعاً تلك الفتن إلى ما يقترفه المسلمون من ذنوب، وتركهم النساء يرتكبن الموبقات في الأسواق والحمامات، وأن البلاء لا يأتي إلا من باب المعاصي، لكن شــيئاً غيــر متوقع حــدث، ولا يعلم أحد حتى الآن كيــف حدث ذلك، فقد علت الأصوات من بين صفوف المصلين اعتراضاً على ما يقوله قاضي القضاة، وهتف الناس في المســجد ومنعوه من استكمال خطبته، وأخذوا يهتفون ضد الجاشنكير، يشكون ما يعانونه من فقر وقحط، غادر بعضهم

المسجد، بينما اشتبك البعض الآخر مع رجال ابن عدلان وبعض أتباعه ممن رأوا في قطع الخطبة فتنة وإثماً كبيراً.

خرج الناس من المسجد إلى الشوارع والأزقة يهتفون ضد الجاشنكير وسلار وكل قادة المماليك ممن رأوهم سبباً فيما يعانونه من قحط، فقد «فشا في الناس في تلك السنة أمراض حادة، وعم الوباء الخلائق، وعز سائر ما يحتاج إليه المرضى، ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى وارتفع سعر القمح وسائر الغلال، ومنع الأمراء البيع من شونهم، وخاف الناس أن يقع غلاء كغلاء كتبغا»[16]، وتشاءموا بحكم الجاشنكير، ولم تفلح صلوات الاستسقاء وتوقفت الزيادة مدة، وانتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعاً، وسبع عشرة إصبعاً في سابع وعشرين توت، ثم نقص في أيام النسيء، وجاء النوروز ولم يوف النيل ست عشرة ذراعاً، ففتح سد الخليج، وذكر بعضهم أنه لم يوف، وانحط مع ذلك الوفاء السِّعرُ، وتشاءم الناس بطلعة الجاشنكير وغنت العامة[17]:

سلطاننا ركين ونائبنا دقين
يجينا الماء منين

جيبوا لنا الأعرج
يجيء الماء ويدحرج[18]

---

(16) وقع هذا الغلاء في سنة 695هـ واستمر إلى سنة 696هـ.

(17) ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص192 – 193.

(18) المقصود بلفظ ركين الملك المظفر بيبرس وكان لقبه ركن الدين فسمّاه العامة ركين، ودقين هو الأمير سلار النائب، فإنه كان أجرد وليس بلحيته وشاربه سوى شعرات قليلة، وأما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون (بدائع الزهور، ج1، ص425).

في ذلك اليوم لم أتمالك نفسي من الخروج وسط الجموع الغاضبة، وبقدر ما كان خوفي من الناس يوم هاجموا بيت القاضي عز الدين القيسراني، بقدر ما كان إحساسي بالاطمئنان وسطهم في ذلك اليوم، غنيت معهم تلك الأبيات التي أبدعها العامة بلا ترتيب، طافت المسيرات أحياء القاهرة، وكلما اتجهت نحو حي خرج أهله لينضموا إليهم، وجاء بعدها أهل الطوائف، فانضم النحاسون والقصابون والنجارون، وحتى السقاة والعربجية انضموا إلى المسيرات الغاضبة، وحاول الناس أن يخترقوا شوارع الدراسة صعوداً إلى القلعة حتى يسمع الجاشنكير أصواتهم الحانقة، لكنّ جنوداً كثراً من المماليك البرجية وقفوا بمتاريس كبيرة فسدوا على الناس الطرقات، فتجمع الخلق في الساحة عند مسجد الحسين والجامع الأزهر، وسد الناس أفق النظر، والجميع يعلو صوته بغناء أو بهتاف، ولما ضاق الجند بجموع الغاضبين وقد يئسوا من أن ينصرف الحشد، بادروهم بالهجوم، فانطلقوا بالخيول يشقون عباب الجموع، ومن لم يستطع الفرار من أمامها هلك تحت سنابكها، حتى قضى خلق كثير، وتفرق جمع منهم في الأزقة وفتح بعض أصحاب البيوت أبوابهم لحماية المستغيثين والهاربين من عسكر المماليك، واصلتُ الغناء، كان صوتي هو سلاحي الوحيد في مواجهة غير متكافئة، جنود الدرك بخيولهم وسيوفهم، وأنا مجرد صوت يشق جدار الاستسلام.

صوتي الذي خذلني كثيراً، أعلن الثورة في تلك اللحظات، أخذ يحلق بعيداً حتى رغماً عني، كأنه يخرج من مكان بعيد وليس من حنجرتي، الصمت الطويل الذي سجنني طيلة الفترة الماضية انقلب إلى غناء غاضب، أو صراخ بطعم الغناء، كم كنت أشعر برغبة قوية

فـي الصراخ، كم قمعتُ تلك الرغبة بداخلي خشـية أن يظن الناس بي جنوناً، وربما كنت أجبن من أن أطلق صوتي هكذا في الهواء يعبر عن ألمـي، ففي بعض الأحيـان ورغم ما بنا من جراح، يصبح التعبير عن الألـم أهون من احتماله بالصمت، لكن ما أصعب أن تخذلنا شـجاعتنا في لحظة ألم.

لـم أكن وحدي من يرغب في الصراخ في تلـك اللحظة، فقد التف حولـي جمع كبير، وأخذوا في الغنـاء، كانت الحناجر تصرخ، وكأنما تريد أن يصل صوتها عبر الأفق البعيد إلى أسوار القلعة، التي اعتادت أن تصـم آذانهـا عن أنيـن القابعين هنا في سـفح المدينـة، وكلما علا صوت الغناء، زادت جسـارة الجموع، وتراجع عسـكر الدرك، حتى الخيول التي بدت في أقصى درجات غضبها، تحت وطأة السياط التي تنهال على أجسـادها لتفتك بأجسادنا، يبدو أنها شاركتنا الغناء، فلم تعد تسـتجيب كثيراً للضربات التي تسـتحثها علينا، وكلما تراجع العسكر، تقدم جمع الغاضبين وعلا غناؤهم، كانت كمبارزة حقيقية، انتصر فيها الصوت على السوط، وتراجع العسكر إلى ما قرب أسوار القلعة، وقبيل آذان المغرب كانت جموع الغاضبين على وشـك الوصول إلى القلعة، لكـن في تلك اللحظة انفتحت بعض الأبـواب وتدفق منها جحيم هادر، جنود المماليك تدفقوا عبر أبواب القلعة شاهرين سيوفهم ورماحهم، لم يمهلونا فرصة، داسـت خيولهم الأجساد بوحشية، ومن حاول المقاومة كان السـيف رداً، لم يسـتطع هؤلاء العزّل الصمود أمام سيوف الجند، تراجـع الجميع، ومع دخول عتمة الليل كانت الحواري والأزقة ممتلئة بأجسـاد منهكة ومثخنـة بالجراح، لكنها لم تكن مهزومة أو منكسـرة، في تلك الليلة عدت وحدي إلى «التكية» مشـحونة بالغضب وبالثورة،

لكنني أيضاً مشحونة بإحساس غامض بالانتصار، صحيح أننا لم نستطع الوصول إلى القلعة، وفرّ الناس أمام خيول الجند وسيوفهم، لكننا استطعنا أن نكسر جدار الصمت، أن نحطم الخوف وأن نتحرك ولو خطوات معدودة، لكنها كانت أفضل من الموت وقوفاً نراوح مكاننا ونتفرج على ما يُفعل بنا.

منهكة، ممزقة الثياب، مثقلة بآلام يومي الطويل عدتُ إلى التكية، فوجدت ورد تكاد تموت قلقاً عليّ، كنتُ قد غافلتها في ذلك الصباح عندما خرجت للالتحام بمسيرة الغاضبين، هالها منظري، وظننت أن سوءاً لحق بي، لكنني رغم كل ما يعتصرني من تعب وآلام، كنت قادرة على انتزاع ابتسامة من فوق شفاه طالما حاصرها الأنين، نظرت ورد إليّ في دهشة، لم يكن هناك كلام يقال، ارتميت بين ذراعيها كطفلة تعود إلى أحضان أمها، في تلك اللحظة أدركت أن ورد لم تكن مجرد صديقة أو رفيقة رحلة معاناة، لكنها كانت روح أمي التي ترعاني على البعد، وتحيط بي بتلك العيون المطمئنة.

رويت لها كل ما كان في ذلك اليوم، كنت كطفلة تحكي لأمها عن تجربة جديدة تعرفها للمرة الأولى، بانطلاق طفلة، وبصدق طفلة، وبدهشة طفلة. ظلت ورد تستمع دون أن تعلق، وبعدما أنهيت حديثي، أقسمت عليّ ألا أكون وحدي بعد ذلك، فأخبرتها أن الأمر لم يكن آمناً، وأنني خشيتُ عليها، فردت بصدق أن ما لاقته من قلق عليّ أهون كثيراً من أي خطر قد تواجهه معي، ثم تغيرت ملامح وجهها وبدأت بشائر ابتسامة ترتسم على وجهها، وهي تقول:

منذ أن عرفتك، ونحن لا نعرف سوى القلق.

كانت تحاول أن تخفّف عني، لكنها حقاً كانت صادقة في كل كلمة، فمنذ التقينا، لم نعرف في حياتنا سوى القلق، القلق من أجل ماض لا نملك كثيراً من ذكرياته المشوّشة، والقلق في حاضر يتحكم فينا بلا إرادة منا، والترقب لمستقبل لا نعلم بما سيأتينا به، رغم أننا كنا جاريتين بلا مستقبل، لكن القلق من ذلك المجهول لم يكن أبداً بعيداً عنا، عانقتها بود وأنا أعتذر:

سامحيني يا أختاه.

ردت بودّ أكبر:

سامحتك، ويكفي أنني لم أرك منذ سنوات بهذه الفرحة!

هل حقاً كنتُ فرحة، أم أن لذة الخروج من الصمت، وكسر الاستسلام تمنحنا تلك الحالة المدهشة من السعادة؟ نعم أنا فرحة، ولو عاودتني تلك الفرصة مجدداً فلن أتراجع، هذا الإحساس بالانتصار يستحق كل عناء.

في تلك اللحظة جاءت الخادمة تستدعيني وورد للقاء الشيخ ابن عطاء الله، تعجبت لاستدعائه لنا في ذلك الوقت المتأخر، لكننا لا نملك سوى تلبية الدعوة.

في حجرته استقبلنا بوجه صارم، كان يبدو جاداً كعادته، لكن هذه المرة كان قلقاً أكثر من أي وقت مضى، سلمنا وجلسنا صامتتين في انتظار أن يتحدث الشيخ، كنت على ثقة من أنه علم بما فعلته طوال ذلك اليوم، فالأخبار التي تطوف المدينة لم يكن من الصعب أن تتسلل إلى ما وراء أبواب التكية، بدا الشيخ حائراً، ماذا يقول؟ هل يوبخني على

ما فعلت، هل ينهرني ويطردني من التكية؟ كان توقع رد فعل الشيخ ابن عطاء الله صعباً، ويبدو أن الشيخ أراد أن يخفي حيرته فبادرني بالسؤال عمّا جرى هناك قرب أسوار القلعة، لم أكن أدري أكان يريد فعلاً أن يعرف ما جرى، أم أنه كان يستدرجني، ولم أملك سوى أن أجيب.

قصصتُ عليه جانباً مما رأيت، وكان الشيخ بادي التأثر بما يسمع، ويردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وبعدما أنهيت كلامي، صمت قليلاً قبل أن يقول بكلمات مثقلة بالهمّ:

اعلمي يا ابنتي أن لكل مظلوم الحق في أن ينتفض في وجه ظالميه، وأن للمظلوم حق النصرة، فمصير الإنسان قد يحدده موقف أو قرار يرفعه إلى ذرى الكرامة، أو يهوي به في وهاد الذل والانكسار، فرُبَّ عمر اتسعت آماده وقلّت أمداده، ورُبَّ عمر قليلة آماده كثيرة أمداده، لكن يا ابنتي عليك أن تعلمي أن وجودك بين المتصوفة ربما يصيبهم ببعض ما قد يجري لك، وأنت تعلمين قسوة الجاشنكير ورجاله، وقد جربتها منه شخصياً، ورأيتها في أكثر من موقف.

بدا كلام الشيخ مبهماً بالنسبة إليّ، فهل يساندني أم يدعوني للاستسلام؟ هل يطلب مني أن أمارس حقي في الانتفاض في وجه ظُلامي، أم يحثني على الخروج من تكيته كي لا يُضار آخرون؟ حاولت أن أستوضحه وقد شعرت بحيرة الشيخ فسألت:

هل تطلب مني يا مولانا أن أغادر التكية، أم تطلب مني أن أستسلم؟

رد الشيخ بسرعة:

حاشـــا لله أن أطلب منك هذا أو ذاك، فالمســلم للمســلم لا يخذله ولا يســلمه، والصوفيــة الحقة حــب واعتقاد وأدب، وصــول إلى الله بغير تعب، والصوفي الحق يســير على كل ما جاء به الشــرع والســنة وإذا أتــى ما يخالف ذلك فليس بمتصوف حتى إن كان يســير على الماء أو يطير في الهواء.

صمت الشــيخ قليلاً، فبــادرت بالقول وأنا أســتعيد كلمات القاضي القيسراني تتردد في داخلي بلا نهاية:

يــا مولانا، ما فعلته اليوم لم يكن ثأراً شــخصياً، كان هناك الآلاف غيــري، الجميع لديهــم مظالمهم، يبحثــون عن عدالة غابــت طويلاً، يسعون وراء كرامة ضاعت منذ زمن. يا مولانا، أي قيمة لحياة المرء إن عاشــها ذليلاً خاضعاً عبداً للقمة عيشــه وحسب، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وســلم، إن «خير الجهاد كلمة حق عند ســلطان جائر» أوليــس مــا يجري لنا جور وظلم وعدوان؟! بــأي وجه نلقى الله ونحن نخشى الجاشنكير أكثر من خشيتنا الله تعالى؟ أي نفع من صلاة وصيام وتعبــد، طالما أن كل ذلك لم يرفع عن مظلوم مظلمته، أو يعطي لفقير كسرة خبز يواري بها عورة جوعه، أو يعيد لضعيف كرامة مغتصبة؟ قد يكون ما فعلته اليوم يا مولانا في نظرك خطأ، لكنني أقف أمامك اليوم وأنا أعرف قدرك، وما قدمته لي لأعترف أنني ما شــعرت بإنســانيتي سوى اليوم، ما شعرت بقرب من الله أكثر من تلك اللحظات التي كنت أصمد فيها مع الناس في وجه ســنابك جند المماليك بأجســادنا الهزيلة، ولو عادوا في الغد لعدتُ مع الناس، فما قيمة أن نبيت لله في الليل عدة ساعات ساجدين، بينما نقضي نهارنا كاملاً لغير الله راكعين؟!

انتظرتُ أن يتكلم الشيخ ابن عطاء الله، أن ينفعل رداً على ما قلته، لكن الشيخ ظل صامتاً ورأسه محنيّ، وبعد صمت طال حتى اعتقدت أنه يريدني أن أخرج، رفع وجهه نحوي وقد دمعت عيناه وهو يقول:

متى آلمك عدم إقبال الناس عليكِ أو توجههم بالذم إليكِ، فارجعي إلى علم الله فيكِ، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك من الأذى منهم، إنما أجرى الأذى على أيديهم كي لا تكوني ساكنة إليهم، أن أراد أن يزعجكِ عن كل شيء حتى لا يشغلكِ عنه شيء.

انتهت كلمات الشيخ، ولم تنته دموعه، فاستأذنت في الخروج، وفي أن أغادر مع ورد التكية في الصباح شاكرة له ما فعله من أجلنا طوال الفترة الماضية، لكن الشيخ لم يردّ، نظرتُ إليه في عتمة الغرفة، فكانت دموعه تغرق وجهه وتلمع تحت نور المصباح الواهن.

(37)

القاهرة في ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

القاهـرة تموج بالأخبـار، لا أحد يعلم مصدرهـا، لكنها تتردد بين الأفواه والآذان بسـرعة الريح، لم تعد المدينة في هذه الأيام كتلك التي عرفتها من قبل، مستسلمة مستكينة لقدرها، تستنيم لحكامها، وتهجع عند المغرب تحت أقدام من يبيت في قصر القلعة.

تغيرت القاهرة وتغير أهلها، لم يعد أحد يخاف من عسكر المماليك، بل صار الجند هم الذين يخافون الناس، أصبحت المسيرات الغاضبة نحو القلعة عادة يومية، يتجمع الناس بلا موعد بعد الصلاة، ويخرجون في أفواج نحو أسـوارها الصمّ، يدركون أن الوصول إلى الجاشـنكير وقصـره أمر مسـتحيل طالما التـفّ حوله مماليكه الأشـداء، لكنهم لا يستسـلمون لأشـباح اليأس، بل باتـت متعتهم في تعكيـر صفو الملك ورجالـه، لا تـكاد تتوقف الاحتجاجات يوماً، لكنهـا تتضاعف في يوم الجمعة.

بـات الناس يعـدون الأيام حتى يأتـي يوم الجمعة، وبـتُّ أنا أيضاً أنتظـره بشـغف، صار لي في ذلـك اليوم موعد دائم مـع الحرية، مع

الغناء من أجل كل المظلومين والضعفاء، أغني لهم وبهم أشعاراً يؤلفها شعراء صعاليك لا يعرف أحد أسماءهم، يرتجلون كلمات وهتافات، سرعان ما تتحول مع دفقات الغضب والحماس إلى أغان تثير الوجدان وتلهب الحناجر، لا أعرف من أين كانت تأتيني تلك الشجاعة، وكيف كنت أصدح بتلك الكلمات كأنما الكلمات تصوغني، وتغنيني، هي التي تنطق بي، قبل أن أنطقها، تتماوج بداخلي طاقة لا أعلم مصدرها، تحملني نحو أفق بعيد، لا قيد فيه ولا خوف ولا حزن، أحياناً أحس أنني وحيدة أغني لنفسي، لا أشعر بأحد إلى جواري، وعندما تهدر الحناجر مرددة ما أغني، أستشعر أنني أتوزع في كل صوت، وأنطلق معه إلى أعلى، يتحول صوتي في لحظة إلى سهم منطلق، ينغرس بقوة في آذان الجاشنكير ورجاله، وتنهال سهام الأغاني من كل اتجاه فتصيبهم بالجنون، فلا السيف يمنع الغناء، ولا القوة تستطيع أن تحاصر صوتاً منطلقاً من أن يصل إلى السماء.

مع كل يوم يمر نشعر بقوتنا، بينما قبضة الجاشنكير ورجاله تتهاوى، في تلك الفترة انتشرت الأنباء عن حركة السلطان الناصر محمد وخروجه من «الكرك»، فماجت الناس، ويبدو أن تأثير ذلك لم يقتصر على العامة وحسب، وإنما امتد إلى بعض رجال الملك أيضاً، فقد تردد بين الناس أن محاولة لقتل الجاشنكير أقدم عليها أحد الأمراء الأقوياء، وهو الأمير نوغاي القبجاقي، وكان معروفاً عنه أنه حاد المزاج قوي النفس، وكان من ألزام الأمير سلار النائب، وردد العامة أن نوغاي تواعد مع جماعة من المماليك السلطانية أن يهم بهم على الجاشنكير إذا ركب ويقتله، فلما ركب ونزل إلى بركة الجب استجمع نوغاي بمن وافقه يريدون الفتك بملكهم في عودته من البركة، وتقرب

نوغاي من الجاشنكير قليلاً قليلاً، وقد تغير وجهه وظهرت فيه أمارات الشر، ففطن به خواص الملك وتحلقوا حوله فلم يجد نوغاي سبيلاً إلى ما عزم عليه.

وقيل أن الجاشنكير عاد إلى القلعة فعرفه ألزامه ما فهموه من نوغاي وحسّنوا له القبض عليه وتقريره على من معه، فاستدعى السلطان الأمير سلار وعرفه الخبر، وكان نوغاي قد باطن سلار بذلك، فحذر سلار الملك وخوفه من عاقبة القبض على نوغاي، وأن ذلك فيه فساد قلوب جميع الأمراء، وليس الرأي إلا الإغضاء فقط، وقام سلار عنه، فأخذ المماليك البرجية بالإغراء بنائب السلطنة وأنه باطن نوغاي ومتى لم يقبض عليه فسد الحال، وبلغ نوغاي الحديث فواعد أصحابه على اللحاق بالسلطان الناصر.

واشتد خوف الجاشنكير وكثر خياله من أكثر عسكر مصر، فقبض على جماعة تزيد على ثلاثمائة مملوك، وزاد اضطرابه مع انتشار أخبار رحيل جند كثيف مع نوغاي إلى الكرك للحاق بالسلطان الناصر، وتحلق المماليك البرجية حول الجاشنكير وشوّشوا فكره بكثرة تخيله بمؤامرة العسكر المصري عليه، ومازالوا به حتى أخرج الأمير بينجار والأمير صارم الدين الجرمكي في عدة من الأمراء مجردين بالسلاح، وأخرج الأمير آقوش الرومي بجماعته إلى طريق السويس ليمنع من عساه يتوجه من الأمراء والمماليك إلى السلطان الناصر.

كانت كل تلك الأنباء تتردد بين الناس فيزدادوا قوة، لم نكن نعرف مدى صحتها، الجميع يتحدث بأنه سمع الناس تقول، لكن أحداً لا يحدد على وجه الدقة من قال، ويبدو أن تلك عادة قديمة بين العامة،

لكنــه ربمــا لم يكن خطأ محضاً، فبعض مــا كان يتردد بين العامة كان يتحقــق في كثيــر من الأحيان، ففــي تلك الأيام انتشــرت الأقاويل بين النــاس أن ثلــة من رجال الديــن الأفاقين الذين التفوا حول الجاشــنكير وكانوا يبررون له كل أفعاله، ويروجون لها على أنها توافق الشــرع، وكان بينهم الصوفي الآفاق نصر الدين المنبجي الذي ادعى لنفســه أنه يأتــي بمعجزات وكرامات، وأوهم الجاشــنكير أن بمقدوره أن يقرأ له الغيب، فأورده موارد التهلكة، وأوعز له بالتخلص من بعض خلصائه، والاعتمــاد على شــر أتباعه، وكان ذلك الصوفي إلى جانب الشــيخين ابــن المرحــل وابن عدلان، من أقــرب بطانة الجاشــنكير إليه، ويقول الناس إنهم أشــاروا على الملك بتجديد العهد والبيعة وتحليف الأمراء، وأن ذلك من شــأنه أن يثبت به قواعد ملكه، ففعل ذلك وحلّف الأمراء بحضور الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي، الذي كتب له عهداً جديداً عن الخليفة، وقد أراد الجاشنكير ورجاله أن يستقطبوا البسطاء وأتباع المشــايخ، ممن كان يســتهويهم أن ذلــك الرجل العباســي الهارب من وجــه المغــول هو أمير المؤمنيــن، وأن من يخرج علــى حكمه مارق فاســق يســتحق القتل، فأوعزوا لذلك الخليفة المزعوم أن يصدر عهداً جديداً للجاشنكير يعزز به ذاك العهد الذي سانده به للإطاحة بالسلطان الناصر، وتُليت نسخة ذلك العهد في مساجد مصر في ذلك اليوم وكان نصها:

«إنه من ســليمان وإنه بســم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله وخليفة رســول الله صلى الله عليه وسلم، أبي الربيع سليمان بن أحمد العباسي لأمراء المســلمين وجيوشــها {يا أيها الذين آمنــوا أطيعوا الله وأطيعوا الرســول وأولي الأمر منكم}، وإني رضيت لكــم بعبدالله تعالى الملك

المظفر ركـن الدين نائباً عني لملك الديار المصرية والبلاد الشـامية، وأقمته مقام نفسـي لدينه وكفاءته وأهليته، ورضيته للمؤمنين وعزلت مـن كان قبلـه بعد علمي بنزولـه عن المُلك، ورأيت ذلـك متعيناً عليّ وحكّمت بذلك الحُكام الأربعة، واعلموا – رحمكم الله – أن الملك عقيم، ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف، ولا كابر عن كابر، وقد استخرت الله تعالـى ووليت عليكم الملك المظفر، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصـاه فقـد عصاني، ومن عصانـي فقد عصى أبا القاسـم ابن عمي، صلى الله عليه وسلم، وبلغني أن السلطان الناصر ابن الملك المنصور شق العصا على المسلمين وفرّق كلمتهم وشتّت شملهم، وأطمع عدوهم فيهـم، وعرَّض البلاد الشـامية والمصرية إلى سـبي الحريم والأولاد وسـفك الدماء، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك، وأنا خارج إليه ومحاربه إن اسـتمر على ذلك، وأدافع عن حريم المسـلمين وأنفسـهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم، وأقاتله حتى يفيء إلى أمر الله تعالى، وقد أوجبت عليكم يا معاشـر المسـلمين كافة الخروج تحـت لوائي، اللواء الشـريف، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك وأنا مستصحب معي الملك المظفر فجهزوا أرواحكم والسلام».

قُـرئ هذا العهد على منابـر الجوامع بالقاهرة، فلما بلغ القارئ إلى ذكر السلطان الناصر صاحت العوام: نصره الله.. نصره الله! وكررت ذلـك، وقرأ فلما وصل إلى ذكر الملـك المظفر صاحوا: لا.. ما نريده! ووقع في القاهرة ضجة وحركة بسبب ذلك[19].

---

(19) ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص210.

كان ذلك المشهد أمراً غير معهود على سكان القاهرة، الذين طالما كانوا أتباعاً مطيعين لرجال الدين، ولم يعهد فيهم ميلاً إلى تمرد أو عصيان، لكن ما كان يجري في تلك الأيام أمر غريب، فالمدينة الوادعة المستكينة تخلع ثوب الاستسلام، وتضع رداء التمرد والغضب، حتى العامة والفقراء ارتفع صوتهم بالرفض والشكوى، لم أكن أصدق ما أرى، ولم يكن أحد يتخيل أن يقوم الناس بما فعلوا فيرفضوا أمر الخليفة العباسي، ويهتفوا باسم سلطان رحل عن عرشه، ويتحدوا ملكاً لايزال في يده كل القوة الكافية لقهرهم وردعهم، وعندما بلغ ذلك للشيخ ابن عطاء الله لم يستطع أن يكتم دهشته، وردد آية وحيدة، ظل يكررها {يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء}، تركته في ذلك اليوم ونزلت أواصل البحث عن ثورتي بين الناس، وقد بلغ الغضب في ذلك اليوم أقصاه، وكان إصرار الناس على الوصول إلى القلعة أقوى من كل جنود الجاشنكير وأسلحة المماليك.

بعد عصر ذلك اليوم تجمع خلق كثير عند ساحة الدراسة، وهجموا هجمة هائلة على الجنود، فتشتت جمع العسكر، ووجد الناس أنفسهم في طريق خالية من المتاريس إلى القلعة، ووصلت طلائعهم بالفعل إلى أسوار القلعة، وبعد قليل زاد العدد، حتى بدا أن الناس تحاصر القلعة من كل اتجاه، وخرج جنود يستطلعون الموقف، ولم يتحرك أحد، ولم تفتح أبواب القلعة مثل المرات السابقة لتقذف بالجنود والخيول في وجه الغاضبين، لكنها ظلت مغلقة، تخفي وراءها تحركات مرتبكة لا نراها، لكنها في الوقت ذاته تمنحنا إحساساً مضاعفاً بالقوة، فطالما أنها مغلقة فنحن في أمان.

علا هتاف الناس وزاد حماسهم، وأخذوا يهتفون بسقوط الجاشنكير

ورحيلــه، وظنــوا أنهم ســيبقون بتلك القوة إلى الأبــد، لكن قبيل نزول الليل انفتحت أبواب القلعة على حين غفلة من الناس، وخرج عشــرات الفرســان، فأعملوا دون ســابق إنذار القتل والطعن في كل من تطالهم الســيوف والرماح، كانوا يريدون حســماً سريعاً لمعركة غير متكافئة، وسقط خلق كثير في تلك الحملة القاتلة.

وبينمــا كنت أتابع مذهولة ما يجــري، والرؤوس والأذرع تتطاير مــن حولي في كل مكان، قــررت فجأة أن أرفع صوتــي بالغناء، فهو ســلاحي الوحيد الذي يمكنني اســتخدامه في كل حين، لم أكن على ثقة بأن ســلاحي الذي صمد في وجه كل الحملات السابقة يمكن أن يصمد أمــام تلــك الهجمة العنيفة، لكــن لم يكن أمامي من ســبيل، فإما الموت صمتاً وإما الموت شاهرة صوتي، وقد اخترت الموت الأخير.

رفعــتُ صوتــي بالغناء، وبدا أن ســاحة القتل المشــحونة بالخوف والصرخات والأشلاء المتطايرة قررت فجأة أن تنصت لي، في لحظة شــعرتُ بأن العالم يتوقف عند حافة صوتي، وأخذ ينصت وســط أنين المحتضرين وأصوات العظم المتكســر، وصرخــات الهلع الهائلة إلى صوت امرأة لم تكن تملك أمام الموت إلا أن تغني.

وكأن معجزة كانت على وشــك الحدوث، فمن بين الأشلاء والدمار والموت المحدق، أخذ الناس يغنون، تختلط دموعهم ودماؤهم بأصوات غنائهم:

وكيف تمشي به الأحوال في زمنٍ

لا النــيل وافــى ولا وافــهم مـطرُ

ومن يقوم ابن عدلانٍ بنصرته
وابن المرحل قل لي كيف ينتصرُ؟!

كان الغناء هو بداية العاصفة التي تكونت في عقول وأجساد الضعفاء، اندفعوا هادرين بالغناء والهتاف، القتلى يحاصرون القتلة، اليد المقطوعة تمزق السيف، والرأس المتطاير ينتقم من المقصلة، إنها معجزة حقيقية، الناس بأجسادهم يحاصرون الجنود ويجبرونهم على الفرار، حتى شهوة القتل لها حد، حتى النهم للدماء لا يمكن أن يتحدى الرغبة العارمة في التحرر، أراقب ما يجري مشدوهة، الجنود يفرون إلى القلعة والناس تطاردهم بأكفّ وصدور عارية، سلاحهم الهتاف والحجارة، انتصر المظلوم، وتراجع الظالم، إرادة الحق يعلو صوتها، ومعها غنائي، وفي اللحظة التي وصلت فيها قمة حماسي، وكاد صوتي يمزق كل الحجب، فوجئت بقدر أسود يندفع كصخرة هائلة من فوق المقطم نحوي، أحد فرسان المماليك أبى أن ينهزم أمام صوت امرأة، فعاد مندفعاً كموت هادر ممتطياً جواده يريد قتلي، أصابتني المفاجأة بشلل تام، إنه الموت لا محالة، لا مجال للفرار أو لتفادي القدر الهادر في سنابك ذلك الفرس الجامح أو بنصل فارسه، هي النهاية إذاً، فمرحباً بالموت وهو يأتيني بيد ظالمة، بينما صوتي لايزال يتردد في السماء، يشعل الثورة في قلوب المظلومين، ويحاصر الظالمين، الغناء كان سلاحي الوحيد، ولم يخذلني يوماً، لكنه في تلك اللحظة لم يكن كافياً لتفادي ضربة من سيف لا يفرق بين عنق عدو، ورقبة مظلوم، فلتأتِ أيها الموت، فقد كنت أنتظرك في كل حين، وما أسعدني إذ تأتيني وسط زهو الحرية.

لكن يبدو أن القدر لم يرد حتى أن يمنحني موتاً أرغبه، أبى أن يريحني أو يهديني نهاية سعيدة، ففي تلك اللحظة التي مال فيها الفارس

ليهوي بسـيفه علـى عنقي، والموت قيد أنملة منـي، اندفعت قوة هائلة نحـوي وألقـت بي علـى الأرض بعيـداً عن عناقي الأخير مع سـيف المنون، وتلقت هي الضربة عني.

مـن بين التراب الذي تلقانـي، والذهول الذي احتواني، نظرتُ إلى مـن أنقذني، فتمنيـت لحظتها أن يكون الموت مـن نصيبي، تمنيت لو تعيننـي قدماي على الوقوف مجدداً لأنادي ذلك الفارس الأسـود ليعود مجـدداً ويطيح برأسـي، فقد كان المـوت أهون مما سـألاقيه بعد تلك اللحظة.

حاولت القيام فخانتني قدماي، أخذت أزحف نحو ذلك الجسد الذي تلقى ضربة القدر عنـي، كنت أعرفه جيداً، زحفت وزحفت وزحفت، الخطوات التي تفصلني عن ذلك الجسد لا أريدها أن تنتهي، لا أريد أن أواجه الحقيقة التي أعرفها – يا لندمي – جيداً.

أيها القدر ما أقساك، وما أشد طعنتك....

أخيراً وصلتُ..

ويا لحزني...

كانت الحقيقة القاتلة في انتظاري

في انتظاري وحدي، بلا رفيق ولا معين على مواجهتها..

فقد كانت الرفيق والمعين مقتولة بين يدي بدلاً مني....

ورد هـي من تلقـت يدي القدر عنـي وتركت لي دمهـا يقطر بين أصابعي، ويتسلل إلى أعماق روحي ليغرقها...

أهكذا يا ورد ترحلين بغير وداع؟؟

لا تكفيني تلك النظرة المستسلمة في عينيك وداعاً...

لن أغلق عينيك، فأنا أعرف أنك ترينني وتسمعين...

لا ترحلي... وتتركيني..

انظري إليّ، وامنحيني إحساساً ولو كاذباً بأنك مازلتِ معي..

لا ترحلي وحدك... لقد عشنا سويا، ومن الخيانة أن تتركيني وحدي..

ورد.... ورد... ورد!!!

أجيبيني...

ألم تكتفِ أيها الموت بمن أخذت من حولي،

اترك لي ورد...

خذني قرباناً لبقائها، فلا ذنب لها في شيء... أنا المذنبة الوحيدة

أعترف لك أيها الموت بالدهاء والقدرة.... لقد عرفت كيف تقتل روحين بضربة واحدة.

أيها السيف الذي اغتالني دون أن يمسني، كيف جرؤت على أن تقتل تلك البراءة؟!

أية دموع يمكن أن أذرفها حزناً عليكِ، وقد بذلتِ من أجلي دمك؟!

مـا أرخص حياتي اليوم وهي لا تستطيع أن تعيد إليك روحك، يا

أصدق من عرفت، وأنقى من عرفني.

ما أهون الحياة وأنتِ لست بها، وما أقسى الوجود بغير حضورك.

أي ضياع ينتظرني؟ وأي فراغ سيملؤني بعد غيابك؟؟

يا لروعة الموت إن كان معك.. ويالفداحة الحياة من دونك!!

(38)

القاهرة، 25 يناير 2011

لم أكن قد التقيت ريم منذ آخر لقاء قبل سفري الأخير، وعندما اتصلت بها فور عودتي وجدتها مشغولة بدعوة للتظاهر في ذكرى الاحتفال بعيد الشرطة، والترتيب لخروج كبير للتنديد بتجاوزات المؤسسات الأمنية، تحفظت كثيراً وهي تحدثني عن المشاركة في تلك التظاهرة، لكنني أبديت رغبة حقيقية في المشاركة، رغم ما عانيته في التجربة الأخيرة، اتفقنا على اللقاء في وسط البلد بعد ظهر يوم الثلاثاء 25 يناير، للمشاركة في إحدى المسيرات التي ستتجه من أمام دار القضاء العالي نحو ميدان التحرير، توقعت أن ينتهي الأمر خلال ساعتين أو ثلاث بعدها نجد متسعاً من الوقت لأروي لها تفاصيل رحلتي الأخيرة.

في الطريق إلى وسط القاهرة، كنت أمر عبر شارع جامعة الدول العربية، توقعت أن أجد حركة السير ميسرة نظراً لكون اليوم إجازة رسمية، لكن الزحام وتوقف حركة المرور كان غير متوقع، نزل الركاب من السيارات لتفقد الأمر، كانت كل المسارات في اتجاه ميدان «مصطفى محمود» الشهير بوسط الشارع متوقفة تماماً، من بعيد رأيت

سـيارات كبيرة لجنود الأمن المركـزي متمركزة بالقرب من الميدان، استشـعرت القلق، لم أكن أعلم أن تظاهرة سـتخرج مـن هذا المكان، سـرت على قدمي باتجاه الميدان، فرأيت مجموعة صغيرة لا يتجاوز عددها العشـرات من الشـباب تهتف بشـعارات مناهضة لممارسـات الشـرطة، وللتوريث وغيرها من تلك الشعارات التي اشتهرت في تلك الفترة، كان رجال الشـرطة يقفون في حذر وترقب على مسـافة غير بعيـدة من الميدان، وكان واضحاً أنهم لا يريدون التصعيد من جانبهم، مـرت دقائق أخرى، والأعداد تتزايد باطراد، حتى صار التجمع يضم بضع مئات، وبدأ يتحرك، لا أحد يعلم إلى أين، لكن الواضح أن رغبة في التحرك نحو مكان ما قد سيطرت على الجميع، فلم يعد بإمكان أحد الاستمرار في الوقوف بتلك الصورة، وبدأ التجمع في اتخاذ طريقه نحو وسـط القاهرة، لكن قوات الأمن المركزي سارعت في ضرب حصار قـوي حول تجمع المتظاهرين وبدأت تدفعه دون اشـتباك نحو الاتجاه الآخـر بعيداً عن مقصده، حاول المتظاهرون، وكان معظمهم شـباباً، أن يواصلوا السـير نحو هدفهم، لكن مقاومة الجنود وتكتلهم الجسـدي كان أقوى، وبدأ الجمع يسـتجيب تحت الضغط إلى التراجع أمام جنود الأمن، حتى وصل إلى قرب نهاية شـارع جامعة الدول العربية، قرب منزل أحد الجسور القادمة من حي «بولاق الدكرور» الشعبي، وهناك توقف المتظاهرون ربما خشية انفجار الموقف من جانبهم أو من جانب الجنود، وفي تلك اللحظات لمحتُ ذلك الضابط الذي التقيته في معسكر الأمـن المركزي، والذي تولى التحقيق معي وإطلاق سـراحي بعدها، كان يقـف بزي مدني على مقربة من الحشـد، يتابـع ما يجري بعيون قلقة، كنت في تلك اللحظة أقف على أحد أرصفة الطريق الجانبية أتابع ما يجري، فاتجهت إليه وكان يقف على بعد خطوات مني، لماذا رغبت

في الحديث إليه، لا أدري، ربما استفزتني كلماته الأخيرة وهو يعدني بأن نلتقي مجدداً في مكتبي ليشرب عندي فنجاناً من القهوة، كنت أستشعر في كلماته قدراً هائلاً من الثقة بل والغرور، لكنني في تلك اللحظات استشعرت حجم ما يعانيه من قلق، وقد زالت عنه تلك الثقة المتعالية، ربما فوجئ بوجودي في ذلك المكان، سلّمت عليه بهدوء، وكان ينظر إلى حشد المتظاهرين وعملية التدافع المتبادلة مع جنود الأمن المركزي، فاجأني بإجابة عن سؤال لم أنطق به:

عارفين إن الناس تعبانة، بس ماذا نفعل؟! نحن عبد المأمور.

في تلك اللحظات حدث أمر لم يتوقعه أحد، فقد تدفق الجسر القادم من «بولاق» بحشود من المتظاهرين الذين كانوا يحملون أيضاً الأعلام، ويهتفون لتشجيع الناس على النزول معهم، وإذا بالموقف يختلف فجأة، فقد التف المتظاهرون حول جنود الأمن المركزي، وعلا الهتاف، وأخذت الحناجر تصدح بهتافات شتى: «علي وعلي وعلي الصوت.. اللي هايهتف مش هايموت»، «يا جمال قول لأبوك.. شعب مصر بيكرهوك»، «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية»، كانت الهتافات تخرج مدوية بلا تنسيق، تتقاطع الكلمات، وتتداخل الحروف، لكن صوت الصراخ كان مدوياً، كأن كل متظاهر يطلق هتافاً فريداً، خاصاً به، لكن الهتافات تتمازج في النهاية كلحن واحد، يقتحم الآذان.

كان واضحاً في تلك اللحظة أن استمرار جنود الأمن في المقاومة سيكون أمراً عبثياً، فأعداد المتظاهرين تضاعفت بشكل لا يصدق، وصاروا هم من يحتوون الجنود ويوجهونهم أينما أرادوا، وبدا المشهد مفاجئاً عندما بدأ أناس عاديون يتركون سياراتهم وينضمون إلى

التظاهرة، وينزل آخرون من بيوتهم بعدما رأوا المشهد من شرفات منازلهم ليلتحقوا بالحشود التي علا صوتها وصار يقتحم كل أفق، لم يكن أمام قوات الأمن سوى الانسحاب، فالتحمت كتل المتظاهرين وبدؤوا للمرة الأولى يتحكمون في حركتهم دون أية عوائق، وعادت المسيرة تتخذ اتجاهها الأول نحو وسط القاهرة، حيث كان مقرراً أن تلتقي كافة المسيرات، في «ميدان التحرير»، في تلك اللحظة وجدتني أصافح ذلك الضابط بانفعال شديد، ولا بد أنني كنت مبتسماً عندما أكدت على دعوته التي لم أوجهها له بأن نشرب سوياً فنجان قهوة، لكن ليس في مكتبي، وإنما في «ميدان التحرير»!

كان حقاً يوماً للدهشة...

القاهرة المختنقة دوماً بطوابير سياراتها التي لا تنتهي، تسير فرحة اليوم على أقدامها، وكأنما تكتشف – كطفلة – وقع خطواتها للمرة الأولى على الأرض.

الناس تنزل من بيوتها، وتغادر سياراتها في الشوارع لتلتحق بمسيرة الغاضبين نحو ميدان التحرير، وكأنهم يبحثون عن شيء ضائع منذ زمن، وفجأة وجدوه.

وجوه تتابع من الشرفات وتتعجب، ثم لا تلبث أن تراها في الشوارع بعد دقائق، وكأنما القاهرة كلها قررت أن تخرج عن صمتها الأبدي، وتنزل إلى الشوارع بعد طول احتباس وراء الجدران. كأنما تريد للجميع أن يراها، وألا تنتهي مسيرة الاستعراض الحماسية التي لم يتصور أحد أن تكون بتلك الصورة.

وجـوه متباينة، وأعمار متفاوتة، ومسـتويات اقتصادية واجتماعية مختلفة، لا شـيء يجمعهم سوى البحث عن حلم مفقود، وكأن كلاً منهم ذهب يبحث عن ثورته، عن أمر نسـيه أو تناسـاه لسـنوات، وقرر أن يخرج اليوم لملاقاته، كل واحد من هؤلاء السائرين بفرح خفي، وبثقة بادية جاء ليبحث عن نفسـه التائهة بين الجموع، بلا موعد مسـبق أو ترتيب، حتى أولئك الذين رتبوا ونظموا، ضاعوا بين الحشـود التي لم يتوقعوها، لم يتخيلوا يوماً ذلك النزول الكبير، فضاعوا هم أنفسهم بين الصفوف التي باتت هي التي تقودهم، إلى مصير لا يعرفه أحد، وكأن يد القدر هي من تقود الجميع إلى مجهول، نترقبه، لكن لا يبدو أن أحداً يمكن أن يتراجع عن ملاقاته.

كادت بشائر المسيرة تصل «ميدان التحرير»، بدت ملامحه وكأنه يلـوح للقادمين من بعيد من فوق «كوبـري قصر النيل»، بدا النيل في ذلك اليوم الشـتوي الدافئ أنشـط من المعتاد، وكأنه يخرج عن صمته الأبـدي، ليحيي العابرين من فوقه، باتجاه الميدان الرابض على مقربة منـه منذ ما يزيد على مئتي عـام، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر دون أن يلتقيا، لكن الأقدام المتحمسـة توقفت فجأة، وبلا سبب واضح، وبينمـا كانت الصفوف الأخيـرة تواصل تدفقها مـن كل اتجاه، كانت الصفـوف الأولى وحدها تعـرف الحقيقة، فقد قررت الشـرطة حظر الدخول إلـى الميدان في ذلك اليوم، وكأنها تقول للجميع إن انتصارهم الـذي استشـعروه عند انطلاقتهم لم يكن سـوى نصـر زائف، مؤقت، وإنها السلطة بجنودها هي من تقرر متى يتحركون وأين يقفون.

طالت الحيرة وارتبكت الصفوف، وعلت الهتافات، كان كل طرف يأبـى التراجـع، الجميع يعلـم أن موقفه لا يمكن أن يمـر بلا ثمن، في

تلك اللحظــة تذكرت الاتصال بريم، لأعرف أيــن توجد؟ أجابتني بعد عــدة اتصالات بأن جنــود الأمن المركزي يقفون عنــد مدخل «ميدان التحرير» من ميدان «عبدالمنعم رياض» ليحولوا دون دخول المسيرة القادمــة مــن عند دار القضــاء العالي إلــى الميدان، وكذلــك فعلوا مع المســيرات القادمة من «السيدة زينب» ومن «شبرا»، وأن كل مداخل الميدان صارت الآن مغلقة بحشود كثيفة من الجنود المتأهبين للصدام.

لم يطل المشهد كثيراً، فقد بدأت سحابات الدخان تتسلل نحو الأفق، كانــت قادمة من اتجاه شــارع قصر العيني وحملتها الريح إلى وســط الميــدان، وكأنها إشــارة من تلك اليد العليا التي تســيّر الأمور في ذلك اليوم المشهود، تحركت كل المسيرات في لحظة غضب واحدة، فتكرر ذلك المشــهد، حاصــرت جموع الناس أرتال الجنــود، وباتت تحركهم أمامها، وكأنها لا ترى سوى اتجاه واحد لا يعرف طريق العودة، اتجاه نحو الميدان، وهي مصممة على الوصول إليه بأي ثمن، ولم تفلح قنابل الدخان، ولا قوة أجساد الجنود في الصمود أمام ذلك الطوفان البشري، الذي أعلــن إرادته، وانتصر لهــا أخيراً، وتنحت أرتــال الجنود جانباً لتفتح المجال أمام تدفق غير مســبوق لعشــرات الآلاف من المصريين الذيــن طالما مروا بذلك الميدان، ولم يتخيلوا أنه ســيكون يوماً ســاحة لموعد مع قدر يصنعونه بأنفسهم، ويعانقون فيه أحلامهم المهدورة.

مشــهد الآلاف وهم يتدفقون نحو الميدان بدا مهيباً مدهشاً، في زمن تخلــى عــن قدرته على الإدهاش منذ عقود، الجميــع يدخل الميدان من اتجاهات شــتى، وكأنهم يهرولون نحو بيتهم المفتقد منذ سنوات بعيدة، الشــارع لنا... والميدان لنا، الفرحة هي العنــوان، الهتافات هي العملة المتداولــة في ذلــك اليوم المفاجئ، المتمرد على كل توقع أو حســاب،

الخــارج من رحم المفاجأة للتوّ، طازجاً نقياً، غريباً، لا يعرف مقاييس الحساب، ولا يشبه وجوهاً شاخت، كانت الجموع تحتفل قبل أن تحتج، تحتفل بإزاحة شــيء ثقيل ظل جاثماً فوق الأكتاف والصدور لسنوات، لـم يكن أحد يعـرف ما هو على وجـه التحديد، ربمــا الخوف، وربما الصمت، وربما كلاهما، لكن ما كان مؤكداً في تلك اللحظة أن الميدان صــار عنواناً لفرحــة لم تتكرر كثيراً في حياة مصــر، وقد بدا الميدان نفسه فرحاً باستعادة سمعته وحقيقة اسمه.. ميدان التحرير!

فــي تلك الســاعات أخذت أبحث عنها، كنت أشــعر بأننــي أفتقدها كثيــراً، أحس أنني يجب أن أكــون إلى جوارها، صرت أطوف أرجاء الميــدان الذي بدا لي في تلك اللحظات أوســع كثيــراً من المعتاد، أكبر من أحتويه أو أطوف في أركانه، برغم الآلاف المحتشدة في كل اتجاه كان الميــدان أكبر من كل مرة رأيته فيهــا، كل اتصالاتي بريم لم تتم، يبــدو أن الجميع يتحدث مــع الجميع، أمر ما غير معتاد جعل التواصل عبر الهواتف المحمولة مســألة صعبة، لم يكن أمامي من بديل ســوى البحــث عنها فــي كل مكان، كنت على يقين لا أعلــم مصدره أنها هي أيضــاً تبحــث عني، آدم وحواء في رحلة بحث عـن ذاتهما، كل منهما يبحــث عن نصفه الآخر، رغــم آلاف الواقفين في كل مكان أبحث عن وجه واحد، لا أرى غيره، ولا أستشعر سواه، أين يمكن أن تكون؟ كل مداخل الميدان تتدفق بالبشــر، كل المساحات تشغلها أجساد المحتجين، الجميــع يتحــرك في كل اتجــاه، الميــدان ككوكب يحيــط الناس، وهم يطوفــون بداخلــه وحوله، الجميع يدور حول مركــز غامض، في تلك اللحظــة كنت قــد وصلت إلى مركــز الميدان، إلى موقــع «كعكة أمل دنقــل الحجرية»، في تلك البقعة التي شــهدت قبل ســنوات بعيدة تناثر

أحلام جيل في تحرير الأرض، وانتظر عدة سنوات حتى تحقق الحلم، وهـا هي الأحلام تعـود لإحياء تلك الكعكة التي لم تعد حجرية، ها هي الأحلام تتناثر حولها مجدداً، لكن أحداً لا يعلم هل تنتظر سـنوات حتى تتحقق؟!

في تلك البقعة على وجه التحديد أحسسـت أنني سـألتقيها، شـعور غامض دفعني إليها، كانت هي أيضاً تبحث عني، ملامحها القلقة دائماً، وعيونها المتقدة كانت تمسـح المكان في ترقب وانتظار، هل شـعرت هـي أيضاً أنها سـتلتقيني في هذا المكان أيضاً، ربما، فالقلوب سـرّ لا نحيـط بـه، وإنما يحيط بنـا، وعندما وجدتها، شـعرت بأنني اكتملت، وجـدت أخيراً غايتـي، وتحقق حلمي، ونجحـت ثورتي، وجدت ذاتي المفقودة، حين وجدتها.

«أحبك»...

لا أعرف من منا قالها أولاً، لكننا قلناها أخيراً.

هل كنا بانتظار أن يحدث كل ذلك حتى نعترف بها؟ كنت أحس أنني أشـعر بها منذ قرون، وأن ذلك الكنـز المخبوء بداخلي ينتظر الفرصة المناسـبة ليعلن عن نفسـه، لينفض عنه غبار الصمـت الثقيل وينطق، هـل كان القلب، كالوطن، يخشـى أن يعلن عـن حبه، أو غضبه، أكان القلب ينتظر أن يقتل بداخله الخوف، حتى يفسـح مساحة للحب؟ ربما، فالخوف والحب خصمان لا يجتمعان معاً، ولا ينتفيان معاً!

فـي تلك الليلة التقيت وجوهاً من الماضي، تخيلتُ أناسـاً يأتون من أعمـاق الذاكرة يجلسـون معنا، يحتفلـون بانهيار آخر جـدار للخوف

يحاصر بستان الوطن، يهنئون الناس ويصافحونهم بأكفّ وهمية بيضٍ، تخيلت تماثيل الفراعنة الراقدة على بعد خطوات منا تزحف نحو الميدان لتشاركنا احتفالاتنا، تمد أيديها معنا وتتناول قطع السميط بالدقة والجبن، وتبارك لي وريم حبنا الوليد.

حتى وجه تلك المرأة المملوكية الغامضة عاودني يعد غياب، لم أكن ساعتها أحلم، بل كنت متيقظاً، لكنها كانت حاضرة معنا، تشاركنا الهتاف والغناء، كأنني أستمع إلى صوتها، أنصت للحنها الشجي، كانت رغم حماستها مشبعة بحزن غريب، لكنها تصرّ على الحضور، أشعر بها تجلس إلى جواري، ثم تنتقل سريعاً عبر أرجاء الميدان، كأنما تمارس حريتها للمرة الأولى، كان نوعاً من الجنون، لكنني كنت على ثقة بأنها موجودة، فما يجري من حولي لم يكن سوى جنون خالص، فالعقل لا يصمد طويلاً أمام تلك الفرحة العاتية.

لم يكن يعنيني وريم ماذا سيحدث بعد ذلك، كلها تفاصيل لا تشغلنا، فبالنسبة إلينا نجحت ثورتنا، نجحنا في أن نجد ذاتنا، أن نكسر كل حواجز الصمت والخوف التي حاصرتنا منذ سنوات بعيدة، لم أكن أهتم كثيراً بما يتردد من حولي من أفكار وردود فعل وتحليلات، كل تلك التفاصيل حقاً لم تكن تعنيني، لقد نزلتُ إلى هنا بحثاً عن ثورتي الخاصة، وقد أشعلتها، وأظنها نجحت، حتى ولو لم يتحقق شيء سوى أن يكسر الناس حاجز الخوف، فقد كان ذلك كافياً جداً بالنسبة إليّ، فالخوف هو أداة الاستعباد التي لا يمسك بها أحد، فقد يعطونها للناس وهم يقيدون بها أنفسهم، وتظل تطوق أعناقهم حقيقة أو وهماً، وربما يكتشف الناس بعد حين أن القبضة التي كانوا يخالونها حديدية لا تلين، إنما هي يد ورقية هشة، سرعان ما تنكسر وتتكرمش وتهوي على

الأرض، لتعصف بها الريح، المهم أن نمتلك جسارة أن نزيح الطوق عن رقابنا، وبعد ذلك كل أمر سهل.

لم نكن نريد لتلك الساعات أن تنتهي، كان انتصاراً لا حدود له، وفرحة يصعب على القلب والعقل أن يحتوياها، كنا نطوف على بعض الأصدقاء نهنئ بعضنا بعضاً، حتى من لا نعرفهم كنا نهنئهم، نحتضنهم وكأننا انتهينا من حسم المعركة للتوّ، لم نكن ندرك أن المعركة قد بدأت، وأنها ستكون معركة غير متكافئة، فمع دخول الليل، بدا أن هناك تحركات ما لا نراها ولا ندركها، فلم يكن انسحاب جنود الشرطة سوى «تكتيك»، وسرعان ما قررت الشرطة أن تخلي الميدان ممن فيه بأي ثمن، وبدأ الهجوم عند منتصف الليل، تدفقت الجنود ككتل الليل المظلم، تحت جنح الظلام، وقد أطفئت أنوار الميدان عمداً للتغطية على تسلل تلك الكتل، وانهالت قنابل الدخان وطلقات الخرطوش وخراطيم المياه من كل اتجاه، كانت بالفعل معركة غير متكافئة، انسحب الناس بعد ساعات الاحتفال في الميدان، ومن تبقوا لم يكونوا بقادرين على الصمود، وعند الفجر، كنا نودع الميدان الذي بدا مع بشائر ضوء النهار ساحة معركة، لم تدم فيها الانتصارات طويلاً، ولم تحسم عليها نتائج المواجهة، فالمواجهة الكبرى لم يحن وقتها بعد.

خرجتُ وريم ومجموعة من الأصدقاء نعاني حالة اختناق شديدة جراء الإلقاء الكثيف لقنابل الدخان، كانت أعيننا ملتهبة، وصدورنا تكاد تنفجر، نعاني إرهاقاً شديداً، لكننا رغم كل ذلك كنا على ثقة بأننا عائدون سريعاً إلى الميدان، فلحظات الانتصار التي كان ذلك الميدان شاهداً عليها لا يمكن أن نتخلى عنها بسهولة.

انسحبتُ وريم من الميدان في خطوات وئيدة، كنا نتكئ على بعضنا البعـض، نظرتُ خلفي، كانت أرض الميدان مليئة بمخلفات المواجهة، لكنني رأيت بين الركام أشلاء الخوف ممزقة... فابتسمت.

(39)

القاهرة في ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

كان مقتل ورد أقوى من احتمالي، كانت حقاً روحي التي تلازمني في كل الملمات، الحضن الذي يأويني عند الألم، واليد التي تحنو عند الوجع.

كيف لي أن أبقى بعد رحيلها، وهي العين التي بها أرى، والروح التي بها أحيا.

يا لحزني عليك يا ورد... يا لطعنتي فيك يا أختاه.

فقدت الأهل، فعوضني الله بك، وفقدت الزوج والابن، فكنت إلى جواري تخففين عني مصيبتي، فمن يعينني على احتمال مصيبتي فيك.

في لحظات انهياري واستسلامي كنتِ أنت السند، ترين بقلبك ما لا أراه بعقلي.

أضعف، فأجدك إلى جواري، أتقوّى بروحك، أستمد منك القدرة على الصمود في وجه ظُلّامي.

أأحملك بين يدي، أم أحمل روحي القتيلة؟

أهذا الدم النازف دمك، أم قلبي الجريح؟

أغمض عينيك بيدي، فتظلم الدنيا في وجهي!

لا أصدق أنني أحمل مع الناس جسدك، أين أذهب بجريمتي، كيف أواريكِ لأستر خيبتي ومصيبتي؟

لا أدري أين أذهب بجسدك المذبوح، يسألني الناس أين بيتها، فأجيبهم.. أنا!

يسألني الناس، من أهلها، فأجيبهم.. أنا!

لا يصدقني الناس، يظنونني جننت، لا يعرفونك أو يعرفوني، لا يدركون أنك كنت بيتي، وأنا بيتك، أنت أهلي، وأنا أهلك، كيف يفهمون وهم لم يعرفوك أو يعرفوني، وحدي أحمل خطيئتي وجرمي، يا من منحتني كل شيء، فلم أمنحك سوى التشريد، ومن بعده الذبح.

أعطيتني حياتك، فمنحتك موتاً.

لم أجد مكاناً أذهب إليه بجسدك، كنت مثل ابن آدم الذي ضاقت به الأرض فلم يعرف كيف يواري سوأة أخيه، ضائعة لا أعرف كيف أواري فيكِ سوأتي؟

بغير وعي وجدتني أذهب بكِ إلى التكية، فلا بيت لي تخرج منه جنازتك، ولا بيت لك يمكن أن يودعك في رحلتك الأخيرة، هكذا يا أختاه قدرنا أن نعيش في هذه الدنيا غرباء، ننام في بيوت ليست لنا، وتودعنا بيوت لا تعرفنا.

وقف الحشد الذي يحمل جسدك أمام التكية، الأبواب التي لا تفتح

إلا لمن تعرفه، فتحت أحضانها للجميع، كأنما كانت تتوقع مجيئك، وسط التكية وضعوا جسدك الملفوف بالحزن، الصمت المحلق فوق كل شيء هو عملة العزاء التي تتبادلها الوجوه الدامعة، رأيت الموت كثيراً، لكنني لم أرَ موتاً بتلك القداسة، هل يستمد الموت قيمته من القاتل أم من القتيل؟

فتحت صفوف المتحلقين حول جثمانك، كانت خطوات وئيدة، مرتعشة تتحرك باتجاهنا، من وراء ستائر دمعي، رأيت وجهه الحزين، ملامحه الدامعة في وقار وتماسك يحسد عليهما، أهذا هو الصبر أم لأنه لا يعرفك، ولكن كل الواقفين حول جسدك الآن لا يعرفونك، وحدي أنا أعرفك لدرجة الألم، الشيخ ابن عطاء الله جاء يستقبلك أو يودعك، نزل الرجل من عزلته من أجلك، وقف بين الجموع صامتاً، لكنني كنت أستمع إلى نهنهة قلبه، يبكيك مثلي، فلمثل هؤلاء الرجال قلوب كأفئدة الطير.

سريعة مرت مراسم دفنك، بطيئة تعبرني أمواج حزني، تبدأ وتعود فتسحقني جيئة وذهاباً، في أول اليوم خرجت إلى جوارك نغني من أجل الحرية، وفي ختامه عدتُ دونك أكابد أحزاني عليكِ، تمنيت لو أكون إلى جوارك، ولو في قبر، لكنها أمنية مستحيلة، على الأقل حالياً، فالقدر لم يحن عليّ بعد ليمنحني موتاً إلى جوارك، وربما كان لايزال في قصتي بقية.

عدتُ إلى التكية امرأة مهزومة، غير تلك التي كنتها في الصباح، امرأة الصباح التي كانت تصدحُ بأغنيات تتحدى السلطان، وتحرض الناس على الثورة، لا تشبه أبداً تلك المرأة المكلومة التي خسرت

في لحظـــة روحها، ورغبتها في الحياة، وكأن يـداً اختطفت في لحظة صوتها، ولم تترك لها سوى القدرة على الصراخ ألماً وندماً.

هــا أنا أيهــا القدر أستســلم، وأعلن هزيمتي الأخيــرة، فتعالَ لتنتقم انتقامــك الأخيــر مني، فما دمت أنا التي أعلنــت التحدي، فلماذا تذهب بعيداً وتعذب غيري؟! تعالَ إليّ أيها القدر، لن أقاوم بعد اليوم، لن أرفع صوتي باعتراض أو حتى بألم، يمكنك أن تذبحني مرة بعد أخرى، ولن تجد مني سوى جسد مستسلم وروح مهزومة، بلا مقاومة أو رغبة في الهرب، فتلك الروح السـلبية لم تعد هنا، حلقت بعيداَ، وتركتني وحيدة أواجــه حزني وندمي، فالندم – لعمري – عقوبة أشــد إيلاماً من الجلد أو حتى من الإعدام.

أيها القدر، ترفّق بي، ارحمني من أحزاني، وأنقذني من الندم.

فهل تستجيب لندائي الأخير..

أم تبخل عليّ بموت رحيم؟!

(40)

القاهرة، فبراير 2011

على حافة الخطر والأمل، وفي سبيل البحث عن لحظة انتصار كنا نسير كل يوم نحو الميدان، تتكرر المناوشات، يقترب الحلم، ثم يبتعد، لكنه يبقى حياً يداعب العيون والقلوب.

كثيرة هي الأحداث التي شهدها الميدان منذ عصر يوم 25 يناير وما بعده، حتى باتت تلك اللحظة التي تدفقت فيها الجموع من كل اتجاه بداية لتاريخ جديد يكتبه الناس بأجسادهم، وحناجرهم، ومن قبلها بدمائهم.

لاتزال المشاهد والمواقف تتدفق على الذاكرة، ما بين «جمعة الغضب»، و«موقعة الجمل»، وما تلا ذلك من أحداث كثيرة وكبيرة عاشها الملايين على أعصابهم، ودفع خلالها كثيرون حياتهم، وتاجر بها أيضاً كثيرون لمصالحهم.

كانت الأحداث تجري بنا ككتلة لهب تتدحرج من أعلى تل، تلتهم كل ما يقابلها، تصهر كل من يحاول أن يوقفها، اندفعت في اتجاهات شتى، منحت النور لبعض الأماكن المظلمة، لكنها أحرقت في الطريق

كثيراً مما لم يكن ينبغي أن يتأذى، لكنها في النهاية قوانين اللهب والثورات.

أستطيع اليوم أن أكتب آلاف الصفحات عما جرى في تلك الأيام التي لا تنسى، والتي استحالت إلى ذكريات، محفورة في العقول والقلوب وعلى الجدران بالدم والدموع والهتافات.

أستطيع أن أكتب عن قصص الحب التي ولدت في الميدان، وعن أقنعة الزيف التي سقطت على أرضه، عن لحظات القلق والخوف، الموت والسعادة، الألم والنشوة، إحساس الفجر تحت برد يناير، ودفء الأرض التي تحتضن الجميع بلا تفرقة، عن تلك اليد التي سحقتها أقدام الجنود في الميدان يوماً ما، فامتدت بعدها لتساعد أحد جنود الأمن المركزي أو تحميهم من انتقام أحمق، وانفعال موتور من جانب البعض.

كل من جاء إلى الميدان، وبخاصة في أيامه الأولى، جاء ليبحث عن انتصاره الشخصي، أو حتى عن ثأره الشخصي، لكن وفي الطريق للبحث عما هو شخصي، كان على الجميع أن يركب قطار الوطن، هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى محطة تحقيق الأحلام.

أتذكر تلك الأيام، فيبدو الأمس حلماً طازجاً، يغزو أعماقي للمرة المليون، لكنني لا أمل من استعادته بنفس الحماس والحب، وأتذكر ما تلا ذلك من خيبات، فأشعر بالحسرة سكيناً يحز رقبة الحلم بيد لا ترحم.

لكن مشهد ليلة 11 فبراير يأبى أن يتوارى في أركان الذاكرة، لم أتمالك نفسي من الفرحة في تلك الليلة، رقصنا جميعاً، كنا سكارى

بالفرحة العارمة، احتضنت ريم في الشارع، حملتها فوق كتفي وطفت بها الميدان، سقط الوهم، وبدت لحظة الحقيقة هكذا فجأة بلا غيوم، انتصر الذبيح على قاتله، انتفض العنق في وجه السكين، علا المظلوم، واندحر الظالم.

كانت دموعنا تحتضن بعضها، لم أكن أدري أن للدمع طعماً نتذوقه بقلوبنا التي تتراقص تحت زخاته، في تلك الليلة أحسست أن الجنون مباح، بل هو سيد الموقف، فما جرى لم يكن سوى جنون خالص، مزقوا كل التحليلات السياسية، تبولوا على جميع التكهنات والتوازنات، فلم يكن يعنيني أي شيء منها، فكل ما عدا تلك الفرحة كذب، وكل ما خلا هذا الانتصار زيف.

في تلك الليلة سهرنا حتى الصباح نضحك ونطوف أرجاء الميدان، كأنما ندفئها بخطواتنا اللاهثة بالفرحة، في تلك الليلة سهرت معنا تلك المرأة المملوكية الغامضة، التي أصبحت أشعر نحوها برابطة جديدة، كنت أحسها أمي وأحياناً حبيبتي، مرة تنتحل صورة ريم، وأخرى تتقمص ريم شخصيتها، اختلط عندي الحلم بالواقع، الذاكرة بالوهم، والـ«أنا» بالـ«هي»، حتى صرنا روحاً وجسداً واحداً، في تلك الليلة طلبت من ريم أن تتزوجني، كنت أريد أن أختصر المسافة بين الحلم والحقيقة، أن أجمع بين الحب والثورة، أن أحتضن الماضي والمستقبل، ولأنها ليلة الجنون، فقد وافقت ريم بلا تفكير، وقررنا أن نعقد قراننا في الجمعة التالية، وسط الميدان، وأن يكون شهود زواجنا، هم شركاء الثورة، ألم أقل إنها ليلة الجنون.

وعندما جاء يوم الجمعة، يوم الاحتفال بانتصار الثورة، كنت

أترقب الفرحة فرحتين، واحدة لنفسي بالعثور على ذاتي وشريكة عمري القادم، وفرحة للوطن ولأبنائه الذين حققوا بصدورهم العارية ما كان مستحيلاً، تصورتُ أن تلك الجمعة ستكون تتويجاً لمن شاركوا في صناعة التاريخ بأظافرهم وحناجرهم ودمائهم، تخيلتُ أن استعادة تلك الفرحة الجنونية أمر ممكن.

اصطحبت ريم إلى الميدان، نحلم به «كوشة» عملاقة لزفاف أسطوري لن يتكرر، الملايين يشاركوننا الفرحة ويشهدون عقد زواجنا الأبدي، لكننا لم نجد الميدان، غابت في الزحام تلك الوجوه التي طالما منحت بملامحها للمكان وجهه الذي ألفناه، ضاعت وسط الهتافات التي تنحاز لفريق بعينه أصواتنا، وبدلاً من أن أجد في الميدان «كوشة» لزفاف على إيقاع فرحة الانتصار، وجدت مأتماً لجثمان ثورة وئدت بعدما أتمت خطوتها الأولى، حولوا الميدان إلى سرادق، يتبادلون فيه توزيع ما تبقى من فتات الوطن، وصعدت المسرح وجوه لم نعرفها أو تعرفنا، جاءت بالطائرة مسرعة من الخارج لتلحق نصيبها من الكعكة.

في تلك اللحظة أيقنت أن الفرحة في هذا الوطن مولود مبتسر، دائماً عمره قصير، وأن المسرحية لم تنته بعد، وإنما تغير اسمها، وارتدى نفس أبطالها القدامى وجوهاً جديدة ولحى أطول، وأضيفت إلى المسرحية رقصة استعراضية في محاولة لجذب جمهور جديد، رقصة حول جثمان الوطن.

وبدلاً من أن تكون الفرحة فرحتين، صارت الخيبة خيبتين، والجرح جرحين، فمن عين تسيل الدموع على زفاف لم يتم، بينما العين الأخرى تبكي انتصاراً لوطن لم يدم سوى أيام، في تلك اللحظة

خرجت من الميدان مستنداً إلى ريم، منسحباً من المشاركة في تلك الرقصة المقيتة، وبينما أنظر للميدان الذي تغيرت ملامحه فجأة، وبدا رغم زحامه خالياً، تذكرت من بين دموعي تلك الصورة التي ودعته عليها في منتصف ليل الخامس والعشرين من يناير، لكنني هذه المرة لم أبتسم!!

(41)

القاهرة، ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

أيتها الأحزان ترفقي بي!

امنحيني الفرصة لأجتر دموعي، لا أقول لتشفى جروحي، فمن الجروح جراحٌ لا تداويها الأيام، ومن الآلام آلامٌ لا تبرح النفس إلا بالموت.

لكن الأحزان لم ترد حتى أن تمنحني تلك الفرصة، فما كدت أعود من تشييع روحي مع جثمان ورد حتى كانت أحزان أخرى في انتظاري، في تلك الليلة جاء جنود الجاشنكير يبحثون عني، فقد افتضح أمري عندما حملت جثة ورد إلى التكية، أهديتهم وسط أحزاني ذلك السر الذي طالما سعوا وراءه، فالحزن ليس مبرراً كافياً هذه الأيام حتى يرحمني الملاحقون، وكما أنه لا يغني حذر من قدر، فلا يشفع الحزن من توالي المصائب.

انتظر الجنود حتى الليل، ودهموا التكية، هم دوماً لا يأتون إلا تحت ستر الظلام، اقتحموا التكية، لكن الشيخ ابن عطاء الله تصدى لهم بقوة، لم تشفع له سنه ولا مكانته في منعهم من الدخول أو حتى في ردعهم

من الاعتداء عليه، ألقوا به أرضاً، غاب الرجل عن الوعي، وغبت أنا في جحيم الرعب، كنت أتابع المشهد من فوق الدرج المؤدي إلى غرف الدراويش، لم يستطع أحد من أولئك الدراويش المصدومين تحت وطأة الهجوم المباغت أن يتصدى لهم، بدا أنهم يعرفون هدفهم جيداً، كانت المقاومة عبثاً، والاستسلام هو البديل الوحيد لإنقاذ أهل التكية من عقاب واعتداء بلا ذنب ارتكبوه سوى أنهم آووا امرأة ضعيفة تفر من ظالميها.

استسلمتُ بهدوء، حتى إن الجنود اندهشوا من ضعفي وصمتي: أهذه هي المرأة التي تقضّ مضجع ملكهم؟ أتلك المرأة المستكينة المنسحقة هي التي أشعلت بصوتها «ثورة الحرافيش»؟

كان الجنود قد أهبوا أنفسهم لمعركة لم أمكنّهم منها، لكنهم أبوا إلا أن يتموها، عاثوا في كل أرجاء التكية تحطيماً وتدميراً لكل من وما طالته أيديهم من بشر وأثاث، تعطشهم للانتقام كان الهدف، وليس إلقاء القبض عليّ وحسب، كان فائض الغضب لديهم أكبر من أن يسيطروا عليه، فنفثوا ما لديهم ضرباً وركلاً وشتماً في الجميع، وبينما كانوا يقتادونني مكبلة خارج التكية، تحاصرني أنات الدراويش وصرخاتهم، أفاق الشيخ ابن عطاء الله، ومجدداً وفي محاولة يائسة أخيرة حاول الشيخ منعهم من إخراجي من التكية، فما كان من الجنود إلا أن أعادوا ركله وضربه بعنف أشد، ثم كبلوه واصطحبوه معي إلى الخارج، وبينما كانوا يقتادوننا حاولتُ أن أتكلم بأي شيء، أن أعتذر عمّا سببته لهذا الشيخ الوقور، دمعت عيناي ولم أستطع أن أواجه عينيه، لكنه همس وسط آلامه: «لا تحزني يا ابنتي، ما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه، يفعل الله ما يشاء، وسيكون لنا من بعد ضيق فرجاً».

في تلك اللحظة رفعت رأسي ونظرتُ إليه، إنها نفس كلمات الشيخة غازية، من أي نبع ينهل هؤلاء تلك الحكمة، ومن أين يأتي هذا الشيخ الضعيف بكل تلك السكينة والقدرة على الأمل وسط حطام اليأس المحدق بكل شيء؟!

لكنني لم أتلق سوى انحناءة رأسه، ونظرة منسكبة على الأرض الباردة التي ترتوي بما يتساقط إليها من دموع.

وقبل أن يخلو المشهد من موكب المنكسرين، علت صيحات وصرخات من داخل التكية، وبينما كنا ننسحب بعيداً، كان الدراويش يهرعون خارج التكية، بينما الجنود يهرولون بعيداً عنها، فقد شب حريق هائل داخل جدرانها، وسرعان ما التهم كل مكوناتها ومعظمها من الخشب، وعبثاً غالب الدراويش آلامهم وجراحهم، وحاولوا بأجسادهم المكدودة يعاونهم بعض السكان المجاورين في حمل أواني الماء لإطفاء الحريق الغامض، الذي نشب فجأة كوحش هائل يلتهم كل ما يصل إليه، حاولنا أن نتوقف لنعرف ماذا جرى، لكن الجنود أجبرونا على السير بوحشية، نظرتُ إلى الشيخ ابن عطاء الله، كانت النيران تتراقص في عينيه وعلى ملامح وجهه التي لمعت تحت رقصة النار الجنونية لمعاناً غريباً، كان الرجل ينظر في هلع إلى كل ما يجري، وكأنما يحترق في تلك النيران رغم أنه يبعد عنها عشرات الأمتار، ربما كان وقتها ينظر إلى أيامه التي يلتهمها اللهب، أو لكأنما كان الحريق يشب بداخله فيحرق كل ما بقي فيه من صبر وتماسك.

صرخ الشيخ ابن عطاء الله بكلمة واحدة ظلت تدوي في الآفاق، وكأنما تخرج من صدر السماء لا من صدر ذلك الشيخ الضعيف،

صرخ الرجل بكلمة «لا»، ففزع لها كل من كان موجوداً في المشهد، حتى لكأني بالدنيا لحظتها تتجمد على وقع صرخته، انشغل من يطفئون التكية عما كانوا يعملون، والتفتوا في دهشة بالغة لمصدر تلك الصرخة، حتى الجنود الذين كانوا يقتادوننا نحو مصيرنا المجهول توقفوا فجأة وأصابتهم لحظة رعب مباغتة، وكأن كلمة «لا» سيف ينغرس فجأة في صدورهم.

لم يقل الشيخ ابن عطاء الله سوى تلك الكلمة... وربما لم يقل غيرها بعد ذلك!

(42)

القاهرة، مارس 2011

تغير وجه مصر التي كانت، وصار لكل شيء ألف وجه.

كانت فرحتي كبيرة بالعثور على ذاتي، عندما استعاد الوطن نفسه، ووجد صوته المفقود.

في تلك الليلة التي عدتُ فيها من الميدان الذي لم يعد ميداني، أحسست كل شيء حولي غريباً، كأنني لا أنتمي إلى هذه الأماكن، أو أنها لا تنتمي إليّ، خطر لي أنني والوطن كنا نسعى للخروج من غيابة جبّ، وعندما أبصرنا نوراً يسطع في الأفق، مددنا أيدينا نساعد بعضنا بعضاً على الخروج، لكن فجأة أظلمت الدنيا، وتكاثرت في السماء غرابيب سود حجبت كل نور، وكدنا نفقد قدرتنا على النظر، غابت ملامح الأفق، وأحاطت بنا ظلمة الجبّ، لكنني مازلت أستشعر وجوده، لايزال حياً، يترقب وينتظر.

لأيام حاولت أن أبتعد عن الناس، عن تلك الحالة من الجدل التي أصابت الجميع، حمى الكلام والخلاف تتفجر في القلوب والألسنة، على الشاشات أسمع حكايات عن بطولات ينسبها البعض لنفسه،

وتحليلات شتى للمشهد الراهن، ورؤى للمستقبل، أصابتني حالة من اللامبالاة على غير انتظار، فالقوة والثورة اللتان كنتُ مسكوناً بهما طوال ثمانية عشر يوماً، استحالت فجأة رماداً كثيفاً خانقاً، فبقدر ما كان البركان داخلي عظيماً، كان الرماد هائلاً.

لم أستطع أن أفسر تلك الحالة، أحياناً كنت أشعر بأنني أبالغ في مخاوفي، فالجميع فرح بما تحقق من معجزة بإسقاط نظام مدجج بالقوة والسلطة أمام حناجر لا تملك سوى الحلم والهتاف، لكن المعجزة تحققت، بينما قلبي ظل منقبضاً، فمن وراء المعجزات يخرج الدجالون، ومن بعد انتهاء النبوات، يخرج مدعو النبوة، وهؤلاء ما أكثرهم في حياتنا، وقد عاشوا في ظلمة القهر سنوات طويلة، وعندما خرجوا إلى النور، بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

ريم أيضاً أصابها بعض ما أصابني، لكنها كانت أكثر قوة وتماسكاً، ظلت على إيمانها بأن الأمل لايزال حياً في إنقاذ ما تحقق، وأنه من المبكر جداً أن نستسلم لليأس، وأن الانسحاب من الميدان هو الخطيئة التي لن يغفرها التاريخ، لأنها ستترك الميدان خالياً لمن يحترفون شغل أي فراغ، ويجيدون الجلوس على كل الموائد والحديث بألف وجه، حالة الانسحاب التي سيطرت عليّ في تلك الأيام كانت أعمق من أن تتيح لي مجادلتها، وكنت أدرك أن الكون كله لن يغير فكرة أو رأياً في رأس ريم طالما اقتنعت به.

احتجبت لأيام طويلة في بيتي زاهداً في كل شيء، وانقطعت عني اتصالاتها حتى للاطمئنان، حسبت الأمر في البداية محاولة منها لعدم اقتحام عزلتي الاختيارية، حتى كان ذلك اليوم الذي تلقيت فيه مكالمتها

تطلب أن نلتقي، صوتها حزين كأنه يقطر ألماً، الكلمات تنزف، وانكسار لا يخفى على من يعرف ريم بقوتها وإصرارها، شعرت بأن أمراً كبيراً قد وقع، لكنها رفضت الإفصاح إلا عندما نلتقي، اتفقنا على اللقاء في أحد المقاهي المطلة على ميدان التحرير.

في طريقي إلى اللقاء كان القلق كحيوان مفترس ينهشني من الداخل ويطاردني من الخارج، ترى ما الذي حدث وجعل ريم تبدو على تلك الحالة التي لم أعتدها حتى في أحلك أوقات حياتها؟ مئات الأفكار تتداخل، تتصارع، والنتيجة مزيد من القلق والاضطراب.

تعمدت أن أذهب إلى الميدان من نفس الطريق الذي جئته يوم 25 يناير، علّني أستعيد ذكريات تشيع في قلبي كثيراً من الهدوء، لكن الرحلة ضاعفت اضطرابي، فقد كانت أشبه بالسير على طريق الآلام، فما أصعب أن تنظر إلى مجد تذروه الرياح، وذكريات تتناثر في طريق يحوم حولها قطاع الطرق.

وعندما وصلتُ إليها بادرتني قبل السلام بأن طلبت الجلوس في أي مكان آخر غير هذا المقهى المطل على الميدان، لم أخفِ دهشتي، لكنني رضخت لرغبتها فقد لاقت أيضاً في نفسي شيئاً، وعندما جلسنا بعيداً، ولم نكن قد تبادلنا كلمة واحدة طوال الطريق، انتظرتُ أن تبدأ هي الكلام، فقد كانت ملامحها تشي بأن شيئاً كبيراً قد وقع، عيناها منتفختان ربما من قلة النوم أو كثرة البكاء، ووجهها يكسوه انكسار أسود، تاركاً ظلاً ثقيلاً على كل شيء، بدت في تلك اللحظة أكبر كثيراً من سنها، ملامحها كمن يحمل ثقلاً يتهاوى تحته، وقد وصل إلى لحظة نهاية.

وكأننـــا غريبان نقف لأول مرة في مواجهـــة بعضنا البعض، كلانا يتحدث لغة لا يعرفها الآخر، نحاول البحث عن كلمات نبدأ بها حواراً لا نعرف إلى ما سيفضي بنا، حاولت جاهداً أن أتكلم، لكن أمام ملامحها ما أعبث الكلمات، أحسســت بها تبتلع شيئاً هائلاً وكأن الكلمات مكدسة فـــي حلقها، وعندما عجــزت عن الكلام، وجدت الدمــوع إلى وجنتيها سبيلاً.

انهارت ريم بكاء، بدت كمن يبحث عن شـــاطئ ليلقي عليه بهمومه الثقيلة، بعدما طالت بها الأنواء، حاولت تهدئتها، كانت ترتعش، تنفض من داخلها ركاماً خانقاً، يتطاير مع ارتعاشات وزفرات.

أخيراً تكلمت... وليتها ما فعلت.

قالت إنها كانت معتقلة عقب «اعتصام 9 مارس» بميدان التحرير، مـــع أولئك الرافضين مغـــادرة الميدان قبل أن تتحقـــق مطالب الثورة، وإنه تم اعتقالها ومجموعة من الفتيات واقتيادهن إلى أحد المعسكرات التـــي لا تدري حتى الآن مكانه، فقد كانت معصوبة العينين، قالت إنها نالـــت نصيباً وافراً من ضرب وإهانـــة، لكنها لم تكن تتصور أن يصل الأمر إلى......

هنـــا صمتت وتركتني فريســـة لأفكار ســـود اجتاحتني في لحظات صمتهـــا، التـــي بدت كغابة مليئة بأشـــواك كنصل الســـكين، كل خطوة فيهـــا تنهال طعنة جديدة مخلفـــة ألماً أبدياً، رجوتها في صمتي وذهولي أن تنقذنـــي بكلمة أخرى لأفهم ما جرى، بدا أنها خجلى مما ســـتروي، وكأنها التي اقترفت تلك الجريمة.

عادت من صمتها المؤلم بكلمات تنزف كبرياء:

طلبوا منا أن نقف في صفين، الأول للسيدات والآخر للفتيات، استغربنا مطلبهم، لكننا اكتشفنا المأساة بعد قليل عندما جاءنا ضابط ومعه إحدى السجانات لتوقيع الكشف علينا.

قاطعتها مندهشاً:

أي كشف؟!

لم ترفع عينيها إليّ، وواصلت تحديقها في الأرض، كأنما لا تريد أن تواجهني كي لا أقرأ الإجابة في عينيها، وقالت في انكسار مهين:

كشف العذرية!

صفعتني بتلك الكلمة، لم أستطع أن أنطق، انسكبت عيناي على الأرض الرخامية إلى حيث كانت تنظر ربما بحثاً عن كرامتنا المهدرة على تلك الأرض، أو بحثاً عن مهرب من اعتراف مخجل بالعجز والهوان.

واصلت كمن يتحدث لنفسه، ولا يشعر بوجود أحد إلى جواره:

كنت أسمع عن هذا الموضوع، ولم أكن أصدقه، لم أصدق أن إنساناً يمكن أن يمتهن إنساناً آخر بتلك الصورة، أن يتحول في لحظة إلى وحش يعبث بالجسد والروح، يفتش في النوايا والضمائر، يستحل ما ليس له بتلك الصورة المهينة، يمد يده ليذبح كرامة فتاة لا تهمة لها إلا أنها تجرأت على الاحتجاج، حتى لو أخطأت فهذا ليس عقاباً، إنه ذبح للكرامة والنفس، إذلال بلا رحمة لإخضاع الروح.

كانت كل كلمة تنطقها تصلني كسكين يذبح كل مواطن النخوة

والرجولة العاجزة بداخلي، واصلت قصتها، وأنا أتقلص في مقعدي خجلاً وتقززاً، وألماً.

أجبرونا على خلع معظم ملابسنا لتوقيع ما قالوا إنه الكشف، لكنه كان ابتذالاً حقيقياً، أياد تعبث بنا بلا رحمة أو خجل، وأعين لجنود جوعى تفترسنا داخل وخارج الحجرة، إساءات تنهال من كل اتجاه إن تجرأت واحدة على الاعتراض، استسلمتُ استسلام الموتى، شعرت وقتها بأنني يجب أن أموت قبل تلك اللحظة، وأظن أن حالة من الموت الاختياري قد جاءتني لتنقذني من تلك اللحظة الرهيبة، شعرت لوهلة بأنني أنفصل عن الوجود، وبأن تلك الأيادي العابثة إنما تمتد إلى جسد غير جسدي، وبأنني مثل تلك العيون التي تحدق بي أقف معهم لأشاهد ما يجري، ومنذ تلك اللحظة لم أعد أعي كثيراً مما جري لي، حتى أطلقوا سراحي ظهر اليوم، وأخشى أن أعود إلى بيتي، أو أواجه أهلي بما جرى، مازلتُ أعاني من تلك الحالة الغريبة، بأنني غائبة عن هذا الوجود، كأنني أتحرك بجسد غير جسدي، وأن مسافة ما تفصلني عما حولي، كأنني أشاهد فيلماً يعرض أمامي دون أن يكون لي أي دور فيه.

أنهت ريم كلامها الذي كان يقطر ألماً، كنت أنا الذي أبتعد في مكان آخر، وفي عصر مختلف، كأنني الذي يتمزق قطعة قطعة، وتتناثر كرامته مع دمه أرضاً، أي قتل بطيء ذلك الذي أشعر به، فالموت أحياناً يكون راحة من عذابات تتجاوز سكرات الموت آلاف المرات، فسكرات موت الكرامة أبشع وأكثر إيلاماً.

أردتُ أن أبكي، لكن الدموع غارت في مكان سحيق مع تلك الكبرياء المنسحقة، وأية دموع يمكنها أن تغسل عاراً لا يمحى؟!

حاولتُ أن أتكلم، فلم أجد سوى عجزي يتدفق من باطني ويطفح على كل شيء حولي، هرعت إلى الحمام، وأفرغت كل ما في داخلي من عجز وتقزز، وعندما رفعت رأسي، واجهت نفسي في المرآة، كنت مسخاً مشوهاً.

كنت أعرف أن فظاعات كثيرة ربما ترتكب من حولنا، لكن أحياناً يكون الجهل بها نعمة، ربما يكون من فعل تلك الفعلة تصرف بدافع شخصي من مرض أو رغبة في انتقام خفي، أم أن هذا كان الرد على مطلبنا بالحرية والكرامة؟! لا أعلم وقتها إن كنتُ أفكر لأخفف وقع الصدمة عن رأسي وروحي، أم لأنني كنت أظن أن ما شهدته البلاد خلال الأسابيع الأخيرة كان كفيلاً بأن يطهّر العقول والسلوكيات من مثل تلك الأفعال التي لم أتصور يوماً أن تكون موجودة، لكنني ها أنا أمام لحظة مواجهة مع ذلك النوع من الحقائق السود التي تحاصرنا، وتضع عقولنا ومواقفنا في محنة حقيقية، وتثير مزيداً من الأسئلة التي تتحول مع غياب الإجابات إلى وخزات مؤلمة، تهاجمنا بلا رحمة، لتحرمنا تلك الراحة التي كنا عليها، فطوبى للجهلاء!!

عندما عدتُ إلى حيث كانت ريم تجلس، وجدتها قد غادرت المكان، وكأنها تخشى انكساراً إضافياً، فلم يكن هناك كلام ليقال، فكل كلمة تخرج ومعها مزيد من دماء الكرامة، واستعادة الذكرى تضاعف آلام التجربة.

نظرت إليها وهي تبتعد رويداً رويداً وتختلط خطواتها النازفة بزحام الشارع حتى لم تعد عيناي تميزها بين جموع المارين، حاولت اللحاق بها، لكن قدميّ خانتاني، كنت بحاجة إلى كتف أستند إليها،

شعرتُ بثقل يضغط على رأسي فيقعدني بلا حراك، كنت أخوض معركة ضارية، لكن هذه المرة مع نفسي، ويبدو أنه لن تكون هناك نهاية وشيكة لمعركة الأسئلة المحيرة، لا أجد كتف ريم لأتكئ عليها، فآثرت الاستسلام، ونظرتُ بعيداً كان شبح يشبهني كثيراً، كأنه أنا، بل هو أنا، كان يغادرني، مولياً ظهره إليّ، متجهاً إلى مجهول، تمنيتُ لو يلتفت بوجهه فأتفرس في ملامحه، لكنه بدا غاضباً ومصمماً على الرحيل وعدم الالتفات إلى الوراء.

(43)

القاهرة، ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

الطريــق إلـــى المجهــول يمرّ عبر درب ســلكته كثيــراً في أحوال متباينـــة، كنت أعلمُ أننا في طريقنا نحو القلعة، لكنني لم أكن أدري إلى أين ســيكون مآلنا الأخير، إلى ســجن، أم إلى ثكنة مــن ثكنات مماليك القلعـــة، أم إلى غرفة الإعدام، أم إلـــى القصر؟ كان ذلك الخيار الأخير هو الأكثر رعباً بالنسبة إليّ، رغم أن الخيارات الأخرى لم تكن أفضل، لكننـــي على الأقل في الســـجن أو حتى في غرفة الإعــدام لن أعاني ما ســـأعانيه في حضرة الجاشـــنكير، فلا بد أنه ينتظر تلك اللحظة ليتشفّى فيّ ولينتقم انتقامه الأخير من تلك المرأة التي تحدته كما لم تفعل امرأة، ولا حتى رجل، من قبل.

تلـك الطريق إلى القلعة أعرفها جيـداً، وطئتها جارية، وأميرة، ثم مطربة، فأســيرة، وما بيــن الخطوة الأولى والخطــوة الأخيرة، تتناثر علــى رمـــال الذاكــرة الوجــوه والأفــراح والأتــراح، الآلام والدماء، الانتصارات والانكســـارات، كل خطوة على هذا الدرب سقطت عندها ضحكاتي أو دموعي أو دمائي، ولم يعد لدي ما أسكبه سوى الذكريات في تلك الرحلة التي يبدو أنها ســتكون الأخيرة، أستشــعر وداع أقدامي

لتراب الطريق، أستمع إلى وقع خطواتي الوئيدة كأنما تربّت على كتف الطريق، لكنها لا تملك أن تمنحه سوى ذلك الوداع.

وصلنا إلى القلعة، الظلام لايزال يحيط بكل شيء، كنت والشيخ ابن عطـاء الله نتبادل الصمت لغة، والحيرة كلمات، انقدنا بلا مقاومة، فقد مضـى زمن المقاومة، وانهـارت قدرتنا على الصمود، فمن العبث أن تحاول الثورة في وجه الموت عندما يأتيك شاهراً سيف القدر.

عنـد دخولنـا إلى القلعة قـرروا أن يفصلوا بين السـجينين، تفرقنا إلى مسـارين مختلفين، عرفتُ أنهم يقودون الشـيخ ابن عطاء الله نحو السجن، أما أنا فيبدو أن هناك من قرر مصيري قبل أن أصل إلى هنا، فقـد اقتادنـي الجند إلى مكان لا أعرفه، وكم من الدروب السـرية التي تحفل بها تلك القلعة، فما تختزنه من الأسرار يفوق كثيراً ما تبديه، وكم من أناس عاشـوا فيها لسنوات لم يحيطوا بأسرار دروبها السرية، ولم يشهدوا موضع رقدتهم الأخيرة إلا عندما اقتيدوا إليه.

الظلام والقلق خصمان لا يقهران، فجأة وجدتني ملقاة على أرضية غرفة متهالكة، كانت ربما مخزناً لأسـلحة أو لأعلاف الخيول، رائحة الجـدران تروي ما عاناه المكان من إهمال وشـقاء، وربما ما يواجهه من يدخله، في أعلى السقف المرتفع فتحة وحيدة للتهوية، تكاد القضبان الحديديـة الصدئة تغلقها تماماً، وباب صغير ألقوا بي عبره يواجه تلك الفتحـة، وعندما أغلقوا الباب اسـتحال المكان قبراً حقيقياً، لا ترى فيه سوى المخاوف والأشباح.

بعد لحظات بدأت أستشعر أنني لست وحدي في تلك الغرفة، كانت هنـاك أنفاس تتردد، في بطء ووهن، وكأنما تخشـى أن يسـمعها أحد،

تكوّمتُ على ذاتي، وتضاعف خوفي، من ذا يكون معي في هذا القبر الموحش؟ هل وضعوا معي وحشاً يفترسني ليتخلصوا مني؟ أم يكون هذا القابع في ركن الغرفة البعيد بشراً ألقوا به إلى القبر قبلي لأرى فيه مصيري المنتظر في هذا المكان؟!

انتظرتُ أن يتكشّف أمر ذلك المجهول هناك أو يهجم هو عليّ فينتهي سريعاً من مهمته، لكن شيئاً لم يحدث، كادت أطرافي تتجمد من الخوف، وصوت نبضات قلبي تتعالى وكأنها طبول تصم الآذان، لم أجد سوى أن أتحرك إلى ذلك المجهول، فاكتشاف الحقيقة مهما كانت مرعبة أفضل من الاستسلام لخوف يقتلنا ببطء.

زحفت يسبقني رعبي نحو ذلك الركن القصي، كلما اقتربت الأنفاس، تعالى اضطراب نبضات قلبي، وارتجفت أطرافي فزعاً، اقتربت أكثر حتى بدت ملامح جسد بشري منغلق على ذاته، يبدو أنه خائف أكثر مني، تماسكت ولملمت أطراف خوفي، من قرب بدت بعض الملامح التي أخفتها الظلمة، كات امرأة تخفي وجهها بين ركبتيها وتحيط رأسها بذراعيها، كمن يسعى للاحتماء بنفسه ممن حوله، مددت يدي المرتعشة ببطء، من أنفاسها كنت أعرف أنها على قيد الحياة، لكن سكونها العميق يشي بأنها على حافة الموت، بأنامل وجلة ربّتُ على ركبتها، فانتفضت، وكأنني لدغتها.

رفعت إليّ وجهاً ملتاعاً، معذباً، مفجوعاً.

والأكثر فجيعة أنني كنت أعرفه.

رغم الظلمة، وذلك القبر المعتم، عرفتها.

فلا يمكن أن أضلّ عن وجه........ الشيخة غازية!

كانت صدمتي كبيرة، فهي آخر وجه أتخيل وجوده في هذا المكان، مــاذا أتى بها إلى هنا؟ كيف عرفوا علاقتهــا بي؟ ما الذي أوصلها إلى تلك الحالة من الوهن؟ ولماذا يلقون بها في هذا القبر؟

طوفان من الأســئلة، والصمت إجابة وحيدة لا تسمن ولا تغني من جوع.

احتضنتها بشــدة، كم كنتُ بحاجة إلى من يحتضنني، لكنني وجدتها أضعف منــي وأكثر انهزامــاً، كنتُ رغم مصيبتي لاأزال متماســكة، ربمــا لأنني لم أرَ ما رأته في هــذا المكان الموحش، وربما لأنني على الأقــل أعرف لماذا أنا هنا، بينما هي لم ترتكب ذنباً يجرّ عليها كل تلك الويلات سوى أنها عرفتني.

بكت بعنف الألم الذي عانته، ارتعشت بين ذراعي بكل رغبتها في الغضب والصراخ المستحيل، انهزمت أمام زخات الدمع المنهمر تلك السكينة العميقة التي كانت دوماً تبدو عليها.

خرجــت من ذهولها كمن اســتعاد ذاكرته فجأة، وبــدأ يتعرف إلى وجوه من حوله، ولم يكن هناك من وجوه في تلك الغرفة سوى وجهينا، ووجــه ثالث لا نراه، لكننا نستشــعر وجوده طاغياً، فظــاً، قادراً على مداهمتنا في أية لحظة ومن أي مكان.. إنه الخوف.

كان الخوف ثالثنا في ذلك القبر، خوفي مما يمكن أن أعانيه فأكون مثل الشــيخة غازية فــي حالتها تلك، وهي التي لــم ترتكب ذنباً، فماذا سيفعلون بي وأنا الجانية المذنبة الحقيقية؟ وخوفها الكامن من أن يكون

سقوطي في أيديهم نهاية الجميع، فقد حصلوا على ما كانوا يبحثون عنه، ولم تعد هناك أهمية لأي ممن ألقوا القبض عليهم للوصول إليّ، وبالتالي فسوف يتخلصون من الجميع ليطمسوا جريمتهم، ولينتهوا من أي دليل وراءهم.

بعد صمت طويل، سألتها عمّا جاء بها إلى هنا، وكيف لم نعرف أنهم ألقوا القبض عليها؟

حاولت أن تبحث في حلقها عن الكلمات التي يبدو أنها لم تستخدمها منذ فترة طويلة، فضاعت في غياهب الصمت، لكنها أخيراً تكلمت بصوت ممزق، كأنما تحيط بحوافه أنصال السيوف. روت لي كيف ألقوا القبض عليها من داخل «رواق البغدادية» عقب عودتها من التكية في ذلك المساء الأخير الذي غادرتنا فيه، ويبدو أن عيون بصاصي الجاشنكير التقطت زيارة هيفة لها في الرواق لطلب المساعدة، وبالطبع كانوا يعلمون أنها شقيقتها رغم ما بينهما من خلاف، ولأنهم لم يستطيعوا انتزاع اعتراف من هيفة بمكاننا، فما كان منهم إلا أن سعوا إلى أختها التي اختفت لفترة عن أعينهم قبل أن تعود إلى الرواق، بحثاً عن ضالتهم.

روت لي الشيخة غازية بكلمات تنزف ألماً كيف عذبوها بأبشع الطرق لتدلي لهم بمكان اختبائنا، وما تعرفه بشأننا، وكيف هددوها بأن تلقى مصير شقيقتها هيفة إن هي أصرت على الصمت.

كان ورود اسم هيفة في هذا المقام صدمة أخرى، لم أكن أتخيل أن يحاصرني في ذلك القبر كل ضحاياي هكذا دفعة واحدة، سألتها مضطربة وخائفة من أن أسمع المزيد من الفواجع، كان التعلق بأمل

ضعيف آخر ما أتمسك به هرباً من صفعة جديدة:

وأي مصير واجهته هيفة؟؟

بدا سؤالي ساذجاً إزاء صمتها العميق، وألقت بي كلماتها التي لم تقلها في هاوية الحزن مجدداً.

حاولت أن أبكي، فلم أجد دموعي، مثلما لم تجد هي كلماتها.

بحثت عن زخة دمع تطفئ لهيب الفجيعة فلم أعثر سوى على المزيد من الحمم التي تتصاعد من داخلي.

ومجدداً وجدتني في مواجهة مع قدري، ومع من سقطوا من أجل أن ألقى ذلك القدر القاسي، الذي لا يريد أن يريحني بموت صامت، ويصر على أن يجردني من كل مَن أحببت أو وقف إلى جواري.

لماذا أيها القدر لا تتحرك خطوتك الأخيرة على رقعة مصيري، وتطيح بي من تلك المعركة التي لا أملك فيها قراراً أو قدرة على مواجهة أو حتى هروب؟

لماذا أيها القدر تصرّ على أن تتركني قطعة وحيدة بين كل أحجار الشطرنج التي أواجهها، ووحدي أفقد من يقف إلى جواري؟

لماذا تريدني أن أقف عارية من كل سند وسط المذبحة، أتأمل أشلاء ذاكرتي، ويقتلني الندم والألم على من رحلوا، أكثر مما تقتلني سيوف جنود الجاشنكير؟

يا لاعب الشطرنج الأوحد، أما اكتفيت، وقد تناثرت حولي كل تلك الجثث؟!

وبينما أنا غارقة في مناجاتي وأسئلتي الباكية، فُتح باب تلك الحجرة القبر، وأطل منها وجه فزعي وأسوأ مخاوفي.

ربما أرسله القدر أخيراً ليجيب عن أسئلتي.

فقد جاء الجاشنكير.

(44)

القاهرة، مايو 2012

دمــار ما بعد العاصفة، كانت تلك حالتي بعد اللقاء الأخير مع ريم، دوي الحــدث المزلــزل الذي وقع لهــا يتردد في داخلــي كصفير ريح تتراقص على أشلاء مدينة خاوية على عروشها.

مشــاعر متداخلة من الغضب والحنق والقرف والعجز تتناوبني بلا هوادة، لا ألبث أن أدخل في طور من تلك المشاعر حتى ينتابني طور آخــر، حتى أصابني ارتبــاك من حقيقة مشــاعري، حتى إنني صرت أحيانــاً – وربمــا محاولــة للهرب مــن الحقيقة – أنكــر كل ما حدث، وأتصوره كابوساً مزعجاً سيتلاشى ريثما أستيقظ من هذا النوم الثقيل.

مكالمتــي الأخيــرة مع ريم، بعد أيام طويلة مــن الانقطاع والعذاب الصامــت، كانت مقتضبــة للغاية، وكأننا نقتطــع الكلمات من صخور جبل الصمت، طلب بلقاء، موافقة عاجزة، فلقاء بلا روح.

حشــدت كلمات العزاء والمواســاة والمســاندة، لكنهــا كلها تهاوت عندمــا رأيتها، ذبيحة، لاتزال ارتعاشــاتها تحت الســكين الذي اغتال كرامتهــا تنتابها من حيــن لآخر، لازالت لم تخرج بعــد من صدمتها،

تلـك القوية التي طالما تحدت مـا لا يطاق، تجلس أمامي الآن منهارة، صامتة، روحها تنزف حتى الموت.

اقتربـت منهـا، فانتفضت، آلمني ابتعادها، أحسسـت بغربتها عني وغربتي عنها، ما أقسى غربة الأرواح في حضرة الأجساد!

أحسسـت أن لقاءنا صار وجعاً لا تحتمله حالتها الهشة، وأنها ربما ندمت على مجيئها، حاولت أن أخرجها من صمتها أكثر من مرة، لكن دون جدوى، أسئلتي تموت عند شفتي، وإجاباتها ميتة داخلها.

أينتهي لقاؤنا هكذا؟!

أعلم أنكِ تنتظرين مني دعماً يداوي جرحك، ويحنو على كسـرك، لكـن عفواً حبيبتـي، من كانت آلامـه مثلي فلن تجدي عنده ما يسـكّن آلامك، بل ربما كنتُ أضعف من أن ألملم جراحك بين يدي، وأدرك أن عجزي هذا ربما يكون أقسى من كل جراحك!

أدركـتُ أن الصمت القاسـي والغربـة الكئيبة التـي اجتاحتنا فجأة سـتعجل بنهاية اللقاء الذي لم يبتدئ أصلاً، فبادرتها بسؤال حاولت أن يخرج هادئاً لا ترتجف كلماته:

ماذا تنوين أن تفعلي؟

انسـكبت نظرتهـا على وجهـي، ولأول مرة منذ أن جلسـنا تلتقي عيوننا، وكأنها تنكر عليّ سؤالي:

أهذا كل ما يعنيك؟!

فقـط أحـاول أن أطمئن، حتى لا تـزداد المشـكلات، أعلم أنك في حالة......

.... حالــة؟ أي حالــة؟ ماذا تعلم أنت عــن حالتي؟ أين كنت طيلة الأيام الماضية؟ أكنت تتألم من أجلي؟ أكنت تشــعر بما أعانيه حقاً؟ أم أنك فضلت الهرب؟!

استشــعرت في كلماتها غضباً حارقاً، أعرف أنها على حق، لكنني أعجز عن الكلام، الهزيمة التي باتت تســكن كل خلاياي تشــلّ لســاني وعقلــي، أريد أن أقول لها إنني في لحظة يأس، واليائس لا ترجى منه بطولة، لســتُ مثلك، لا أســتطيع المقاومة، نعم الهروب أيســر الطرق أمامي، لكنني أخجل من أن أســلكه، وأضعــف من أن أخوض غيره.. سامحيني.

نظــرت إليّ بعيــون محتقنــة، وكأنهما جمرتان من نــار، نظراتها رماح تنغرس في عمق قلبي:

هل تعلم أن موقفك هذا أصعب عليّ ألف مرة من كل ما مر بي من أزمــات؟! محاربة العالم كله أهون عندي مــن خيانة أقرب الناس لي، إن تمزيقهم لحمي بأيديهم لم يكن أشــد إيلاماً من تمزيقك أنت لكرامتي بموقفــك هذا، لقد حســبتك رجــلاً يدرك أن المرأة وطــن، تُكرم عندما يكون الوطن عزيزاً، وتُهان عندما يكون الوطن مغتصباً، لكن للأسف أنت لســت سوى واحد من تلك العقول المتخلفة التي لا ترى في المرأة سوى جسدها، وتحدد قيمة المرأة بطول ملابسها.

في تلك اللحظة شــعرت بأن كل شيء ينهار من حولي، بأنني أقف وحيداً على تل تتناثر فوقه أشــلاء نفسي، لكنني رفضت أن ترحل قبل أن تتفهم موقفي:

أنــا لم أتغير، فقط كل ما أفكر فيــه أن المقاومة لم تعد تجدي، نحن نحارب معركة خاسرة، عليك بالاعتراف بالواقع، وأن تسمعي لصوت العقل.

في تلك اللحظة شــعرت بأنها وصلت إلى قمة غضبها، وأنها باتت على وشــك انفجار مدوّ، لكن المفاجأة أنهــا تحدثت بهدوء لا يخلو من سخرية:

نحن؟؟ الواقع؟؟ صوت العقل؟؟

....

أنت حسمت أمرك من فترة فلا داعي أن تدعي أنك مازلت تقف في ميدان المعركة، معركتك أنت قررت نتيجتها بانسحابك، أما أنا فلا، لقد اخترتُ أن أقاوم، وأريد أن أشكرك لأنك أنت السبب.

أنا ؟!

نعــم أنت، فقبل هذا اللقاء طلب مني بعض الأصدقاء من المحامين أن يتبنــوا قضيتي، وأن أرفــع دعوى للمطالبة بوقف مثل تلك الأعمال المشينة، لكنني كنت مترددة، لأن قراراً مثل هذا لا بد أن تكون شريكي فيه، فلا يمكن أن أخوض معركة كهذه دون أن تكون إلى جانبي، لكنك اليوم حســمت قراري، سأخوض معركتي وحيدة، وإلى النهاية، ومهما كان الثمن.

حاولت أن أتكلم، أن أشرح لها بعض مما كان يختلجني من ارتباك واضطراب، حتى إنني بتّ أستشعر نفسي غريباً عن ذاتي في كثير من الأحيان، لكنها لم تمنحني فرصة، فقد قامت في غضب شــديد، لملمت

جراحها المتناثرة حولنا، وتركتني بلا وداع وحيداً بين الأشلاء.

كم شعرت بأنني أتضاءل في جلستي تلك، حتى كدتُ أختفي في مكاني، لم أستطع حتى أن أستوقفها، مجدداً كنت أفقد ذاتي، أشعر بخساراتي تتراكم أمامي، وأنا عاجز عن استعادة نفسي أو فهم ما يجري لي، أغوص كقطعة حجر تغرق في بركة مياه، أراني أغوص بعيداً، أنظر إليّ، ولا أستطيع السباحة ورائي لأنقذ ذاتي من الوصول إلى القاع السحيق، أهو الجنون عندما يفقد الإنسان عقله، أم عندما يفقد القدرة على استعادة ذاته؟!

في تلك اللحظة سحبت نفسي المتثاقلة، ولملمتُ أقدامي من فوق الطرقات، واتجهت نحو بيتي، بعدما تركت على ذلك المقعد، بعض أشلاء انفجاري الداخلي، في تلك الليلة ظللتُ مقيداً لساعات لا أعرف لها عدداً، لا أفكر في شيء، وأفكر في كل شيء، أطوف أركان الذاكرة الأربعة، أستعيد مشاهد وأحاسيس وأشخاصاً وخيبات ومواقف وآلاماً، أشعر بأنني وحيد وسط حطام ذاتي، أقف على ركام تفوح منه رائحة الهزيمة والاستسلام، لكنني أستشعر أن بيدي أن أخطو خارج ذلك الخراب، أن أسحب قدميّ بعيداً عن تلك المذبحة، أن أنجو من لحظة تنكيس الروح التي هي أشد لحظات الهزيمة إيلاماً، وأبقاها مرارة.. لكن كيف؟

لست أدري!

(45)

القاهرة، ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

تلـك لحظـة كنت أنتظرهـا وأخشـاها، أترقب مواجهـة مع رجل يذكرني وجهه بكل شـقاء عمري، رجل تجسّـدت على يديه تعاسـتي، ربمـا لم أكن أكرهه لذاتـه، وإنما لأنه زفّ إليّ يوماً موتاً غير منتظر، وآلاماً لا تحتمل، واختطف في لحظة فرحة عمري التي كنت أحلم بها.

كنت أعلم أنه يتوق إلى قتلي، لكنني ولدهشـتي لم أكن أتمنى موته، كنـت أدعـو الله أن يطيل في عمره، ويزيد شـقاءه، فطـول العمر مع الشـقاء هو اللعنة الأبدية، كم تمنيـت أن أراه يتألم مثلما أورثني – بلا سـبب أعلمه – ألمي الأبدي، أن يعيش منبـوذاً مطروداً من رحمة الله والناس، جـزاء لما فعل بي وبابني، لكنني رغم كل تلك الكراهية التي تكبـر فـي قلبي كل يـوم، مثلما يكبر ابني بين آخريـن إن كان حياً، أو تتحلـل عظامـه في باطن الأرض إن كان ميتاً، كنـت أنتظر هذا اللقاء بشوق عظيم، فهذا الرجل الذي لا أبغض أكثر منه على ظهر الأرض هو الوحيد القادر على أن يمنحني فرحة تنسيني كرهي له، هو الوحيد القادر على أن يعيد لي حياتي وطفلي، فوحده دون كل الخلق ربما هو من يعرف مصير طفلي الذي لم أره، وربما هو القادر على إعادته لي أو تركي فريسة لنيران اللهفة تلتهمني.

جاء الجاشنكير وسط حراسه ورجاله، وكأنما أراد أن يزهو بقوته وسطوته على امرأة وحيدة، لم تمتلك سوى صوتها وصبرها تواجه به كل جبروته، دخل منتفخاً وكأنه انتصر للتوّ في معركة مصيره، كنت والشيخة غازية متكومتين على أرض أحد أركان تلك الغرفة المظلمة عندما دخل ذلك الوحش بين رجاله الحاملين لمشاعل من نار، لا أعرف إن كان يريد أن يراني على ضوئها، أم ليمنحني الفرصة كي أراه، وربما ليحرقني بها حية، لم يكن يعنيني من الأمر شيء.

ظل يروح ويجيء أمامنا في صمت، عاقداً يديه خلف ظهره، يقترب حيناً وينظر إلينا في تشفّ واضح، وكأنه وحش يتشمم فريستيه، وفي النهاية انحنى أرضاً، وجعل وجهه في وجهي مباشرة، ونظر بحدة داخل عيني، رأيت فيهما الكثير من الغضب رغم مكابدته لكتمان مشاعره، مثلما رأيت في عينيه الغدر في تلك الليلة المشؤومة في قصر السلطان، ظل لدقائق ينظر في عيني، كنت على ثقة أنه يقرأ فيهما كل ما اختزنته له من كراهية، كم أردت في تلك اللحظة أن تنبت لي أنياب أو أظافر وحش، كي أنقضّ عليه، وأشفي غليلي بدمه، لكنني كنت أعجز من أن أتحرك، كل ما كنت أستطيع فعله هو تحديه بعينيّ اللتين لم تنكسرا أمام نظرته الشيطانية.

أكنتِ تتصورين أنك تستطيعين الهرب مني؟

سألني وهو يضغط على كلماته، وكأنه يريد أن يمزق السؤال بأسنانه، أو يجزّ رقبتي بكلماته.

أردت أن أقول له إنني لم أكن أسعى للهرب بقدر ما كنت أبحث عن لقائه، لكنني لم أقل شيئاً، ويبدو أن صمتي أثار أعصابه أكثر،

ولـــم يمنحه انتصــــاره الذي يبحث عنه، ظل يتحــرك في انفعال وهياج واضحين، حتى خشـيت أن يأتي بفعل مفاجــئ ينهي تلك الفرصة قبل أن أعرف ما أريد.

أين ابني؟؟

كلمتـــان نطقـتُ بهمـــا بصعوبـــة بالغـــة، حمّلتهما كل جحيـم ألمي وانتظـــاري المميت، بقدر ما وضعت بهما حنين أمّ إلى وليد لم يمنحها القدر فرصــــة أن تتأمل وجهه لتحفظ ملامحه، أو تدثره في ذلك الثوب الأبيــض الذي كان يرقد إلى جواري، فلما رحل، غزا البياض بفراغه اللامحــدود قلبـــي، تركني كأمّ موســى بفؤاد فارغ، وقلـــب ملتاع، أيها «الفرعون» ردّ لي ابني، ذلك الذي اختطفته مني، ولم يحمله نـهر القدر إليك، ابني ليس «موسى» ابن الماء، لكنه ابن الغدر وزمن الخيانة الذي تتغير فيه الأقدار بضربة سـيف، أو بمحض صدفة، فيجلس من يمتلك السـيف أو تختاره الصدفة على عرش مصر وتجري تلك الأنهار من تحته، لكنه لا يكتفي بأنهار الماء، فيضيف إليها نهراً من دم ودمع، وأنا لست أمّ موسى، تلك المرأة القدرية التي امتلكت من اليقين حدّ أن تلقي بابنها في اليمّ، إنما أنا مجرد امرأة ثكلى غالبتها الأحزان فاستسـلمت، وعندما منحتها الدنيا فرصة لتسـتريح غررت بهـــا، وفاجأتها بصفعة لازالت تتلمس آلامها على وجه القلب كل لحظة.

تغيرت ملامحه، علت وجهه دهشـــة، وكأنه لم يكن يتوقع سـؤالي، هل كان يتوقع أن أرفع راية استسـلامي من أول سؤال، أم كان ينتظر أن أمنحــه صـك الانتصار بإعـلان ندمي ورجائـي أن يعفو عني، لا يمكن لرجل أن يفهم إحســاس أمّ جريحة فـي وليدها، فمن تمنح الحياة

لكائن ضعيف لا يملك من أمره شـيئاً، تهـون عندها الحياة عندما تفقد هذا الكائن.

أهذا كل ما يهمك؟ ظننتك ستسألينني عن زوجك الجبان الذي تركك وحدك وهرب؟

قالها بنبرة تحدّ، ربما ليسـتفزني، أو ليذكرني بإحدى أكبر خيباتي، الرجـل الذي تركني وحـدي أواجه الموت والظلم، ولـم يهتم حتى أن يطمئـن علـى ما جرى لنا، فـي تلك اللحظة كنت أمـام خيارين إما أن انسـاق وراء ما أراده ذلك الجاشـنكير من سؤاله الماكر لينكأ جرحي بقسوة، فأخرّ مهزومة أمام طعنته، وإما أن أتماسك وأفوّت عليه نصره المنتظر.

هو فارس وقائد من أبطال المماليك، ويستطيع أن يتدبر أمره، لكن كل ما يعنيني هو ذلك الرضيع الذي اختطفته، وحاولت أن تنفذ في ذلك الوليد المسكين انتقامك الذي عجزت عن أن تلحقه بأبيه، أمن الشجاعة أن تنتقم من رضيع؟!

احتقن وجهه، وكأنما صفعه سـؤالي وتماسـكي، انحنى مجدداً إلى الأرض حيـث كنت أجلس، وضع وجهه بالقرب من وجهي، سـمعت لأنفاسـه صوت حشـرجة، وكأن مرجلاً يغلي بداخله، وجهه محتقن، قطـرات عرق تغطي جبينه، وكأنه في حلبة مصارعة، أو في مبارزة قاسية.

أنـتِ كما أنتِ، امرأة عنيدة، وجاريـة عاصية، لكنني أعرف كيف أكسـر روحك، وأذل نفسك، لن تعلمي مصير ابنك، سأتركك هكذا في

جحيم الانتظار، فمعرفة مصيره سلوى لن أمنحك إياها، والموت لك أيضاً راحة لن تطاليها طالما بقيتِ بين يدي.

لم أرَ في حياتي غضباً مثلما رأيت في وجهه في تلك اللحظة، غضب جاء من أعماق سحيقة، كأنه يتجمع منذ الأزل، لينفجر في وجهي، لم أتخيل أن أثير كل هذا الغضب في داخل ذلك الرجل الذي خاض عشرات المعارك، وواجه أعداء من الصليبيين والتتار، لكنهم ربما لم يستفزوا غضبه بقدر ما فعلتُ أنا! لماذا؟ لا أدري، وددتُ أن أعرف وقتها كي أستريح، أتكون أمّ جريحة أقسى على طاغية من جيوش الصليبيين والمغول؟ أتستطيع امرأة أن تستثير بصوتها الأعزل غضب ملك تحت إمرته جحافل الجنود والعتاد؟ أية معركة في مواجهتي لا يستطيع أن يحسمها ذلك الطاغية من أول نزال؟ ربما كانت معركة الكرامة، وربما كانت معركة الحق الذي لا ينتزع بسيف، ولا يُفرض بقوة، لأنه يستمد وجوده من قوة قاهرة تحمل اسمه وتقف وراء إقراره، لا ترهبها جيوش، ولا يقف دونها سلطان مهما علا.

بتلك القوة المفاجئة التي تملكتني، وكأنها تتفجر في داخلي من مصدر مجهول، نظرتُ في عينيه، بتحدّ غريب لا أدرك كنهه، استطعت الصمود في مواجهة غضبه المتطاير في كل اتجاه، لم يستطع أن يكسر عيني، أو يجبرني على انسحاب من وجه جبروته، فانتفض فجأة وكأنه خشي هزيمة مباغتة في مواجهتي، أدركت أنه يفكر كيف ينتقم مني لأنني أفسدت عليه نصره الزائف بطعنة صدق، أنزلته من قمة خيلائه إلى وحل حقيقته، وسط جنوده عرّيته من أبّهته وغروره فانكشف مخذولاً غاضباً، كنت أعلم أن انتقام الضعيف الخسيس أشد خطراً من بطش القوي، لكن كل شيء تساوى أمامي في تلك اللحظة، الموت والحياة،

النصـــر والهزيمـــة، لم تكن تعنيني كيف تأتيني طعنتـــه الجديدة، أدركت أنـــه في تلـــك اللحظة لن يهزمني مجدداً، كان هـــذا انتقامه الأخير، نهاية مأساتي مع ذلك المسخ البشري الذي ما رأيته إلا ولاحقتني المصائب.

في لحظـــة خروجه من القبر الذي يحتجزوننـــا فيه، وقف عند بابه ينظـــر إلينـــا للمرة الأخيرة، لـــم تكن نظرة وداع، بقـــدر ما كانت نظرة ذئب نحو فريســـته التي يوشك على تمزيقها، فيها من الاشتهاء والتنمر والرغبة في الانتقام، بقدر ما فيها من زهو القدرة على الفتك، لكن ذلك الذئـــب العاجز والعجوز لم يكن ليفترســـني بأنيابه، وإنما بأنياب جنوده الذيـــن كانوا يعرفـــون ما يريده منهم، ولم يكونـــوا بحاجة لأن يلقي لهم بالأمر حتى ينطلقوا في مهمتهم الدنيئة.

فـــي لحظات انهارت جدران القبر فوق جســـدي الذي تكالبوا عليه، وكأنه خصمهم الوحيد، يمارسون عليه وفيه كل فنون الافتراس القذر، أنيابهـــم وأظافرهم تنهش كل ما يصلون إليه من جســـدي الذي انتفض انتفاضتـــه الأخيرة، أدافع عن حصني الباقي، شـــرفي الذي يريدون أن يسلبوني إياه، بعدما عجزوا عن أن يسلبوني إياه بهزيمة روحي.

أقـــاوم وأقاوم، أحول دون حصنـــي الأخير، وكلما قاومت يزدادون شراســـة، تلك معركتهم الأعنف، كل الرجال الذين أثخنتهم الهزائم في الميادين يأبون أن ينهزموا أمام امرأة، أصرخ، أتمزق لحماً ودماً، أرى الشيخة غازية تســـاندني، تحاول أن تزود بجسدها الهزيل عني، لكنهم يطرحونهـــا أرضاً، ويلقون بهـــا بعيداً، تعود إليهـــم بصرخات جديدة، تكيل لهم الضربات، فيقذفون بها بعيداً عن فريســـتهم الوحيدة، تتراءى لعينـــي تلك الطفلـــة البريئة التي يختطفونها من يـــد أمها، تبكي وحيدة،

أشـــعر بدموعها ســاخنة على وجهي لم تجف منذ سنوات، طفلة تبحث عـن يد أمهـا وطفلها الوحيد، سـماء رائعة الزرقة تطل بعيداً، أشـــعر بأنني أجري لاحتضانها، أسـتفيق فجأة وأواصـل مقاومتي المحمومة والجنونيـة للـزود عن حصنـي الأخيـر، أدرك أن معركتي رغم كل خســائرها لن تنتهي بانتصار، لكنني أصر على الاسـتمرار في القتال حتى النهاية، إن كنتم تريدون هذا الجسد فلتأخذوه ميتاً.

تتداخل ضرباتنا وصرخاتنا، مقاومتي تصيبهم بهياج أكبر، يدركون أن هزيمتهم تساوي الموت، وأعرف أن انتصارهم يعني قتلي.

تأتيني أشـباح كثيـرة من تلك السـماء الزرقاء الصافيـة التي تعود مجـدداً، فأعـدو إليها حنينـاً لتلك الطفلـة الباكية، لاتزال تبكي، أشـعر بدموعهـا تـزداد لهيباً، وجوه كثيـرة تطل من تلك السـماء نحوي، وأنا أعدو بعيداً بعيداً نحو تلك الطفلة، أهرب من شيء خلفي يرعبني، أخاف أن التفت ورائي، تتسـارع خطواتي نحو تلـك الطفلة التي لاتزال تبكي وتبتعد عني، أشـعر أكثـر بالخوف، أعدو كأنني أفرّ من جحيم، أشـعر بقلبـي يتوقف فجأة عن النبـض، فأتوقف وأنا ألهث، وفـي تلك اللحظة أتجاسر على النظر خلفي، فأجدني ملقاة هناك في ركن ذلك القبر المظلم تتكالب عليّ أنيـاب الذئاب، وحيدة أنتفض، ومجدداً أنظر بعيداً إلى تلك الطفلة الباكية، المسافة لاتزال بعيدة، تقتلني الحيرة، في أي اتجاه أسير؟!

أغمض عينيّ، وأسـتمع إلى وقع دقات قلبي، ولا أرى سوى سماء كانت زرقاء..

فجأة صارت تمطر.... دماً ودموعاً!!

(46)

القاهرة، يونيو 2012

بعدها لا شـــيء ســوى فراغ، أحسســت الفراغ يغزو كل شيء من حولي يجتاح قلبي وعقلي بلا توقف وتنهار حياتي من حولي وأنا أقف مشدوهاً لا أستطيع حراكاً، لم أدرك حقيقة ما أضعت إلا عندما ضاعت ريم مني، والأسوأ أنني كنت أسير إحساسي بعجز غريب لا يغادرني.

أحسست بالإهانة بعد لقائنا الأخير، لكن إحساسي بالعجز والحقارة كان أكثر، فما أحقر أن يتخلى الإنسان عمّن يحب في منتصف الطريق، بــل وفي أحلك اللحظات ظلمة، عندمـــا تتكاثف الغيوم، ويصبح البحث عن بصيص نور من يد مخلصة في الجوار هو كل ما نمتلكه من أمل، فقط إحساس بالمســاندة والإيمان بمن نحب، حتى ولو لم نفعل شــيئاً، لكن حتى ذلك الإحساس البسيط كنت عاجزاً عن تقديمه لمن منحتني – رغم كل آلامها – الثقة وأنا أقف ضائعاً وسط متاهة نفسي.

شــعوري بالتضـــاؤل يقتلنـــي في اليــوم آلاف المــرات، وموجات النــدم تلطمني كل لحظة بعنف حتى صــرتُ تحت وطأة صفعاتها مثل صخرة صماء على شاطئ مهجور، لا تملك سوى أن تتلقى مزيداً من الصفعات في صمت.

حاولـــت مـــراراً أن أتصل بهـــا، أن أوضح لها حقيقة ما أشـــعر به، لكننـــي أتراجع دوماً في اللحظة الأخيـــرة، ربما لثقتي بأن الجرح الذي تســـببت فيه أقســـى كثيراً من أن تداويه الكلمات، وربما لأنني كنت في حاجـــة إلى التطهر من ألمي بهذا الجحيم الذي لا يرحم، ولا يرجى منه خروج.

وزاد مرارتـــي ما عرفته وأنـــا أتصيد أخبارها من بعيد، فقد قررت أن تخـــوض صراعـــاً قضائياً لكشـــف حقيقة ما جرى معهـــا مع فتيات أخريات، لكن معظم تلك الفتيات الضحايا خذلنها، إما خوفاً من فضيحة وبضغط من أهلهن، وإما بضغط من ســـلطات رســـمية وأجهزة كانت تخشـــى أن يؤدي تفجر مثل هذه القضية إلى مزيد من ارتباك المشـــهد السياســـي المتأزم أصلاً، وأن يتم اســـتغلال القضية من جانب خصوم السياســـة للهجوم على السلطة الحاكمة وتحميلها المسؤولية، ومن أجل ذلك سعت تلك الأجهزة لإقناع الفتيات – ترغيباً وترهيباً – لعدم السير فـــي الطريق القضائي، لكن ريم رفضت، وقررت الســـير في الطريق الـــذي اختارته حتى النهاية ولو ظلت وحيدة، وهو ما حدث فعلاً، الكل يخذلونهـــا، وأنـــا أول من خذلها، لكنها تســـير بتصميـــم يثير في داخلي الدهشـــة واحساســـاً بالخزي، وكلمـــا تقدمت في طريقها اتســـعت الهوة بيننا، فقد كان كل منا يسير في اتجاه مولياً ظهره نحو الآخر، ووحدي كنت أتلفت ورائي ربما ألتقي وجهها.

حتى تلك المرة التي استجمعت فيها ما تبقى لي من شجاعة، واتجهت إلى ســـاحة المحكمة، حيث تســـتمع المحكمة في ذلك اليوم لشهادة ريم عما وقـــع لها، تعمدتُ أن أذهب متأخراً، وتســـللتُ لأجلس في المقاعد الخلفية، لم أشـــأ أن تلتقي عيوننا، القاعة ممتلئة عن آخرها بالحضور،

وسـائل إعلام ومحامون ومسـاندون لريم في قضيتها، لكنني رغم كل شـيء شـعرت بالقاعة خالية إلا منـا أنا وهي، كلانـا كان بحاجة إلى الآخر ليقف إلى جواره، فالعالم كله لا يعدل من نحب إن كان لجانبنا.

عندمـا قامت لتدلي بشـهادتها شـعرت وكأنها تحادثنـي أو تحدث نفسها، كانت رغم كل الزحام حولها وحيدة، منعزلة، بلا سند، استعدت تفاصيل تلك الجلسـة الحزينة، نفس التفاصيل المؤلمة، نفس المشـاعر الذبيحـة، ألـم لا تفلح الأيام فـي احتوائه، فجرح الـروح يزيده الزمن احتقاناً.

القاعة صامتة، الكل يسـتمع لروايتها حول ما حدث، تتسـع عيون دهشـة، وأخرى فضـولاً، وثالثة تلصصاً، معظم مـن جاؤوا لا يهمّهم سـوى انتزاع كلمة من هنا أو هناك ليتاجروا بها بطرق شتى، ما أسوأ أن تتحـول آلامنا إلى سـلعة يتداولها النـاس، أن نعرض جراحنا على الملأ، لماذا تضع الأقدار تلك الفتاة في مثل هذا الموقف؟ لماذا تعرضها لمثل تلك الاختبارات القاسـية؟ هل لأنها رفضت الاستسلام واختارت طريقها بنفسـها، أم لأنها لا تشـبه أولئك النساء الضعيفات المستكينات اللاتي يتحول الظلم والرضى به إلى جزء من شخصياتهم؟

في تلك اللحظة شـعرت بفداحة ما فعلت بريم، أنا شـريك في تلك الجريمـة، ذبحتها بالصمـت والخذلان، في وقـت لا تنفع فيه أنصاف المواقف.

وفي تلك اللحظة أيضاً التقت عينانا، كانت عائدة لمقعدها في الصف الأول بالقاعـة، بينما كنت في الصـف الأخير، عيناها المثقلتان بالدمع والحسـرة تنوءان بحملهما، تبحثان عن شـاطئ ترتمـي في أحضانه،

كأنها تجوب البحار منذ مئات السنين، تحمل صرخات كل النساء عبر التاريخ، تجسّـدت لناظري كتلك المرأة المملوكية التي هجرتني عندما افترقت وريم، نفس المأساة تتكرر، وذات الخيبات لا تنتهي.

أحسستها أقرب ما تكون إليّ في تلك الفترة، وأبعد ما تكون أيضاً، الندم يمزقني والإحساس بآلامها يكاد يقتلني، لكن العجز يشل أطرافي، حـوار طويل دار بين عيوننا في أقل من ثانية، غضب، ندم، ألم، لوم، خيبة، انكسار، وفي النهاية فراق.

لم أطق الجلوس لثانية أخرى في تلك القاعة، أحسسـت أنني أموت ببـطء، أحتـاج إلى أن أستنشـق الهواء، خرجت وكأننـي أفرّ من قاتل يطاردني، وقفتُ على سلم المحكمة أنظر إلى الشارع المزدحم بالمارة والسـيارات، وألتفتُ ورائي حيث يجثم في تلك القاعة جبل من الآلام، لا أحد يكابد النار إلا من يمسك بجمراتها.

في تلك اللحظة أحسسـت بالحريق يجتاحني، واشـتممت احتراقي الداخلي، فألقيت بنفسـي وسـط تيار الحياة العارم، علّه بحركته التي لا تتوقف ولا ينظر خلفه أن يهبني سـلوى تطفئ ما بداخلي، أو يلقي بي تحـت أقدام تلك الحياة العابثة فتطحننـي، مثلما تطحن في دورانها كل يوم آلافاً لا تكترث لحظة بآلامهم، فأي مصير مهما كان أسود لن يكون أسوأ مما أعانيه.

(47)

القاهرة، ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

أيام طويلة لا أعرف لها عدداً مرت عليّ وأنا في ذلك القبر المقفر، تقول الشيخة غازية أنني قاربت الأسبوع أعاني من تلك الحمى التي لا تهدأ، مرة أخرى تعاودني الحمى، وكأنها رفيقة كل مصائبي، أو كأنها المهرب الوحيد لروح وجسد حاصرتهما الآلام فلم يجدا في مواجهتها من سبيل سوى الغياب عن الوجود.

لا أتذكر من تلك الأيام سوى رؤى مشتتة، تلك الطفلة الصغيرة التي تجري تحت سماء زرقاء حاملة دمية قماشية صغيرة تحتضنها وتحميها كأمّ، لم تفارقني تلك الطفلة بعدما مزقني كلاب الجاشنكير وانتهكوا عرضي، كأنني كنتُ طوال أيام الألم أراقبها أو أتلهى بها عن ألمي، ربما لم أكن أريد أن أفيق من تلك الحمى، ما تمنيت الموت أكثر من تلك اللحظة، فالموت بالنسبة إلى مثلي راحة يهفو إليها، تمنيت ألا أفيق من رقدتي، طالما كانوا يريدون إذلال روحي بذلك الجسد، فليأخذوا الجسد رمّة بالية، وليتركوا روحي تحلق مع تلك الطفلة تحت السماء الزرقاء، لكن الموت صار حلماً بعيد المنال.

أفقــت بعد أيام، كانــت آخر رؤية لتلك الطفلة وهــي تغادرني نحو أفــق لا ينتهي، قبل أن أفيق بلحظــات، جاءتني عند الغروب، ورفعت إليّ يديها تناولني دميتها القماشية الصغيرة، نظرتُ في عينيها، وجدت زرقة الســماء قد انحســرت في عينيها وغابت عن الوجود من حولي، تناولــت دميتهــا، كانت ملفوفة في قماط قماشــي بــالٍ، حاولت أن أكلم تلك الطفلة قبل أن ترحل، لكنها لم تمنحني فرصة، فقد ابتعدت ســريعاً نحو المغيب، وعندما رفعت القماط عن وجه تلك الدمية، إذا بالدهشــة تشــلني، كان طفلاً حقيقياً، رضيعاً جميلاً نائماً، ولم يكن دمية، حاولت أن أصرخ لأستعيد تلك الطفلة، لكن صوتي لم ينطلق، نظرت ثانية في وجه ذلك الرضيع، ففتح عينيه، وابتسم لي، وفي تلك اللحظة استيقظت فجأة لأجدني ملقاة على أرضية تلك الزنزانة القبر، رأسي يتوسد حجر الشيخة غازية والماء يغمرني، لا أدري إن كان ذلك جراء العرق الذي يندفع من كل جســدي بغــزارة، أم أنه الماء الذي غمرتني به الشــيخة لتدفع عني الحمى.

كل شــيء كما هو، جميع تفاصيل الكابــوس ماثلة حولي، لم يتغير منها شــيء، الزنزانة والضوء الخافت، رائحة الذئاب، وملمس العذاب فوق الأرضية الباردة، طعم الهوان في كل شيء.

عندمــا أفقت تهلل وجه الشــيخة غازية وكأنهــا تلتقيني بعد غياب، «علمتُ أنك ســتخرجين منها»، بتلــك العبارة بادرتني، لم أكن أعرف إن كانــت بقولها تريد أن تمتدحني، أم أنها تتنبأ بأن قصتي لم تنتهِ بعد، لكن قلقها لم يكن خافياً، كانت مصفرة الوجه هزيلة بشدة، وكأن الموت لم يكن يحاصرني وحدي، وإنما كانت تراه يجالســها في تلك الزنزانة، أحســـت في تلــك اللحظة أننا نواجــه مصيراً واحداً وإن تشــعبت بنا

الطرق، أدركت أن تلك المرأة التي كانت تستميت في الدفاع عني في محاولة يائسة لإبعاد ذئاب الجاشنكير عن التهام جسدي، إنما كانت تدافع عن نفسها أيضاً، تخشى على روحها من أن تتمزق بين أنيابهم، كانت تدافع عن نفسها من خلالي، وفي تلك اللحظة أيضاً شعرت كم كانت منكسرة مثلي، مهزومة، لا تملك من أمرها شيئاً سوى تلك الابتسامة التي تحاول بصعوبة أن تحتضنني بها لتقول لي «اصمدي»، بينما هي من تتمسك بأهداب الكلمة، تحاول أن ترددها في داخل نفسها، أن تستمع لصداها الذي يطوف جدران النفس، ليصعد بعدها ويتردد بين جنبات تلك الزنزانة الفارغة، أخشى ما أخشاه أن تغزو تلك الزنزانة داخلنا، فنتحول إلى زنزانتين فارغتين، تقبع داخلهما روحانا، بلا أمل في الخروج، فمن كان سجيناً لديه أمل يوماً في أن يتخطى قيوده وجدران سجنه، ومن كان سجنه داخله فلا أمل لديه في النجاة.

أحسست بعطش شديد، وبحروف هزيلة ومهزومة طلبت الماء، فناولتني جرعة صغيرة، وقالت إنها آخر ما تملكه من ماء، بعدما استخدمت كل ما كان لديها في محاولة حصار الحمى من أن تفترسني، ابتسمت مجدداً وهي تحاول أن تخفف عني وتقول إن جنود الجاشنكير يبدو أنهم نسونا، فمنذ أيام لم يأت أحد إلى الزنزانة ليلقي لنا بجرعة ماء أو بعضاً من الطعام، وربما قرروا أن يقتلونا بالجوع والعطش بعدما عجزوا عن قتلنا بوسائلهم الأخرى!

حاولت أن أقوم من رقدتي بصعوبة بالغة، أحسست أن جسدي يتحطم، وأن عظامي هشة لدرجة أنها لا تقوى على حملي، بل إنني سمعت لجسدي صوت تمزق وتحطم، وكأنما كنت أخرج من ركام، لكنني في النهاية وبمساعدة الشيخة غازية استطعت القيام، وأسندت

ظهري إلى الجدار البارد الذي لامس جسدي المحتقن كنصل، فانغرزت برودته في جسدي مضيفة ألماً جديداً إلى آلامي، نظرت إلى الشيخة غازية وحاولت أن أتكلم، ناولتني تلك الجرعة الأخيرة من الماء، أدركت أنها لم تشرب منذ فترة بعيدة، فقد ادخرت الماء كله من أجلي، وشت شفتاها البيضاوان بعطشها وصبرها، وعندما سألتها أن تشرب جرعة ماء هي الأخرى اعتذرت بأنها صائمة، أي صوم لسجين لا يعرف إن كان سيفطر أم لا، أم أنه الانتظار الأبدي لمعجزة في زمن خاصمته المعجزات؟!

على ذلك الركن المظلم وقعت عيني، فسقطت ذاكرة الألم فوق رأسي كانهيار جبلي عنيف، أحسست بوطأة الذكرى ربما أشد إيلاماً من الواقعة ذاتها، أشحت بوجهي بعيداً، أحاول أن أفر من تلك المشاهد، لكن الذكرى تطاردني من داخلي، فأين المفر منها؟!

وحدها الدموع كانت سلوتي في تلك اللحظة، أمطرت عيوني ربما لتبرد جوف غضبي، لكن طعم الدموع المالح زادني مرارة وألماً، كنت أعرف أن شيئاً لم يعد يفلح لتهدئتي، لكنني أيضاً أيقنت يقين العاجز أنني لا أملك دواء لخيبتي كي تلتئم به جراح نفسي. صفعني إحساسي بالعجز، فضاعف من آلامي، فانفجرت في بكاء مرير. احتضنتني الشيخة غازية وربّتت على كتفي، لكنني ما وجدت بين ذراعيها سوى المزيد من العجز، امرأتان وحيدتان، سجينتان، تواجهان وحدهما الظلم والموت، بلا أمل في نجاة، أو قدرة على فعل، في تلك اللحظة رفعت عيني إلى تلك الكوة الصغيرة أعلى الزنزانة، ونظرت إلى نور الفجر الذي كان يوشك أن يغمر العالم خارج ذلك القبر المظلم، تأملت بصيص الضوء وهو يبدد الظلمة في معركة جديدة أزلية، محسومة

النتيجة، فهمست: «يا صاحب النور، لماذا تحرمنا من نورك؟ أنت أعلم بعجزنا فامنحنا موتاً مريحاً، أم أنك تضنّ حتى بالموت علينا؟!».

نظرت إليّ الشيخة غازية في استنكار، أمسكت بكتفي، ونظرت بعمق في عيني، وقالت:

يا ابنتي أما سمعت قول الرسول الكريم «لا تتمنوا الموت»، أعرف أن ما تعانينه كثير، لكن لا تيأسي من رحمة الله.

أين تلك الرحمة في كل ما جرى ويجري لي؟!

تغيرت ملامحها، ولا أعرف إن كانت في تلك اللحظة قد غضبت من كلماتي، أم أنها كانت تخشى عليّ من مآل خطير تدفعني كلماتي إليه.

وهل اليأس والقنوط سيخرجانك مما أنت فيه؟! ليس لنا من دون الله معين بعدما تكالبت علينا الدنيا، فارمي بهمومك على الله، والجئي إليه تجدينه إلى جوارك، أما القنوط من رحمته فسيسلبك سلاحك الأخير في وجه ظالميك، فأنت ترجين من الله ما لا يرجون، تذكري يوسف عليه السلام، عندما تمسّك بأمله في ربه فخرج من الجبّ، وعندما انشغل بمصيبته عن ذكره لبث في السجن بضع سنين.

استشعرتُ صدق كلماتها يتسلل إلى روحي، لكن آلامي كانت تحاصرني:

أين نحن من يوسف؟؟ إنهم لا يرون فينا إلا امرأة العزيز!

كل مظلوم هو يوسف في زمانه، والله من فوق سبع سموات يسمع ويرى.

«يسمع ويرى».. «يسمع ويرى»، رددت كلماتها همساً بين شفتيّ، وكأنني أسمعها للمرة الأولى، أو كأنها تتنزل على نفسي كترياق، شعرت بأني أزيح من فوق صدري حجراً جاثماً منذ عقود، وبزفرة محمومة كأنها تخرج من أعمق أعماق جوفي، وجدتني أهتف بصوت مسموع:

«يا رب».....

(48)

القاهرة، ديسمبر 2012

تيـار الأحداث في مصر لا يكـفّ في تلك الفترة عن الهدير، ألقيت بنفسـي وسـط أمواجه علّهـا تغرقني وتغرق معهـا همومي في دوامة الانشـغال، قضيت شـهوراً أطـارد أوهامـي، أعمل سـاعات طويلة محمومـة، وكأنني أنتحـر بالعمل، انتقلـت للعمل في قسـم المتابعات الميدانية، فربما وجدت في اصطخاب ما يجري بالشارع صوتاً يطغى على عواء الندم وفحيح العجز بداخلي.

الأمـور من حولي لوحة داكنـة، مليئة بتفاصيل، غارق أنا فيها بلا أمـل في النجاة من براثن تلم التفاصيل التي تتكاثر كعشـب شـيطاني، سـرعان ما ينمـو ويلتف حولي، حتى يتحول فـي لحظة ما على غابة أقف وسـطها دون أن أبصر طريقاً للخروج مـن تلك المتاهة الأبدية، الواقـع من حولي انعكاس لاشـتباك وارتباك لا ينتهـي، كأنه انعكاس لداخلـي، أو ربمـا صبغ ما يجيـش بداخلي الخارج مـن حولي بألوانه القاتمة، لست أدري، كنت في حيرة لا أرى لها نهاية، لكنني لا أستطيع معها سـوى أن ألقي بنفسـي أكثر وسـط الدوامـات المتلاطمة ليضيع وسطها القلب والعقل.

ووسط كل هذا بدأت أستشعر رغبة دفينة بداخلي للاقتراب من عالم الموت، كان الموت من حولي في كل مكان، في شوارع القاهرة المشحونة بالأحداث والانفعالات، التظاهرات والمسيرات، وفي وجوه الجثث المجهولة التي تسقط بلا ثمن أو سبب قبل أن تتحول إلى مجرد أرقام في «مشرحة زينهم»!

كنت ألاحق الموت بنهم غريب، بل إنني في لحظة ما تصورتُ أنني أصبحت خصماً للموت لأنني أفضحه، لأنني أكشف تلك اللحظات التي يدهم فيها ضحاياه، لم يكن بتلك القوة الأسطورية التي نتصورها عنه، أو التي كانت ترويها الحكايات والمواعظ الدينية، فكم من موتى سقطوا بلا سكرات، بلا حتى صرخة ألم، فقط سقوط يعقبه صمت دائم، وكم من موتى كانوا يغنون أو يواصلون الهتاف، أو يجأرون بأسماء من يحبون قبل أن يرقدوا رقدتهم الأخيرة.

لا أعرف إن كان اقترابي من الموت رغبة في الهروب من عالم الأحياء الخانق، أم فراراً من عذاب النفس الذي بات جحيماً لا يطاق، لكنني ومع كل مرة يحوم فيها من حولي طائر الموت أستشعر تهيباً، ألوذ بجبني مرة أخرى حصناً، وأعرف أن ذاك الحصن لن يصمد إذا ما جاءت الساعة الحاسمة، لكنني ومع ذلك كنت ألقي بنفسي في مواقع الخطر، يأساً أو جنوناً، فالنتيجة واحدة، لكنني في ذلك اليوم عرفت أن الموت أذكى مما كنت أتخيل، وأنه قادر على اقتلاع أرواحنا دون أن يقترب منا، فعندما يحوم حول من نحب فإنه يسلبنا أرواحنا، ولو تركنا أحياء!

في ذلك اليوم وصلتُ إلى القصر الرئاسي المعروف بقصر

«الاتحادية»، كانت هناك دعوات للتظاهر حول القصر، الأجواء ملبدة برائحة الخطر، فقد بتُّ أشتمُّها من بعد، حلقات من شباب الإسلاميين توجد عند مدخل المنطقة، تفتش الداخلين إلى محيط القصر، بينما غاب وجود قوات الشرطة أو الحرس الجمهوري، استغربت ذلك المشهد، لم تطل علامات استغرابي، فمع كل خطوة تتوالى علامات الاستفهام والدهشة، سألني أكثر من حاجز مررت به عن سبب وجودي، وكان من السهل المرور تحت حماية بطاقتي الصحفية، وإن كان الأمر لم يخلُ من مضايقات لكوني أنتمي إلى صحيفة قومية، لكن استشعار شباب الإسلاميين أنهم صاروا هم الدولة منحهم ثقة لم تكن موجودة لديهم عند التعامل مع الصحفيين الذين ينتمون إلى صحف ووسائل إعلام طالما كانت أداة في يد الدولة، وسيفاً على رقاب المعارضين.

خطوات قربتني من القصر الرئاسي، الذي بدا متحصناً وراء جدرانه، يحاول أن يتعالى على ما يجري خارجه، لكن حتى الأسوار والأبواب الحديدية تحت ضغط حصار الآلاف من الغاضبين، لم تستطع قبل أشهر أن تحمي ساكن ذلك القصر من مصير لم يتخيله يوماً، وها هو الغضب يعود مجدداً لمحاصرة نفس القصر، حتى وإن تغير ساكنوه.

بدا كل فريق وكأنه يضع حدوداً لدولة غضبه، ويتحصن خلف تلك الحدود، فعندما تغيب السلطة، تغري أوهام القوة الجميع، وتصبح لغة الغلبة صاحبة الصوت الأعلى.

في طريقي مررت بحلقات لمؤيدي الرئيس يجلسون على الأرض وفوق الأرصفة، بعضهم يتحدث في السياسة، ويصبّ غضبه على

المعارضين الذين لا يريدون الاعتراف بالديمقراطية، رغم أنهم يتشدقون بها ليل نهار، بينما انهمكت حلقات أخرى في حديث يختلط فيه الدين بالسياسة، يتذاكرون سير الصحابة والشهداء من المسلمين الأوائل، الذين دافعوا عن قضيتهم واستشهدوا من أجل هزيمة الكفار، وانبرى أحدهم يعدد أوجه الشبه بين ما خاضه المسلمون الأوائل، وما يخوضه الإسلاميون في مصر حالياً.

أزعجني كثيراً ما سمعته في تلك الحلقات، وأصابني قلق شديد لما يتهدد مصيرنا جميعاً، فالخلاف السياسي ليس معركة بين الإيمان والكفر، ولا ينبغي أن يكون، وخصوم السياسة شركاء وطن، لا أعداء دين، هممت أن أتدخل في الحديث، وأحاول التحاور مع هؤلاء الشباب، لكنني خشيت عواقب ذلك الفعل غير المحسوبة، فاكتفيت بتصوير جوانب مما يجري حولي، متحصناً بالصمت.

أخرجت أوراقي لأسجل بعض الأفكار، وما رأيته وسجلته منذ قدومي، وبينما أتشاغل بأوراقي إذا بهتافات تتعالى لمعارضين، تأتي من مسيرة خارجة للتوّ من أحد الشوارع الجانبية باتجاه القصر، كانت المسيرة إلى يساري، وبينما كنت أتبين اقتراب تلك المسيرة، هالني صوت هادر يأتي من اتجاه المؤيدين، على الفور أدرت زر تشغيل الكاميرا، لأصور ما يجري، اندفع شباب الإسلاميين بقوة نحو المتظاهرين القادمين من الشوارع الجانبية، وبدا أن صداماً دامياً على وشك الوقوع، قررتُ أن أبحث لنفسي عن موقع يمكنني من أن أرصد ما يجري دون أن يطالني منه أذى، بحثت عن مكان مرتفع يمكنني من تسجيل كل شيء.

صعدتُ فوق سلم أحد المباني القديمة المطلة على الساحة، واختبأت وراء الكاميرا، وأخذت أنظر في شاشتها التي كانت تسجل اشتباك الجانبين، بينما انطلقت مجموعة من الشباب لا أعرف من أين ظهروا في تلك اللحظة، اندفعوا بقوة ونظام واضحين، وسط الفوضى التي سيطرت على المكان، لم يكن هدفهم واضحاً حتى وصلوا إلى مجموعة من الفتيات اللاتي كن ضمن صفوف المسيرة القادمة، اندمجوا وسط الصفوف وأخذوا يهتفون بأصوات مرتفعة مع الهاتفين، لكنهم كانوا يتحركون بطريقة بدت محكمة في تلك اللحظة، عندما التفوا حول بعض المتظاهرات، وكأنهم يقمن بحمايتهن من الاعتداءات والاشتباكات التي اندلعت عنيفة قاسية في تلك اللحظة، واصلتُ متابعتي بالكاميرا لإحدى تلك المجموعات، وكان ما رأيته أفظع من أن يُحتمل، كانوا يجردون فتاة من ملابسها، وهي تقاوم بكل ما أوتيت من قوة، يتناوبون نهشها، الأصوات تتداخل، صراخ وهتاف، عويل ودويّ طلقات، قربت سريعاً الكاميرا لالتقاط صور للوجوه، فاغتالتني الكاميرا بلقطة واحدة لتلك المرأة التي بدت في النزع الأخير من مقاومتها، وفي طريقها للسقوط على الأرض.

في تلك اللحظة تغير كل شيء، وجدتني فجأة أندفع نحوها بكل قوة، كان وجهها يقتحمني، منقضاً على قلبي من الشاشة عندما نظرت باتجاهها.

فقد كانت ريم هي من تسقط على الأرض.

لا أتذكر كثيراً مما وقع في تلك اللحظة، فقد كان مشهد سقوط ريم شبه عارية على الأرض أقرب إلى نهاية العالم بالنسبة إليّ، لم أتصور

يوماً أن أرى مشــهداً كهذا، ألقيت بكل شــيء من يدي واندفعت بكل ما أملــك من قوة نحوها، كان الحصار قوياً ومحكماً، حاولوا أن يمنعوني من الوصول إليها، لا أعرف من هؤلاء، يدعون أنهم يقومون بحمايتها، بينما هم يخفونها عن العيون، وينسحبون بها إلى أحد الشوارع الجانبية مــن أجل إتمــام جريمتهم، أحاول عاجــزاً اختــراق حصارهم، لكنهم يواصلــون الابتعاد بها، وعندمــا أيقنوا أنني أدرك ما يفعلون بدؤوا في ضربــي بحجة أنني مندس علــى التظاهرة وأريد التحــرش بالفتيات، لكنني واصلت الصمود، والصراخ من أجل إنقاذها من أيديهم.

لم أكن أشــعر بجســدي في تلك اللحظة، أتلقى اللكمات والركلات، لكنني كنت أشــعر بجســدها هي وهم يســحلونها على الأرض، أنا من يتألم لتمزيقها، ويكاد يفقد الوعي من هول ما يرى، لكنني لم أستســلم، فاستســلامي معناه ضياعها، كنت على اســتعداد لأن أفقد روحي، ولا أفقدها مرة أخرى، كأنهم كانوا ينهشــونني أنا وليس هي، يعتدون عليّ أنا وليس هي.

جســدها المسفوح على أرض الشارع هو عرضي أنا، ودمها الذي يسيل تحت وطأة إصرارهم على تمزيقها لم يكن سوى دمي، أية رجولة تبقى لي بعد اليوم إن أنا ضيعتك الآن، أي عمر يمكن أن أعيشه إن لم أخرجك مما أنت فيه، خذلتك مرة، وها هو القدر يضعني أمام الاختبار مرتين، ولن أفشل هذه المرة ولو كانت حياتي هي الثمن.

تحاملــت على الضرب والــركل، والأعداد التي بــدأت تتزايد من حولــي، الفوضى تتصاعد، وكلما زاد العدد وجدتني أبتعد عنها، لكنني لا ألبــث أن أقاوم أكثر، فيزداد ضربهم لي، كل ما كان يعنيني في تلك

اللحظة أن أصل إليها، أن أغطيها بجسدي، أن أنزف بدلاً منها، أن أحميها بحياتي، أن أخرجها من تلك الدائرة المميتة ولو لم أخرج أنا.

اندفعت بما تبقى لي من قوة نحوها، وأنا أصرخ باسمها فقط، وحده اسمها هو ما كان يستحق أن أهتف به في لحظات ربما تكون الأخيرة في حياتي، وحدها تلك المرأة التي وجدت لديها نفسي، ولما ابتعدت عنها ضاع مني كل شيء، حتي روحي التي ما لبثت أن وجدتها، سرعان ما تسربت من بين جوانحي، عندما لم أشارك تلك المرأة ما كانت تدافع من أجله.

وكما أنقذتني ريم يوماً من غيابات ضياع الروح، أنقذني اسمها مجدداً، ففي اللحظة التي كانت تفقد فيه مقاومتها، وتغيب عن الوعي، وكنت أنا أصرخ باسمها بأقصى ما أمتلك من قوة، وصلتُ إليها، وألقيت بنفسي عليها لأحميها ممن كانوا يفترسونها غير مكترثين بموتها أو بحياتها، فلم يكونوا بحاجة سوى إلى ذلك الجسد.

في تلك اللحظة التي ظننت أنها النهاية، كان اسمها الذي صرختُ به قد وصل إلى مسامع بعض الشباب المشاركين في التظاهرة فالتفتوا إلى ما كان يجري وسريعاً جرى بعضهم نحونا، بينما تبدد في لحظات رهط الذئاب، ذابوا في الفوضى المحيطة تماماً مثلما جاؤوا منها، فالفوضى هي مأواهم الذي يجيدون الظهور والاختفاء فيه.

في لحظات انتهى كل شيء، لكننا بقينا على أرض الشارع أشلاء ممزقة آثاراً لمرور العاصفة، لم أستطع أن أفيق من ذهولي سريعاً، كان كل ما حولي مشوّشاً، غامضاً، غائماً، لكنني كنت أستشعر أن الخطر زال، وأن الموت أمهلني إلى حين، لم تكن رقصتي مع الموت

هــذه المرة ناعمة، أو ملاحقة من بعد كما كانت كل مرة، وكأنها حوار بين اثنين يريد كل واحد منا أن يوصل رسائله للآخر دون كلمات، لكنها كانت رقصة متوحشــة، صداماً عنيفاً، رســالة مكتوبة بالدم، والأخطر أنهــا لــم تكن حياتي فقط، بل حياتها هي أيضــاً، فلو أنها حياتي وحدي لمــا أزعجني الأمر، لكن الموت أراد أن يســتعرض أمامي قوته، أراد أن يقول لي إننا لســنا نديّن، وإنه لا يخشــاني، بل إنه قادر على إيلامي بصورة لم أتوقعها لحظة، وأظن أن رسالته وصلتني ووعيتها تماماً.

التفتُّ إلى ريم التي بدت وسط بكائها الهستيري، كحطام سفينة ألقت بها العاصفة على شاطئ مجهول، مذهولة هي الأخرى، لا تكاد تعرف مــن الوجوه حولها أحداً، ترتعد، لا تفــرق بين يد تمتد نحوها لتمزقها، وأخــرى تريــد أن تأخذ بيدها لتقــوم من عثرتها، ظلــت تنظر للجميع بذهــول وخوف، وعندما التقت عينانا، تضاعف بكاؤها، تريد أن تقول شــيئاً، لكنها لم تجــد كلماتها أو لســانها في تلك اللحظة، فاســتعاضت بدموعهــا عن الــكلام، أدرك ما تعانيه، فالصدمة ربمــا أفقدتها النطق للحظات، وليتها أفقدتها الإحساس فلم تكابد تلك اللحظة القاتلة، فأخطر لحظات الكارثة ليس لحظة وقوعها، وإنما ما يعقبها عندما ندرك فداحة ما وقع لنا، وما خسرناه خلالها.

احتضنتها، وخلعت سترتي لأداري بها عري ما تمزق من جسدها، حاولت أن أطمئنها أنني إلى جوارها، لكنها واصلت بكاءها الهستيري، وتحولــت في صدري إلى عصفور ينتفض، تحــاول مقاومة دموعها، تســعى بكل ما تبقى لها من مقاومة أن تخرس ذلك البكاء، لكنها كانت أضعــف من أن تتصدى له، لا أدري كــم طالت تلك اللحظة، بعد فترة وجدنا بعض المحيطين يطلبون منا أن نتوجه إلى المستشــفى الميداني

لتلقي العلاج، وبعدها يمكن أن نحاول التعرف إلى بعض وجوه هؤلاء الذئـــاب، كنت على يقين أننا لن نجد منهم أحداً، فهم يعرفون ما يفعلون جيـداً، لكنني في تلـك اللحظة تذكرت كاميرتـــي، وحقيبتي التي ألقيت بها عند ذلك المكان المرتفع الذي كنت أصور منه ما يجري، بســرعة عدوت نحو ذلك المكان، فلم أجد سوى حقيبتي، بينما اختفت الكاميرا، التي كانت دليلي الوحيد للوصول إلى هؤلاء المجرمين.

انســحبتُ مستسـلماً إلى المستشـفى الميداني، وجـدتُ ريم تخضع للعلاج، لكن أي علاج يمكن أن يداوي جراح الروح التي تمزقت؟!

جلستُ إلى جوارها، وقد هدأت بعض الشيء، لكنها لم تفق بعد من صدمتها، حاولت أن أمسك بيدها، لكنها نزعتها مني في ذعر، أدركت عمق ما تعانيه، حاولت أن أتكلم، فلم أجد ما أقوله.

جـاء العديـد من الأصدقـاء بعدما علمـوا بما جرى، سـألوني إن كنت أعرف أحداً ممـن فعلوا ذلك فأجبت بالنفي، وأخبرتهم بموضوع الكاميـرا، وأنها الدليل الوحيد لدينا للوصـول إلى الفاعلين، وأخبرتهم بأنها الوحيدة التي فقدت من بين كل أدواتي التي تركتها عندما رأيت ما حدث، فأخبرني بعض من كانوا هناك أنها لن تظهر، فمن يريد السرقة كان سـيأخذ الحقيبة والكاميرا، أمـا أن يأخذ الكاميرا وحدها، فهو يعلم جيداً ما يريد، ويعلم جيداً ما بها.

انســحب الجميع بعدما اطمأنـوا علينا، وتركونا فـي ذلك الصمت المؤلم، بين أنات المصابين، وصرخات الأطباء من أجل الحصول على مواد الإسـعافات الأولية للمصابين، والحركة المحمومة من أجل إنقاذ ضحايـا وطن يقتتل أبناؤه لأنهم لا يعرفـون كيف يتحاورون، وجدت

نفسي أستعيد الكثير مما جرى لي خلال الشهور الأخيرة، أراجع ما جرى لي ولها، هل كنت يوماً أتخيل أن تقلب امرأة كل موازين حياتي بهذا الشكل، فمنذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، وهي لا تحمل لي سوى المفاجآت، لا ترضى بأنصاف الحلول، ولا تقبل بمساومة من أجل موقف، ما أعتقده جنوناً، يصبح معها قمة العقل، وما أحسبه موقفاً عاقلاً، يصير في حضرتها قمة الجنون، ألم ألتقها في لحظة جنون، ألم تبدأ قصتها معي بفعل مجنون، ألم نقرر الزواج في فورة فرحة مجنونة؟ ألم نفترق إلا بسبب ما ظننته إعمالاً للعقل؟!

هي امرأة لا تشبه أحداً.. لا تقبل القسمة على قواعد العقل، فإما أن تقبلها – كوطن – بكل ما تحويه من جنون، أو فلتختر وطناً ترتحل إليه بعقلك.

نظرتُ إليها، وكانت في تلك اللحظة تحت تأثير مهدئ، أشبه بطفل نائم، وجهها المثخن بالكدمات وبقع الدم المتخثر، والمطهرات واللاصقات الطبية يحمل جمالاً لا يراه إلا من يستطيع النفاذ عبر بوابات الجسد إلى آفاق الروح، أما من يقف عند أعتاب العقل، فلن يمتلك يوماً تذكرة للسفر نحو منابع الجنون، عندما تأملت وجهها في تلك اللحظة لم أر فيه سوى طفلة صغيرة تمسك بدمية قماشية تدللها، وتجري بصحبتها تحت سماء زرقاء بلا هدف.

في تلك اللحظة كنت على يقين بأن روحي تقبع داخل تلك المرأة، وأن عثوري على روحي يتطلب أن أمتلك ما يكفي من الجنون من أجل أن أخوض رحلة عكس شلال الحياة الهادر، ومن البراءة كي أتعامل مع تلك الطفلة التي يستهويها الضوء، وتخشى من الظلمة، ولا يعنيها

مــن بين كل حطام العالم سـوى دميتها القماشــية، التي يمكن أن تكون يوماً ما طفلاً تراعاه، أو رجلاً تساعده ليجد روحه المفقودة.

لامســت يدها، فاســتيقظت، نظرتُ إليها في حنوّ، وربما ارتسمت على وجهي ابتســامة، فلم أكن أمتلك القــدرة على التحكم في عضلات وجهــي المهشّــم، أردت أن أقول لها كلاماً كثيراً، عن كل شــيء، عن حياتــي معها، وقبلها، عن مصيري معها وبها، عما أحدثته بداخلي من ثــورة بينما كانت تبحث هي عــن ثورتها، أردت أن أعتذر لها عن كل لحظــة لــم أكن معها فيها، عن أيام لم أذق معها فيها لذة الجنون، أردتُ أن أقول لها «آسف»، لكنني وبغير إرادة مني لم أجد سوى كلمة واحدة مــن بين كل قاموس الكلمات الذي اختفى من رأســي في تلك اللحظة، ولم تبقَ به إلا.... «أحبك».

(49)

القاهرة، ربيع الأول 709هـ – سبتمبر 1309م

يبـدو أن السـماء قـررت أخيـراً أن تفتـح أبوابها لنـداء امرأتين ضعيفتين، فما جرى في ذلك اليوم كان معجزة حقيقية، لم أصدق يوماً أن أعيشها.

فـي ذلك اليـوم كنا ننتظر أن يتذكرنا السـجانون بالمـاء والطعام، بعدما نسونا لعدة أيام، حتى ظننا أنهم يحاولون قتلنا بالعطش والجوع، لكن في ذلك اليوم وبينما كنا نحاول أن نصرخ من خلف الأبواب بعدما سمعنا حركة مرتبكة خارجها، فأردنا أن نستنجد بمن في الخارج، علّه يلقي إلينا ببعض الماء أو الطعام، لكن الحركة المحمومة في الخارج لم تتوقـف، فتعالى صراخنا، حتى جاء إلينا أحد حراس القلعة، ويبدو أنه لم يكن يعلم بوجودنا في ذلك القبر، فقد سألنا دون أن يفتح لنا عن سبب وجودنا في هذا المكان، وعندما أبلغناه أن الجاشنكير هو من سجننا في هذا المكان، طلب منا الجندي أن يذهب سريعاً ليأتي بمن يساعده على فتح الباب.

أخرستنا الدهشـة عن تبادل أي حديث، فكيف لجندي يعلم أن ملكه

هو من قرر سجننا في هذا المكان ثم يقرر أن يخرجنا مما نحن فيه، لا بد أن في الأمر خدعة ما، أو أن من كان يحدثنا ليس جندياً، وربما كان يحاول العبث بنا والسخرية من مأساتنا، لكن الدهشة الأكبر كانت عندما جاء الرجل الذي كان يحادثنا وبصحبته جنديان آخران، وأخذوا يحاولون فتح الباب المغلق، وبعد عدة محاولات انفتح الباب، وانهمر ضوء الفجر في عيوننا التي لم تر النور سوى من تلك الكوة المرتفعة في أعلى الحجرة المقفرة، حاولت أن أتفاداه، لكن شوقي إلى الحرية كان أكبر من حرصي على حماية عيني، فاندفعت خارجة من تلك الزنزانة القبر، وكأنما خشيت أن يتراجع الجند عن تحريرهم لنا، وبعدما استطعت الرؤية بوضوح، نظرت إلى هؤلاء الرجال باستغراب، فوجدتهم – ويا للعجب – بالفعل جنوداً، لكنهم من المصريين وليسوا من المماليك، وقد وقفوا يتأملوننا وكأننا من أهل الكهف، وبادرني أحدهم عمّن جاء بنا إلى هذا «الإسطبل» المهجور، وعندما أعدت عليه أننا سجناء منذ فترة بعيدة، ويبدو أن جنود الجاشنكير نسونا، رد الرجل بتلقائية:

أكيد بسبب ما يجري فوق في القلعة.

دفعني الفضول إلى سؤاله عما يقصد، لكن الشيخة غازية كانت أسرع مني، أو ربما أكثر فضولاً، فبادرته بالسؤال، فرد أحدهم بقوله:

يقولون إن السلطان الناصر سيعود من الكرك، وأن رجال الجاشنكير تخلوا عنه، حتى الأمير برلغي سار بجنوده إلى الملك الناصر، ويقال إن الجاشنكير عندما علم بذلك أسقط في يده، وعلم بزوال ملكه، فبرلغي زوج ابنته الوحيدة وأحد خواصه المقربين.

لم أصدق في تلك اللحظات ما أسمعه، وظننت أنني في حلم غريب، أو أنني ربما أعيش في توهماتي، وأخذت أنظر في دهشتي إلى الشيخة غازية كأنني أسألها «هل تسمعين ما أسمع؟»، لكنّ جندياً آخر قاطع حوارنا الصامت مستكملاً ما كان يقوله زميله:

ليس هذا فقط، فالأمير سلار نائب السلطنة انقلب على الجاشنكير، ورفض مساعدته، أو حتى المجيء إلى القلعة عندما استدعاه الملك لمساعدته في مواجهة الناصر، وتعلل بمرض يقعده عن الحركة، ويقال إن خواص الجاشنكير عنفوه بشدة على إبقائه سلار نائباً، وأن جميع هذا الفساد منه، فإنه لما فاتته السلطنة وقام الجاشنكير فيها، حسده على ذلك ودبر له، والجاشنكير في غفلة منه فإنه لم يكن يظن أن سلار يخونه.

أية معجزة أعيشها في ذلك اليوم؟! أيكون ما أسمعه حقيقة، إنه أمر يفوق كل الأحلام؟! مازلت أسيرة دهشتي، لم أتمالك نفسي، فسألت الشيخة غازية التي كانت تقف صامتة، تستمع إلى الجنود، سألتها وأنا لا أتمالك كلماتي «أحقاً ما أسمع»، فأجابتني بكلمات بسيطة لكنها جسدت كل ما واجهته في حياتي، وكأنها دسّت بين حروفها وقائع حياتي: «إنها دعوة المظلوم يا ابنتي»!

لم تكد تنهي عبارتها حتى علت ضجة كبيرة من اتجاه الشرق عند الأبواب الخلفية للقلعة، بالقرب من الخزائن وعلى مرأى من الموقع الذي نقف عنده، فجرى الجنود وتبعناهم إلى حيث علا الصياح، وقفنا في مكان مرتفع لنرقب واحداً من أغرب المشاهد التي رأيتها في حياتي، وربما أغرب مشهد يمكن أن يكون أهل مصر قد رأوه في

حياتهم، حتى إنني ساورني شك بأنني لازلت على قيد الحياة، فما كان يجري أمامي لم يكن من تلك الأمور التي تجري على الأرض، فقد رأيت الجاشنكير يفرّ هارباً بعدما قام بنهب الخزائن والخيل وتوجه إلى باب الإسطبل للفرار مع بعض أمرائه ومماليكه البرجية وكانت عدّتهم نحو سبعمائة فارس فاجتمع العوام عند الباب، فكأنما نودي في الناس بأنه خرج هارباً، فاجتمع العوام، وعندما برز من باب الإسطبل صاحوا به وتبعوه وهم يصيحون عليه بالشتائم والسباب، وزادوا في الصياح حتى خرجوا عن الحدّ، ورماه بعضهم بالحجارة، فشق ذلك على مماليكه وهموا بالرجوع إليهم ووضع السيف فيهم، لكن الجاشنكير منعهم من ذلك، وأمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه، فأخرج كل من المماليك حفنة من الذهب ونثرها، فلم يلتفت العامة لذلك وتركوه وأخذوا في العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم ورجعوا إلى العوام، وظلوا يهددون العوام حتى غاب الجاشنكير عن الأنظار.

هذه المرة لم أصدق حقاً ما أرى، كان ما يجري أكبر من أن يستوعبه عقلي، أو يدركه خيالي، الجاشنكير يفرّ بجنوده من العوام، والفقراء الذين ربما لا يجدون ما يقتاتون به لا ينحنون لالتقاط ذهبه ويواصلون مطاردته، أي حلم أرى، بل أي خيال أحيا؟!

أفقت من أسئلتي على صوت أحد الجنود وهو يقول لزميله مندهشاً «ماذا جرى للناس، لم يعد يغريهم الذهب، أو يرهبهم السيف؟»، فسألته مستفسرة:

وماذا حدث لتقول ذلك؟

فرد الرجل، وكان لايزال غارقاً في دهشته أيضاً:

لما علم الملك المظفر باستيلاء السلطان الناصر على دمشق بغير قتال، عظم ذلك عليه وأظهر الذلة، وخاصة عندما جاءته الأنباء بأن عساكره خرجت شيئاً بعد شيء تريد الناصر حتى لم يبق عند الجاشنكير بالديار المصرية سوى خواصه من الأمراء والأجناد. ثم أخرج المظفر عدداً من المماليك السلطانية إلى بلاد الصعيد، وظن أنه ينشئ له دولة هناك، وكان العوام يسيرون كل يوم بهجاء الجاشنكير وترديد الأشعار التي تحط من قدره، وتسخر من نحسه وسوء طالعه على البلاد والعباد، فقبض المماليك على جماعة من العوام، وضُربوا وشُهّروا لإعلانهم بسب المظفر بيبرس، فما زادهم ذلك إلا طغياناً، ولم تهدأ غضبة الناس، بل زادوا في ثورتهم ضد الجاشنكير ورجاله، وأخذوا يرددون أشعاراً كانت تغنيها امرأة اختفت فجأة كان يقال لها دنيا الدمشقية، لكن البعض يقول إن جنود المظفر قتلوها، والبعض الآخر يقول إنها هربت إلى الشام، لكن أحداً لا يعرف على وجه اليقين مصير تلك المرأة التي أشعلت بأغانيها ثورة العوام.

نظرتُ إلى الشيخة غازية ولأول مرة منذ شهور، وربما لأول مرة على الإطلاق أراها تبتسم، فالقدر يمنحنا وسط المعاناة، لحظات مثل هذه اللحظة، لا يمكن أمامها إلا أن نبتسم، ابتسمتُ لابتسامتها، وظن الجنود أننا قد أصبنا بمسّ من الجنون، فهذا ليس بموقف يسعد له إنسان، فسألنا أحد الجنود عما يدعونا إلى الابتسام، فأجبته ببراءة لا تخلو من سخرية:

لأننا الوحيدتان اللتان تعلمان مصير دنيا الدمشقية... فأنا دنيا الدمشقية!

أخرست الدهشة الجنود الثلاثة، ولم يتكلموا لفترة، وعندما بدؤوا يخرجون من صدمتهم، سألتهم الشيخة غازية إن كانوا يعلمون أين سُجن الشيخ ابن عطاء الله السكندري، لكن ملامح الدهشة التي كانت تعلو وجوه الجنود الثلاثة تغيرت، واكتست حزناً عميقاً، فأجاب أحدهم بعد صمت:

الشيخ ابن عطاء الله مات في محبسه قبل شهر، ودفن في المقطم، أكنتما تعرفانه، رحمه الله؟

سقط سؤاله في هوة من الصمت، فقد كانت الصدمة أكبر من أن تتيح لنا إجابة، أهكذا يرحل صاحب المقام الرفيع، «قطب العارفين» و«ترجمان الواصلين» و«مرشد السالكين»، أهكذا يغادرنا الرجل الذي حمل يقينه في قلبه، وطاف به الأرض، ولم يخشَ أن يواجه الملك الظالم من أجل امرأة ضعيفة، لماذا في لحظة الانتصار، تدهمنا الخسارات الكبرى؟ لماذا أيها القدر ترفض أن تمنحني لحظة فرح خالصة؟ لماذا كلما اقتربت من الاطمئنان لك تجيبني بطعنة تعيدني إلى ما وراء جدران خوفي وألمي؟ في لحظة الانتصار النادرة دهمتني دموعي من أجل الشيخ الجليل الذي سقط ضحية أخرى على دربي الطويل الذي صار مليئاً بدماء الأبرياء، ولم يعد به سوى أشواك وقبور لأحبة لم يقترفوا ذنباً سوى أنهم صادفوني في دربهم، أكتبت أنا قصتهم، أم أنهم هم من كتبوا قصتي، أم تقاطعت قصصنا على درب الألم والنهايات المفجعة؟ أية دموع تكفي لنبكيك أيها الشيخ الجليل، وأية أحزان على رحيلك يمكن أن يحويها قلب، فلا بد أن أهل السماء يبكونك قبل أن يبكيك أهل الأرض.

تساندت والشيخة غازية، سرنا بخطوات وئيدة، وكأننا ننسحب من ساحة معركة مهزومتين بضربة قدر واحدة، بعدما أوشك النصر أن يغرينا بالفرحة، لكننا اكتشفنا أن هناك انتصارات تهون أمام فداحة ما نخسره من أجل الوصول إليها.

(50)

القاهرة، ديسمبر 2012

في تلك الليلة الطويلة لم أجد للنوم سبيلاً رغم كل آلامي المبرحة، أخذت أفكر في كل ما مر بي طوال الفترة الماضية، أفراح وأتراح، انتصارات وانكسارات، لكنني مازلت أبحث عن شيء أفتقده، ما ألبث أن أقترب منه حتى يراوغ ويذهب بعيداً، ويبدو أنني لم أكن وحدي في تلك الحالة العصية على التفسير، فالوطن كله كان يبحث عن ذاته، يفتش في داخله عن نفسه وروحه المفتقدة منذ عقود، وربما منذ قرون، وكلما نقب وأزاح طبقة من طين تلفّ جوهره الدفين يكتشف أن تحت القاع قيعاناً، وأسفل كل طبقة طبقات، حتى حاصرته تلك الطبقات التي اقتحمها، وصارت هي أعلى منه، فصار كل همّه أن يعود إلى ما مضى، وأن يستعيد وجوده تحت ظل الشمس، بعدما دهمته الفئران المذعورة من ضوء الشمس، وهاجمته الجراثيم التي كانت ارتضت لنفسها أن تقبع بعيداً عن الضوء، تنفصل عن الواقع، وتحاصر نفسها في وجود مضى عليه آلاف السنين، دون أية محاولة لتغيير أو تعديل.

لكنني رغم كل الإحباط الذي أعانيه في تلك الليلة أدرك أن من بين الركام يمكن أن نعثر على كنز مفقود، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

حقاً، ولولا تلك الظلمة لما أدركنا ما نفتقده من حاجة إلى ضياء يبدد كل مخاوفنا، ويعيد الفئران إلى جحورها، ويقضي بضربة نور على كل الجراثيم التي عشّشت في حياتنا نتيجة الغياب الطويل لضوء النهار، كنت على يقين بأن نهاراً سيأتي، وأن ذلك النهار لن يخرج إلا من رحم ظلمتنا التي نعيشها منذ قرون.

في تلك الليلة وجدت نفسي أجمع كل أوراقي التي كتبتها على مدى الشهور السابقة، وكل المشاهدات والاستخلاصات التي انتهيت إليها، ولا أدري لماذا ألحّت عليّ في تلك الليلة ذكرى تلك المرأة المملوكية الغامضة التي ظللتُ لشهور طويلة أتعقب قصتها، وأستفيض في البحث عن زمانها، كان من السهل أن أدرك حجم التشابه بين ما عايشته تلك المرأة وما نعيشه حالياً، فالتاريخ ربما يحمل الكثير من المفاجآت والكنوز التي لا تحتاج إلا إلى من ينقب عنها ويتعقب أسرارها.

أعدتُ قراءة ما كتبته تلك المرأة، وصفها لعصرها، ذلك الملك المهووس بالسلطة، الذي لم يحكم سوى سنة واحدة، أذاق البلاد والعباد خلالها كل صنوف البلاء، أحاط به فيها رجال دين استخدموا الدين لخدمة مصالحهم، فأفسدوا الدنيا والدين، وكرههم الناس، وكرّهوا الناس في دينهم، حاكم لم يسع سوى للحفاظ على سلطته، ومن أجلها فعل كل شيء، وتلاعب به من حوله، فصار أضحوكة الناس.

ما أشبه اليوم بالبارحة حقاً، أية نبوءة تحملها لنا تلك المرأة المملوكية، وهل يمكن أن يعيد التاريخ نفسه بتلك الصورة الغريبة؟!

في تلك الليلة شعرتُ بأنني أقرب ما أكون لتلك المرأة الحزينة، التي فقدت كل شيء لأنها عاشت عصراً لا يعرف غير لغة القوة والسلطة،

ولا يأبه رجاله لمن يسحقونهم من أجل الوصول إلى مبتغاهم، فكل ما جنته تلك المرأة أنها حاولت أن ترفع صوتها احتجاجاً على الظلم التي تعرضت له، رفضت أن تصمت مثلها مثل الآلاف في تلك السنوات، أن تنحني أمام من ظلموها وسلبوها حياتها وطفلها الوحيد، كل جريرتها أنها جأرت بالشكوى، تماماً مثل ملايين المصريين الذين دفعوا ويدفعون من حياتهم الكثير، دماً وألماً وخوفاً، فقط لأنهم أرادوا أن يصرخوا في وجه الظلم والزيف، وها هم يدفعون أثماناً أفدح لأنهم أرادوا أن يقولوا «لا» لمن يريد أن يستلب حاضرهم ومستقبلهم من أجل أن يصطنع لنفسه دولة على مقاس عقله المحدود، ولا يرى أبعد من يديه التي يقبض بهما على عنق من يعارضه، فهو لا يرى إلا من ثقب ذاكرته، ولا يهتم سوى بتصفية الحسابات والانتقام لتلك الذاكرة.

آه أيتها المرأة الغامضة المسكينة، كأنك تعيشين بيننا أو أننا أحفادك من ذلك الطفل الذي سرقوه منك ليلة ولادته ولم تشاهدي وجهه، لكنهم لم يستطيعوا أن يسلبوه تأثير روحك المتمردة، وإرادتك التي ترفض الاستسلام، لربما كنت أنا أحد هؤلاء الأحفاد الذين راكمت السنون في داخلهم رحيق روحك، فصرتُ الآن أبحث عن ذلك العطر الضائع لأهتدي به إلى طريقي المفقود، ولربما تقمّصت روحك جسد ريم تلك التي تئن الآن تحت وطأة آلامها، لكنها لم تفقد يوماً روحها، وكأنك كنت تعيشين بداخلها منذ قرون، تتناسخ روحك وتتعاقب في أجساد شتى حتى وصلت إلى ريم، ألم أجد بها بعضاً من روحي التي فقدت، ألم أتلمس بحضورها المفاجئ في حياتي الطريق نحو نفسي، وكأنني كنت أنتظر دورة التاريخ كي تكتمل بك، بحضورك، بخروجك من رحم الظلمة ودفاتر التاريخ، أن يتم اكتشاف مذكراتك في فترة يعيد

فيها الوطن اكتشاف نفسه، ويعيد الناس البحث عن روحهم المفقودة.

أحطتُ نفسي بأوراقك الصفر، بكل ما كُتب عن تلك الفترة، وكل ما كتبته عنك ومن وحي قصتك، أحاول أن أحتمي بك، أن أستشف من سطورك حلاً للغز، أقرأ في عينيك نبوءات المستقبل، أو أستمع من بين شفاهك الصامتة لمفتاح الحل، لكن الصمت هو كل ما أحصل عليه، الحروف جامدة لا تمنحني أملاً في راحة، وترفض الكلمات أن تهبني نفسها لأكشف سرها أو أفض بكارتها، تصرّ قصتك على كتمان أسرارها، ترفض الإجابة عن السؤال الذي يلح عليّ كل حين، لماذا ظهرتِ في حياتي أيتها المرأة الغامضة، لماذا ظهرت ريم في حياتي معك؟؟ هل هي أنتِ؟ أم أنتِ هي؟ أم أنكما لغز غامض أراد القدر أن أقوم أنا بحلّه؟

أقف أمام الأسئلة عاجزاً بلا حراك، تعلو علامات الاستفهام من حولي كجدار، لا أدري ماذا أفعل لأتجاوزها، فكل ما يجري من حولي يدفعني إلى الشك في كل شيء، حتى في تلك الأحلام التي تراودني، في تلك المرأة التي اقتحمت حياتي بغير استئذان، لتعرض على صفحة عمري قصتها الغامضة، وتلك الفتاة الثائرة التي قفزت هي الأخرى فوق حواجز عزلتي لتلقي بي وسط تيار حياتها الهادر، وتختطفني من صمتي البائس، وتقذفني في أتون أحداث مفعمة بالجنون، أكان كل ذلك هباء.. صدفة؟ أم أن القدر أراد أن يضعني في اختبار، ربما لم يستطع أحد من قبل أن يجتازه، اختبار الحياة، اختبار القرارات الصعبة في وجه المتناقضات، اختبار الاختيار لمرة واحدة فقط وسط عتمة البدائل، الإجابة الصحيحة وحدها يمكن أن تمنحك فرصة أن تعيش برأس مرفوع وقلب مطمئن وروح محلقة، والإجابة الخاطئة

تعني النهاية لكل شيء، للهدوء والراحة والكرامة، وحتى للوجود في حد ذاته.

أعرف أنني ربما أخسر حياتي في أية لحظة، فالسعي وراء إجابات لأسئلة الحياة الكبرى أمر لا يخلو من مقامرة، لكن لم يكن أمامي بديل، فإذا كانت تلك المرأة قد اختارت أن تكون صرخة في وجه ظالميها، مغتصبيها ومغتصبي الوطن، فالصمت إزاء حقها يصبح خيانة، والرضوخ لمن يديرون حياتنا من وراء ستار على هواهم ووفق مصالحهم مشاركة في الظلم، لم تكن تلك المرأة عندما قررت أن تخرج من صمتها وتتحدى ملكاً ظالماً مجرد امرأة تبحث عن وليدها المختطف أو حياتها الضائعة، إنما كانت روح الحق والحقيقة التي تبحث عن قصاص عادل، صوت الوطن الذي ضاق بخانقيه فقرر الانتفاض، وليست ريم إلا بعثاً جديداً لتلك المرأة، إحياء لصوت الوطن الذي أرادوه أن يخرس، لكنه اختار أن يتردد في الآفاق، ويبعث من جديد، مع قصة مختلفة في كل مرة، تختلف العصور، وتتوالى العقود، لكن يبقى الصوت متردداً في أفق الكون يرفض أن يُمحي أو يزول.

في تلك الليلة أدركتُ أين يمكن أن أجد روحي التي أبحث عنها، إنها ذاتها صوت الوطن الذي أرادوا أن يسكتوه، روحي في أن أستعيد المرأة التي أحب، والوطن الذي أبتغي، وإن كان ضعفي قد خذلها وخذلني في المرة الأولى، فلن أتركه يهزمني مرتين.

وجدتُ نفسي أمامها، أحتاج إليها ربما أكثر من احتياجها إليّ، لكن الصدمة لم تمنحني الفرصة لكلمة واحدة، كنت أمام شبح إنسان، بقايا امرأة حاصرتها الآلام، فلم تترك في جسدها أو روحها موضعاً لطعنة

جديدة، حاولت أن أتكلم، أن أطلب منها صفحاً مستحيلاً، أو غفراناً لذنب لا أغفره لنفسي، لكنني لم أجد سوى فراغ، صمته يصم الآذان.

قررت ريم أن تعلن انسحابها الأخير، أن تبقى مع جراحها في ركن مظلم من هذا العالم الذي لم يحتمل وجود امرأة شجاعة، حتى أنا لم تعد بحاجة إلى وجودي جوارها، لا تريد أن ترى أحداً أو تتكلم مع أحد، اختارت بملء إرادتها أن تحيا وحيدة مع أحزانها، فالأحزان وحدها الوفية لمن اغتالتهم الخيانات.

ريم التي أعرفها سقطت في هوّة سحيقة من الغياب، لم تترك لي سوى صرختها الأخيرة تذكرني بإثمي، تتردد كلماتها في أرجاء نفسي «محاربة العالم كله أهون عندي من خيانة أقرب الناس لي»، ينغرس رمحها في قلبي، فيقترب نصل الكلمات من رقبتي «إن تمزيقهم لحمي بأيديهم لم يكن أشد إيلاماً من تمزيقك أنت لكرامتي بموقفك هذا»، يتلاشى احساسي بالوجود من حولي وأنا أواصل نزيف الذكريات، أذني لا تسمع إلا صوتها وهي تردد في انهزام قاتل «حسبتك رجلاً يدرك أن المرأة وطن».

كيف جاءتكِ هذه الجرأة – وأنت البريئة الرقيقة – لتذبحيني هكذا بكلماتك؟!

كيف يمكن أن يتحول المرء في لحظة من قتيل إلى قاتل؟!

لكنني كنت أعرف الإجابة، فأنا من ذبحتها أولاً، أنا من لم يحتمل شجاعتها لأنها تفضح جبني وضعفي، أنا من وضع زهرة حياته الوحيدة قرباناً على مذبح صنم!

تباً للتاريخ الذي تصورتُ أنه يمكن أن يتكرر، لكنني الآن أدرك أن الظلـم والخيانة وحدها تتكرر، فظلمي وخيانتي لريم لا تقل عن أولئك الذيـن ظلموا وخانوا تلك المـرأة المملوكية، هـؤلاء لايزالون أحياء، يتنقلـون بين الأزمنة، لا يواريهم التـراب ولا صفحات التاريخ، دوماً يجدون لأنفســهم مخرجاً للحياة، وأنا واحد من هؤلاء، أسير بخطيئتي بيـن جنبي، بعدما أضعت أنقى ما كان فيّ، ولم يبق لي سـوى ميراث الندم.

(51)

القاهرة، ربيع الآخر 709هـ – سبتمبر 1309م

كانـت القاهرة تضـج بفرحة لم تعهدها من قبل، فبمجرد أن تسـربت أنباء هروب الجاشنكير، خرج الناس من الشوارع والأزقة يحتفلون، حتى هـؤلاء الذين كانوا يتحركون بإمرة رجال الدين ويتهمون الناس بإشـعال الفتنة لم يخفوا فرحتهم، وخرجوا يحتفلون بنصر لم يقاتلوا من أجله.

وبينمـا كنت والشـيخة غازية نجـر أقدامنا نزولاً مـن القلعة، كان النـاس يقابلوننا في الطريق جماعـات يغنون، وبعضهم يحمل الدفوف ويردد الأهازيج، وكأنما كان رحيل الجاشنكير عن القلعة يوم عيد.

ولـولا ما بالقلب من ألم على فراق من رحلوا من أجل تلك اللحظة لشـاركتهم الغناء، فما تصور العقل يوماً أن تكون للظالمين نهاية بهذه الصـورة المخزية، فالرجل الـذي كان قبل أيام يتباهـى على امرأتين سـجينتين بقوّته وجبروته، ويطلق ذئابه عليهما يلتهمون شـرف امرأة كل جريمتهـا أنها قالت «لا»، يخرج اليـوم هارباً متخفياً، لا ينقذه من بطش الناس سـوى سـيوف من بقي معه من جنوده، أية نهاية مخزية حملتهـا لك الأقدار أيها الجاشـنكير، والله إن ذلـك الخروج المذل لهو

أكبر من قتلك، لولا أن العدل يقتضي أن تكون رقبتك ثمناً لرقاب خير منك أطاح بها غدرك وظلمك.

حملتنا أقدامنا إلى حيث «تكية الدراويش»، وقفنا أمام أطلالها نتذكر ما شهدته من أحداث، نستعيد ذكرى الشيخ الطيب ابن عطاء الله، تتردد في أذني صدى كلماته «يا ابنتي لا تقفي أمام تلك اللحظة من الحياة، فلو دامت لمات الناس كمداً، الحزن لا يدوم، والفرح لا يطول»، نعم يا مولانا الحزن لا يدوم، والفرح لا يطول، من كان يتصور أن تلك المرأة الخائفة الهاربة بالأمس تقف اليوم حرة لتستعيد ذكرى تلك الأيام، بينما ذو القوة والسلطان يفر هارباً خائفاً يترقب، يطارده الموت، كما كان يطاردني بالأمس، أية حكمة تسوقها لنا الأقدار في تصاريفها، وأي ضلال يقع فيه العقل لو تصور أنه بقادر على أن يعرف ما تخبئه لنا الأقدار؟

خشيت أن أنهار بكاء أمام تلك الذكريات، أمسكت بذراع الشيخة غازية التي كانت تقف في تلك اللحظات في ذهول، ولا أدري ماذا كان يدور في رأسها؟ فهي الأخرى فقدت الكثير، أختها، وشيخها، وكادت تفقد روحها، حاولت أن أستحثها على السير بعيداً عن المكان، ووطأة الذكريات لا ترحم قلوبنا الضعيفة، لكن أين نفرّ من ذاكرتنا التي تفيض بالأحزان؟!

تحركنا بعيداً عن التكية، وعندما نظرتُ إلى أطلالها مودعة، تذكرتُ نظرة الشيخ ابن عطاء الله الأخيرة إليها وهي تحترق، زلزلتني صرخته، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فما أرخص الدمع نزرفه على ثرى أحبة خضّبوه قبلنا بالدماء.

وكأن درب الآلام لا يريد أن ينتهي في ذلك اليوم، فبعد خطوات وقفنا أمام حمَّام هيفة، وكأنها تطل علينا في هذه اللحظة، فقد كل شيء بعدها بريقه، غادرته الحياة برحيلها عنه، كان الحمَّام مغلقاً، وبدت الحوائط تحت ثقل الأتربة كأنها تتشح بأثواب الحداد، والأبواب المطبقة على ذكريات ما جرى وراءه كأنها تخفي وجهاً يتأهب للبكاء، كل شيء بعدك يا هيفة حزين، مقبض، بلا روح، فهيفة هي روح الحياة الحقيقية، تخطئ، لكنها في لحظة تعلمنا معنى الطهر، تضحك وقلبها يخفي من الآلام ما لا يطاق، أنت الحقيقة يا هيفة وكل ما سواك زائف.

نظرتُ إلى الشيخة غازية فوجدتها غارقة في دموعها، وكأنما تغسل بتلك الدموع قلباً غضب يوماً على تلك الأخت، أو ظلمها لأنها اختارت طريقاً لا ترضاه الشقيقة الكبرى، أم تراها تطفئ بتلك الدموع حزنها على كل ما رحل مع تلك الأخت، فهي كل ما تبقى من عائلة شردتها عاديات الأيام، ووضعت لأفرادها نهايات لم يتصورها أحد، كم كانت الشيخة غازية ضعيفة ووحيدة في تلك اللحظة، فقد فقدت مع هيفة العائلة والذكرى، حتى ولو لم تكن راضية عنها فيما مضى، لكنها على الأقل كانت تشعرها بأن أحداً يأسى لها ويهتم لشأنها، أما الآن فقد صارت ورقة وحيدة على شجرة ذبلت أغصانها، وماتت منها الجذور.

لست وحدك يا شيخة غازية من تتذوقين طعم اليُتم على الكبر، فأنا إلى جوارك لم أشعر يوماً بطعم غيره، لكنني وبعد كل من فقدت، أستشعره أكثر مرارة في قلبي، فاليتم ليس فقط فقد الأبوين، ولكنه فقد القلوب التي تحنو وتدفئ برد الوحدة القاتلة، كم أشعر باليتم الآن وأنا أنظر إلى حياتي فأجدها خالية من كل من أحببتهم، من ورد وهيفة، من القاضي عز الدين والشيخ ابن عطاء الله، فما أفدح خساراتي، وما أشد يتمي!

لـم نجـد غيـر «رواق البغدادية» ملجـأ، كانت الرحلـة منه وإليه مليئـة بالأحـداث، فمنذ أن غادرته بعد تلك الليلـة التي قررت فيه عدم الاستسلام في وجه الجاشنكير كنت أخشى أن أعود إليه، وكان الرواق بالنسبة إليّ صار رمزاً لقهر ذلك الظالم وقمعه لي، لكن اليوم لم يعد لي من مأوى سـواه، بل إنني – ويا للغرابة – شعرت ببعض الحنين إليه، رغم كل ما قاسـيته فيه من ألم، لكنـه على الأقل لايزال موطن ذكرى طيبة لروحي التي فقدت، وشاهداً على بعض تفاصيل قصتي.

دخلنا الرواق، فاسـتقبلتنا نسـاؤه بالترحاب بعد طول غيبة عنهن، كن بائسـات كما تركتهن، بل ربما ازددن بؤساً بسبب ما شهدته البلاد من أحداث عاصفة في الآونة الأخيرة واضطرابات جعلت بعضهن لا يجد ما يسد به رمقه سوى تلك الوجبة الوحيدة التي تلقي بها إليهم آمرة الرواق، فضلاً عن أن جانباً من بطش الجاشنكير قد طال الرواق، وقد خرجت منه لأكون دنيا الدمشـقية لكن بطشـهم لم يطـل بأهل الرواق لأنهم كانوا يدركون جيداً أنهن لا يعلمن عني شـيئاً، وأن آمرة الرواق هـي التي طالها الجانب الأكبر من التوبيخ لغفلتها عني، وعدم إبلاغها البصاصيـن بتحركاتـي بدقة، ونالت من عسـف وتوبيخ رجال الدرك قدراً وفيراً، فكان ما لاقته جزاءً وفاقاً لما فعلته.

كل شـيء تغير الآن، لم يعد هناك جاشنكير يتعقب خوند فرح، ولم يعد له من بصاصين يبحثون عن دنيا الدمشقية، تبدلت فصول القصة، وبات جبار الأمس هارباً مطروداً اليوم!

التفت النسـاء حولنـا تطمئن علينا بعدما هالهـن منظرنا، وما طرأ على وجوهنا وأجسادنا من بلاء بسبب ما شهدناه من معاناة في السجن

وقبله، لكن الشـيخة غازية طلبت منهن أن يتركننا نسـتريح وأن يأتونا ببعض الماء ففعلن، لكن فضولهن لسماع ما جرى لنا كان أكبر من أن ينهيه حسم الشيخة، أو صمتي.

جاءت آمرة الرواق على صوت صياح النساء، فرأتنا، لكنها لم تكن هي ذاتها تلك المرأة القوية التي كانت تستعذب ممارسة سلطتها علينا، انكسـر شـيء، لعله غرور تلك القوة التي كانت تظنها لا تضعف، فقد عرفـت ورأت من هم أقوى منها ينكسـرون، ويفرون هاربين، وربما يؤتى بهم ليلاقوا مصيراً أسـود جراء ما اقترفت أيديهم، تلاشـت تلك النظـرة المسـتعلية، وانحنت الأنف المتعالية، وبـدا عليها أنها أدركت حقائـق الأمور، تصورتُ أنها ربما تحـاول أن تنتقم مني، لكنها كانت أضعف من أن تفعل شـيئاً، فهي من ذلك الصنف الذي تجعله السـلطة يبدو أكبر من حجمه، وأقوى من حقيقته، فإذا مازالت عنه السلطة ظهر على حقيقته صغيراً، هشاً، ذليلاً.

طلبت منها أن أعود إلى غرفتي إن كانت لاتزال شـاغرة، فأجابت بالإيجاب، وأفسـحت لي الطريق، فبدا السـلم الصاعد إلى تلك الغرفة، ملتفاً حول ذاته كأنه طريق لا ينتهي، كنت في غاية من التعب، ودعوت الله أن تكون تلك نهاية الطريق.

طيلـة الأيام التـي تلت عودتي إلى الرواق اعتزلـت الحياة، أردت بالعزلة اسـتعادة روحي التي تهشـمت هناك في تلـك الزنزانة، بعدما نالت منها الأحزان، لكن نساء الرواق لم يتركنني في عزلتي، يتوافدن فـرادى وجماعات بدعوى الاطمئنان علـيّ، يلقين على أرض غرفتي الصامتـة حكاياتهن التي لا تنتهي عما جرى في تلك الأيام، وبدّل حال

البلاد والعباد، يقصصن ما يسمعن في الأسواق وفي البيوت ويتداوله الناس في كل مكان، يروين كيف انكسر الجاشنكير بعدما غضب عليه الناس، وتخلى عنه جنده، وطلب منه كبار قواده أن يكتب إلى السلطان الناصر يستعطفه، ويعلنه بتخليه عن الحكم له، ليعود ويسترد عرش مصر الذي استولى عليه ذلك الظالم لمدة عام، وقيل إنه كتب رسالة بعث بها إلى الناصر مع الأمير بيبرس الدوادار يضع أمره تحت تصرف السلطان الناصر ويقول له «إن حبستني عددت ذلك خلوة، وإن نفيتني عددت ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة»[20].

حتى انكسار الجاشنكير لم يعد يعنيني، فليس في القلب مكان لفرح بعدما احتلت الأحزان جميع أركانه، لكن النساء كن يتصورن أنهن بتلك الحكايات عن هروب الظالم وما لاقاه من خذلان يمنحنني راحة التشفي والانتقام، لكنني كنت قد زهدت الدنيا، ولم أعد أرغب في شيء منها، حتى ولو كان الانتقام، تساوت لدي كل المصائر، لكن التحولات التي كانت تشهدها البلاد في تلك الفترة كانت جد مدهشة، ففي اليوم التالي لهروب الجاشنكير أصبح الحراس بقلعة الجبل يصيحون باسم السلطان الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر بأمر من الأمير سلار، بعدما أقام ذلك الأخير بالقلعة ودبر أمورها بعد خروج الجاشنكير إلى أطفيح، وفي يوم الجمعة التالية خُطب على منابر القاهرة باسم السلطان الناصر وأسقط اسم الملك المظفر بيبرس وزال ملكه.

وأما الجاشنكير فإنه لما فارق القلعة أقام بأطفيح يومين، ثم اتفق

---

(20) ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص216.

رأيه وبعض كبار مماليكه ممن هربوا معه إلى المسير إلى برقة، وقيل إلى أسوان، فأصبح الناس يتندرون بحاله ويغنّون:

مــوكل ببقــاع الأرض يذرعهــا
منخفةالروعلامنخفةالطرب

ولما بلغ مماليك الجاشــنكير هذا الــرأي عزموا على مفارقته، فلما رحــل من أطفيح رجع المماليك عنه شـيئاً بعد شــيء إلى القاهرة، فما وصل الجاشــنكير إلى أخميم حتــى فارقه أكثر من كان معه، فعند ذلك انثنــى عزمه عن التوجه إلــى برقة وتركه كبار مماليكــه وعادوا إلى القاهرة.

وفــي تلك الأثناء وصل السـلطان الناصر إلى قلعــة الجبل وجلس على تخت السـلطنة لثالث مرة، واحتفل الناس بعودته وزينت القاهرة، وبــدأ الناصــر ولايته الثالثــة بالقبض على عدد من الأمراء وحبســهم بالإسـكندرية، وأفرج عن بعض المســاجين والأمراء، كما جرد عدداً من الأمراء إلى دمشــق، وأمّر اثنين وثلاثين من مماليكه، ثم بدأ يجهز للانتقــام من بيبرس الجاشــنكير وســلار.. وقيل إن الجاشــنكير طلب الأمــان مــن الناصر، وردّ الأمــوال التي كان قد نهبهــا قبل فراره من القلعة، وقد سـلمها بيبرس الدوادار إلى السـلطان إلا أن الناصر رغم ذلك أمر بالقبض عليه.

دار القــدر إذاً دورة كاملــة، ومنحنــي انتقاماً لم أتخيلــه يوماً، لكن عندمــا جاء الانتقام، لم أكــن فرحة به، بل إنني لم أكن أرغب حتى في الخــروج مــن غرفتي تلك، فقــط أعيش مع وجوه مــن فقدتهم، وأجتر ذكرياتي، وحدها الشيخة غازية كانت تفهمني وتشعر بما أقاسيه، ربما

نجلس سـوياً ولا نتبادل كلمة، فقد أصابتنـا المحنة بداء الصمت، لكنه صمـت أبلغ من الكلمات، فالألم حينمـا يتمكن من الروح، لا تفلح معه آهات لتخفيفه، ويصير التوجع استجداء لشـفقة لا تسمن ولا تغني من جوع لراحة.

في ذلك اليوم كنت جالسـة مع الشيخة غازية نتبادل الصمت والألم الدفين، عندما جاء من يسـتدعيني إلى قلعة الجبل، انتابني الخوف مما قد ينتظرني وراء تلك القلعة الغامضة المسـكونة بالأسرار والفواجع، لكـن الشـيخة غازية طمأنتني إلـى أنه لن يصيبنا إلا مـا كتب الله لنا، وربمـا كان ما مررنا به هو الجـزء الأصعب من اختبار القدر، وبات علينا أن نرى نهاية الطريق، لكنني كنت أخشـى أن أسـير مجدداً على تلك الطريق.

(52)

القاهرة، جمادى الآخرة 709هـ – نوفمبر 1309م

كل الطرق تتشـــابه تحت وقع الأقدام المهمومـــة، فوجه الطريق لا يختلـــف، وإنما تختلف ذكريـــات مرورنا عليه، نتذكـــر تلك الخطوات الفرحة التي حملتنا يوماً على جناح السعادة، وقد تدهمنا أحزان من وما خســـرناه في رحلة مشؤومة كانت تلك الطريق شاهدة عليها، والطريق إلـــى القلعة كانـــت ذاكرتي التي لا ترحم، عليها صعـــدتُ للمرة الأولى جارية في حريم ســـلطان مصر، وعليها نزلتُ أميرة مملوكية مكرمة، ثـــم توالت الخطـــوات، فصعدتها فـــي تلك الليلة المشـــؤومة لأغني في ذلك الزفاف الذي تحول إلى مأتم ســـعادتي إلى الأبد، وعلى تراب تلك الطريق ذقت طعم الانتصار على جنود الجاشنكير عندما كنت أبارزهم بصوتـــي، لكن ذلك التراب أيضاً امتص روحي عندما اختلط بدم ورد، وبعدها صعدته ســـجينة ذليلة يقتادها الجنود إلى مصيرها الأسود، لكن تلك الطريق أيضاً كانت شـــاهدة على مشـــهد هروب الجاشـــنكير تحت حجارة ولعنات المصريين، ثم نزلته كسيرة مهزومة لا أريد من الحياة ســـوى أن تمنحني نهاية لآلامي، وها أنـــا ذا أعود لأصعد تلك الطريق مجـــدداً ينتظرني قدر لا أعرف وجهـــه، لكنني على يقين بأنه لن يكون

أسوأ مما رأيت، فقد منحتني الأيام العصيبة سكينة الاستسلام التي لا يعرف إليها القلق سبيلاً، وتتساوى أمامها كل الخيارات.

كانت الطريق في ذلك اليوم مزدانة وكأنها تتراقص مرحبة بالسلطان العائد إلى عرشه للمرة الثالثة، وما بين كل رحيل وعودة قصة وضحايا، لكن ما شغلني في تلك اللحظات إدراكي كيف يمكن أن تتشابه الطرق مع البشر، فتنافق من غلب، وتمنح زينتها وبهجتها لمن يملك القوة ليجلس على عرش قلعة الجبل، قبل أن تستقبل رأسه وهو يتدحرج ذات يوم من فوق القمة نحو المنحدر سالكاً طريقاً صعده يوماً ما، وربما لم ير من ملامحه شيئاً، لأنه كان يعانق السماء خيلاء وفخراً!

الناس يغنون في أرجاء القاهرة، فرحين بعودة الناصر، وزوال «نحس» الجاشنكير، تتردد بأصوات شتى أغانٍ شعبية، ويلقي الشعراء ما تجود به قريحتهم، ليتناوله الناس سريعاً ويحولونه في لحظات إلى أغنيات يتردد صداها في أرجاء المحروسة:

تثنى عطف مصر حين وافى
قدوم الناصر الملك الخبير

فذل الجاشنكير بلا لقاء
وأمسى وهو ذو جأش نكير

إذا لم تعضد الأقدار شخصاً
فأول ما يراع من النصير

ربما اشتاق الناس إلى صوت دنيا الدمشقية تشاركهم فرحتهم،

بعدما شاركتهم ثورتهم، لكن دنيا فقدت صوتها عندما تهشّمت روحها، وصوت الفرحة لا يخرج من قلب كسير.

كانت العودة إلى بهو القلعة أمراً لا يحتمله القلب، كل الوجوه التي فقدت كانت لها في هذا المكان حضور، أحاول أن أهرب من نفسي بلا جدوى، أن أفرّ من صوت القاضي عز الدين القيسراني وهو يقف في شجاعة نادرة ليخاطب الجاشنكير في قضيتي، وهيفة وهي تقف إلى جوارى تحاول حمايتي في تلك الليلة التي جئتها إلى هذا البهو كدنيا الدمشقية، أما توأم الروح ورد فلنا في هذا المكان الكثير من الذكريات، قبل أن نفترق، وبعدما تلاقينا لتختار مصيرها إلى جواري، غير عابئة بما يمكن أن تلاقيه خارج جناح الحريم الوادع المستكين.

يا لذاكرة الأماكن القاسية، لا تمنحنا فرصة لنسيان، ومع كل خطوة في رحابها تنثال الذكريات، راسمة بخطوط دامية ملامح من رحلوا، ولاتزال أرواحهم تنتظر الخلاص.

رافقني حاجب السلطان إلى داخل بهو القلعة، كان كثير من الخلق في انتظار خروج السلطان الناصر، أعيان وقضاة، مماليك وولاة، تجار ومشايخ، الجميع ينتظر لقاء السلطان العائد للبلاد مزهواً بنصره على الجاشنكير، وهروب ذلك الأخير المخزي، فمنذ عاد السلطان وهو يتعقب غريمه ورجاله، ويتخذ من القرارات ما يمحو به أي أثر لذلك الرجل في عام حكمه، لكن يبدو أن ناره لن تهدأ إلا بالقبض عليه والانتقام منه.

جلستُ وراء حجاب أتابع ما يدور في بهو القلعة، والجميع يترقب الظهور الأول للسلطان الناصر بعدما أعاده الناس بثورة غضبهم إلى

عرشــه، كان الجميع ينتظر بأي وجه سـيعود السـلطان الذي عصفت المؤامرات بعرشــه مرتين من قبل، وتم خلعه صبياً ثم شـاباً، وها هو يعود إلى قلعة الجبل رجلا فتيا، منحته المحن تدريبا لم يتح لغيره على التعاطي مع دروب السياسة، ودهاليز الحكم.

مضى وقت قصير قبل أن يصيح الحاجب معلناً وصول السـلطان، دخــل الناصر في وقار وســط جمع من رجاله، ويــا لصدمتي، عندما وجدت من بين من دخلوا خلفه زوجي الأمير سـنجر الجاولي، شـلّت المفاجأة حركتي، وظللت أسـيرة صدمتي لفتــرة، أتطلع إلى وجه ذلك الرجــل الذي منحته حياتي ذات يــوم، ومنحني ابناً لم يقدر لنا أن نرى وجهه، لكنه تركني وسط العاصفة وهرب، آثر النجاة بحياته، وربما لم يكن أمامه من بديل لإنقاذ حياته سوى ما فعل، لكنني أنا من دفع الثمن.

أفكار كثيرة تعتصر عقلي، أشعر في لحظة بحنين إليه، فهو الزوج الذي منحني الأمان، وعشت في كنفه أياماً جميلة، وربما كانت تنتظرنا أيام أجمل، لولا رياح الجاشنكير التي أطاحت بأركان سعادتنا، وتركتنا في عُرض الحياة، كل منا يبحث عن شــاطئ نجاته في اتجاه مختلف، وأحيانــاً أحس بغضب مســتعر لتخلّيــه عني، لا أســتطيع أن أغفر له خيانتــه لي بهروبــه، وتركي لمواجهة ما عجز هو عــن مواجهته، ألم يتألم لمصيري وابنه، أم كانت حياته أغلى من حياتنا؟!

يدفعنــي غضبي صوب الجنون، لكنني لا ألبث أن أعود إلى حنين الزوجة ورحمــة الأم، فأتذكر تلك الليلة القاتمة عندما دهمتني الحمى، وكنت أقرب للموت، لعله ســعى لتدبير وسـيلة لهروبنا معه، وأعاقته حالتــي في تلــك الليلة، أو لعل تدافــع الأحداث آنذاك لم يســمح له بأن

يتدبر لنا مهرباً، لكن وسـواس الغضب سـرعان ما ينازعني، ألم يكن بقادر على أن يظل مدافعاً عنا، أليست حياة زوجته وابنه هي أغلى ما يمكن أن يموت من أجله المرء، ما قيمة أن ينجو الإنسان بحياته، بينما تدفع امرأته وطفله الوليد ثمن تلك النجاة، وأي رجولة يمكن أن يدعيها أمير مملوكي بعدما ترك زوجته غارقة في حمى نفاسـها تقاتل الموت والخـوف مع رضيع لم تر وجهه، بينما يكابد هو ليجد لنفسـه وسـيلة للنجـاة، ولربما لم يفكر فينا في تلك اللحظة، أو أنه اعتبرنا عبئاً منحته الأقدار فرصة للخلاص منه!

وبينما أغالب دموعي التي أهاجتها الذكرى، وانسـد حلقي بغضب وعجـز، كان السـلطان قد فرغ مـن حديث بدأه بعد قليـل من دخوله، وحالت أفكاري دون متابعته، لكنني أفقت على صوت حاجب السلطان وهو يدعو لفتح الباب وإدخال الجاشـنكير، الذي كان قد قرر الهروب إلى غزة، لكن السـلطان الناصر أرسل في عقبه الأمير أسندمر كرجي لإحضاره مقيداً، فدخل جنود السـلطان غزة قبل أن يصلها الجاشـنكير ومن بقي معه من المماليك وبلغ عددهم ثلاثمائة، لكن الجاشنكير رفض القتال، وسـلم نفسـه لقوات أسـندمر فعادوا به إلـى القاهرة في صباح اليـوم التالي، بعدما جردوا مماليكه من سـلاحهم واحتجزوهم، ولحق أسندمر بقواته في منتصف الطريق الى القاهرة، فأنزل في الحال الملك المخلوع عن فرسـه وقيده بقيد أحضره معه فبكى الجاشنكير وتحدرت دموعه على شيبته وقدم أسندمر به إلى القلعة.

كان مثول الجاشنكير بتلك الصورة بين يدي السلطان وعلى مرأى ومسـمع من الجميع آية مـن آيات الله في الأرض، فالجبار المسـتكبر بقوته وجبروته وجنوده على امرأتين سجينتين، يلقى به مقيداً ذليلاً عند

أقدام من طـرده وأذله بالأمس، وفي حضرة تلك المرأة التي اغتصبها رجاله قبل أسابيع قليلة، ها هي تلك العينين اللتين شهدتا جبروته، ترى الآن انكسـاره وخزيه، لكن بين المشـهدين بحر من دموع غرقت فيه تلك العينان.

لـم يسـتطع الجاشـنكير أن يقف بقيـوده أمام السـلطان، فخرّ يقبل الأرض بين يدي الناصر يسـترحمه ويطلب عفوه، فأجلسـه السلطان وعنفـه بمـا فعل وذكّـره بما كان منه وعـدّد ذنوبه، فلما فـرغ قال له الجاشنكير:

يا مولانا السـلطان كل ما قلتَ فعلتُه، ولم يبق إلا مراحم السلطان، وماذا يقول المملوك لأستاذه؟!

فرد السلطان الناصر بانفعال واضح:

يا ركن أنا اليوم أستاذك؟!

وهمّ السـلطان بـأن يصدر حكمه بقتله، لكن زوجي الأمير سـنجر تحرك من وراء السلطان، ووقف في مواجهته، قائلاً بسرعة:

يا مولاي، أستميحك عذراً قبل أن تصدر حكمك بشأن هذا الطاغية، فإن لي مظلمة عنده، أخشـى ألا ترد إذا ما نُفذ حكمك فيه، فهذا الرجل أضـاع أسـرتي، واضطهدني حتى خرجت من بيتـي ومالي، وتركت زوجتـي بعدما أخبرتني القابلة أنها ماتت خلال الوضع، وعندما عدتُ وجـدت بيتي خرباً، ولم أهتد إلى أسـرتي إلا بمسـاعدة من تلك القابلة التـي كانـت تقوم على توليـد زوجتي، فروت لي حقيقـة ما جرى بعد رحيلـي، وقد علمتُ منهـا أن هذا الباغي اختطف ابني وتعقّب زوجتي

يريـد الخلاص منها، وألقى بها في رواق الأرامـل والمطلقات، وأنها اسـتطاعت الهـرب مـن جبروته، وقد أرسـلت بعد إذنكـم فأحضرت زوجتي إلى هنا، وهي لا تدري حتى بوجودي، لتعلم أني لم أخنها، ولم أهرب وأتركها، وأنني لما علمتُ بموتها وفقدان ابني الوليد في رحمها، وجـدت الموت أرحب لي من حياة من دونهما، فخرجت أريد الانتقام، إلا أن الجاشـنكير كان أسـرع مني تحركاً، وقد تحصّن بمن خانوا من قادة الجند والأمراء الطامعين بعدما أغراهم بالمال والمناصب، فلم أجد له سـبيلاً، وبعدما رأيت ما جرى للأمير بكتمر السـاقي، لم أجد سبيلاً سـوى الخروج من مصر، وانتظار اللحظة المناسـبة للانتقام، فلجأتُ إليكـم في «الكـرك»، وكنت برفقتكم أعدّ الأيام كـي أعود إلى مصر، وبعد عودتي وعلمي بما كان من ذلك الخائن زادت رغبتي في الانتقام منه، فخرجتُ في عقبه مع جنود الأمير أسندمر عندما علمتُ أنه يريد الهـروب إلى غزة، فكنت من ألقى القبـض عليه، وكنتُ أحرص على حياته منه، إنفاذاً لأمركم فيه، ولكن أيضاً كي يدلني على أسرتي.

خيّـم الصمت على بهو القصر بعد كلمات زوجي، وكان على قوته وبأسه قد خار تماسكه، وتبلل وجهه بدموع لم أرها في حياتي، وعندها أمر السلطان بأن أخرج من وراء حجابي، وأن أمثل بين يديه، ففعلت، نظرتُ إلى الجاشـنكير حيث كان جاثياً على الأرض في قيوده، خاسئاً حسـيراً، وزوجي ينظر إليّ، دموعه تعتـذر، فلم أتمالك دموعي، لكن السـلطان غالب تأثره هو الآخر وسألني عما جرى من ذلك «الكلب»، وأشار إلى الجاشنكير في احتقار.

حاولت أن أتماسـك قدر ما أسـتطيع، وبدأت أروي قصتي منذ تلك الليلـة التـي اجتمع فيها هذا الجمع في ذات المكان قبل عشـرة أشـهر

وأربعــة وعشــرين يوماً، وما جرى بعده من أحــداث، وما وقع لي في «رواق البغداديــة»، ثــم ما كان من أمر القاضـــي عز الدين، وهروبي إلى «تكية الدراويش»، وما جرى للشــيخ ابن عطاء الله وهيفة وورد، ثم ما وقع لي والشــيخة غازية في تلك الزنزانة بالقلعة قبل أن يفرّ هذا الجاشنكير ويتركني أتلظى في جحيم عذابي.

استمع الجميع لقصتي، وزاد بكاء زوجي الذي لم يكن يعلم بتفاصيل مــا جرى لي، حــاول أن يقترب مني، لكنني جفلت منه، فانتزع ســيفه وهــم أن يقتل الجاشــنكير، لكن الســلطان حال دونــه، وكان في غاية مــن التأثر، ثم انحنى الســلطان باتجاه الجاشــنكير وقــرب وجهه منه، وملامحه تفيض غضباً:

أيهــا الكلــب، كل ما فعلته مــن جرائم وذنوب لا يقــاس عندي بما فعلتــه مع تلك المرأة المســكينة، أي دم ذلك الــذي يجري في عروقك حتــى تتباهى بجبروتك على امرأة طــاردت زوجها، واختطفت ابنها، وشرّدتها بعد عزّ، ثم لم تكتفِ بما فعلت فدنّست شرفها؟! والله إن القتل لمثلك راحة لا يجب أن ينالها.

طأطأ الجاشــنكير رأســه، ولم يســتطع حديثاً، فأخذ السلطان يدور في بهو القلعة، وكأنه يريد أن ينفث عن غضبه، أو يقول شــيئاً، ثم عاد إلينا، فبادرته بقولي:

لو تســمح لي يا مولاي، كل ما أريده هو أن أعرف مكان ابني، لن يفيدني موته، أريد ابني وحسب.

نظر الســلطان مجدداً للجاشــنكير وطلب منــه أن يفصح عن مكان

الطفل، لكنه أصرّ على صمته، فانحنيت في مواجهته، ووضعت عيني في عينه، وما أقسى أن يواجه المرء عيني قاتله، وأن يرى وجه رعبه فيهما، لكنني من أجل أن أرى وجه ابني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء، وأن أتوسل من قاتلي للمرة الأخيرة الرحمة:

أناشدك الله، أن تقول لي ماذا فعلت بابني، فقد يكون في جمع أم بوليدها مغفرة لك من الله عمّا فعلته بي، فقط قل لي ماذا فعلت بطفلي في تلك الليلة، أين يمكن أن أجده؟؟ أرجوك تكلم، بالله عليك لا تقتلني مرتين.

نظر الجاشنكير إليّ، فرأيت في عينيه غلاً لم أره في حياتي، حتى وهو في انكساره وذلّه لم يتخلّ عن تلك النظرة الحاقدة الكارهة لي:

لو استطعت أن أقتلك ألف مرة ما ترددت، لن أتكلم، وسأتركك في حياتك تتعذبين بنار البحث عن مصير ابنك، أنا أعلم أنهم سيقتلونني، سواء تكلمت أو لم أتكلم، وسيكون صمتي هو انتقامي الأخير منك، طعنتي التي ستظل تقتلك كل يوم ما بقيتِ في هذه الحياة.

لم أجد أمامي سوى السلطان، جريت نحوه كالمجنونة، جثوت أمامه، وأنا أطلب منه أن يعد الجاشنكير بألا يقتله إن هو أبلغني بمكان ابني، كانت تلك الوسيلة الوحيدة لإقناعه بأن يتكلم، وتصورت أن السلطان لن يخذلني، لكنه نظر إليّ وقال في يأس:

لن يتكلم، أنا أعلم أنه لن يتكلم، ولا أستطيع أن أتركه حياً... سامحيني.

أي سماح يمكن أن أمنحه لأحد، فقد كنت على استعداد لأن أسامح

أكثر إنسان كرهته على وجه الأرض، بل إنني أطلب له – رغم كل ما فعل بي – العفو إن هو تكلّم وأخبرني بمصير ابني، وأنت يا مولاي تطلب مني أن أسامحك لأنك لا تستطيع أن تتنازل عن بعض حقك وتتراجع عن قتله إن هو تكلم، وربما هذه هي الوسيلة الوحيدة لأعرف مصير ابني، فأي فرق بينكما إذاً، كلاكما يقتلني بإصراره على الانتقام... كلاكما يقتلني!

صرخت بتلك الكلمات وأنا لا أرى مما حولي شيئاً، تحوّل كل ما حولي إلى بقع سود تجتاحني وتقبض على رقبتي، وتنتزع أنفاسي، حاول زوجي أن يمسكني ويهدئ من روعي، لكنني التفتّ إليه وصرخت فيه أيضاً:

وأنت أيضاً تقتلني، بل أنت أول من قتلني، كلكم قتلة.. كلكم قتلتم ابني وقتلتموني.

خرجت من القلعة في تلك الليلة، وأنا لا أعرف إلى أين أسير، كنت أجري كمن مسّه الجنون، ففي تلك اللحظة فقط شعرت بأنني أمّ ثكلى، كنت أعيش على أمل أن أعرف أين ابني، فلما مات الأمل، شعرت بطعم الفقد، وكأن طفلي للتوّ انتزع مني، لاتزال رائحته في حضني، لايزال صدري يؤلمني بعدما امتلأ بالحليب من أجله، لاتزال الحمى لم تغادرني، سرت أهذي حتى وجدت نفسي عند «رواق البغدادية»، وقفت أمام الشيخة غازية، فانتفضت لمظهري، بينما كنت أهوي على الأرض.

***

عندما أفقت من الحمى، وجدت الشيخة غازية إلى جواري، تحاول كالمرة السابقة أن تذهب عني تلك الحمى، نظرت بابتسامة حانية عندما

فتحت عيني، مستبشـرة بخروجي من الحمى، وقالت لي إنني بقيت ما يزيد على أسبوع وأنا أهذي وأنادي بأسماء غامضة، بعضها لم تسمعه مـن قبل، بالإضافة إلى ندائي على ورد وهيفة والشـيخ ابن عطاء الله والقاضي عز الدين.

بقيت في الفراش عدة أيام أستعيد عافيتي ببطء، وكأنني لا أرغب في الحياة، وطوال تلك الأيام لم تغادرني الشـيخة غازية، التي صارت لـي أماً وأختاً، أخبرتني أن أمـوراً كثيرة حدثت خلال غيبوبة الحمى، فقد أمر السـلطان الناصر بقتل الجاشـنكير، فخُنق بين يديه بوتر حتى كاد يتلف، ثم سيّبه حتى أفاق، وعنّفه وزاد في شتمه، وعاود سؤاله عن مصيـر ابنك، لكنه أبى أن يتكلم حتى النهاية، فخنقه حتى مات، وأنزل على «جنوية»[21] إلى الإسطبل السلطاني فغُسل ودُفن خلف قلعة الجبل. أما سـلار فقد طلب من الناصر أن يعفيه من نيابة السـلطنة وأن يعينه حاكماً على الشـوبك، فاسـتجاب السـلطان مؤقتاً، وعين الأمير بكتمر نائباً للسـلطنة بدلاً منه، وسـافر سلار إلى الشوبك وظن أن الناصر قد عفا عنه، إلا أنه عاد واسـتدعاه إلى القاهرة وأمر بحبسـه وصودرت أملاكه وممتلكاته، ومات سـلار بالسـجن ودفن في القبر الذي كان قد أنشأه بالقرب من جامع «ابن طولون».

وقد أمر السلطان أن تُستخدم تلك الأموال المنهوبة في بناء مسجدين كبيرين فوق قبري الشيخ ابن عطاء الله السكندري، والقاضي عز الدين القيسـراني تكريماً لهما، كما أمر أن تسـتخدم تلـك الأموال في ترميم «تكية الدراويش» لتعود أبهى مما كانت.

---

(21) نقالة تستخدم لنقل الجرحى والموتى.

سـألتها من أين علمت بكل تلك التفاصيـل؟ فصمتت ونظرت نحو الباب فدخل زوجي الأمير سنجر، حاولت الشيخة غازية أن تستأذن في الخروج، لكني تمسـكت ببقائها، فحاول الأمير أن يتكلم لكنني استبقته، وقلـت إننـي لا أريد أن أعيش معه بعد اليـوم، وإن «رواق البغدادية» صار بيتي، فربما أكون قد دخلته رغماً عني، لكنني وجدتُ بين نسائه الفقيرات ما لم أجده في بيوت الأثرياء من كرم وحفاوة، ومن المروءة والشجاعة ما حُرم منه كبار الأمراء.

آلمتـه عبارتي الأخيـرة وقد أدرك معناها، حاول بطرق شـتى أن يسـتعيدني، واسـتعان بالشـيخة غازية التي حاولت هـي الأخرى أن تقنعنـي بالعـودة إلى حياتي، لكـن تصميمي على قراري لـم يلن، فقد وجدت هنا حياتي، وعثرت على نفسـي بعدما ضاعت مني في دروب الدنيا أكثر من مرة.

استسـلم زوجي راضخاً لمشيئتي، وأبلغني أنه قرر لي نفقة كبيرة سيرسـلها لـي مطلع كل هـلال لتعينني علـى عيش أفضـل من حياة الرواق، كما قرر أن يوقف لي أرضاً كبيرة منحها له السـلطان لتكون عوناً لي إذا أصابه شـيء، فطلبتُ منه أن يبني على تلك الأرض ميتماً ومدرسـة لتعليم الأطفال، فهذا ما أحتاج إليه ويصلح لأن يكون ذخري في المستقبل، فإن كنت لم أستطع أن أجد ابني، فربما أجده في كل يتيم يؤويـه ذلك الميتم، وإن كنت لا أسـتطيع أن أمنحه مـا كنت أتمناه كأمّ فسوف أوزع ما ادخرته له على أطفال تلك المدرسة.

وافق الأمير صامتاً، وانسـحب في هدوء، انسـكبت دموعي تغسل بعضـاً من الأحزان التي لاتـزال تحاصر القلب، احتضنتني الشـيخة

غازية، بكت معي طويلاً، نظرت إليها من وراء دموعي، وقلت لها:

الآن يمكن أن نستعيد ابني وأبناء هيفة الذين ضاعوا لأنهم لم يجدوا من يرعاهم، قد لا نستطيع أن نواجه القدر أو نغيره، لكننا على الأقل يمكننا بعمل مخلص أن نجعله أرفق بالضعفاء.

***

تغيرت حياتي منذ تلك اللحظة، عشت لفترة بعدها لا أغادر الرواق إلا إلى الميتم والمدرسة، وأحياناً أذهب والشيخة غازية إلى التكية، فقد أصبحت شيخة الفقيرات في مصر كلها، وكل جمعة نذهب سوياً لنزور قبور ورد وهيفة، والشيخ ابن عطاء الله والقاضي القيسراني، ثم نعود إلى «رواق البغدادية»، الذي تغيرت سمعته في الآونة الأخيرة، فتحسنت الخدمة فيه كثيراً، ولم يعد سجناً للأرامل والمطلقات، بل دار رعاية للفقراء منهن ممن لا يستطعن الإنفاق على أنفسهن، وقد طلبت مني الشيخة غازية أن أكتب ما جرى لنا، حتى لا تضيع قصتنا هباء، وليعلم من يأتي بعدنا أن امرأة ضعيفة أنصفها القدر، وأذل من ظلموها، فالظلم ظلمات في الدنيا والآخرة.

تفرغت لكتابة هذه الأوراق، وسوف أودعها «رواق البغدادية»، ليعلم من قد تصل إليه في زمن قادم لا أعلمه أن النساء لسن مجرد ضلع أعوج يسهل كسره كلما أراد البعض أن يستعرض قوته وجبروته، فالضلع الأعوج يمكن أن يتحول، إذا ما ذاق الظلم، إلى سيف يطيح برقاب ظالميه، وليعلم من يقرأ تلك الأوراق أياً كان وفي أي زمان كان أن الله يمهل ولا يهمل.

(53)

القاهرة، 30 يونيو 2013

رماد.. هو كل ما تبقى من حياتي بعد حرائق الأمس القريب.

ميـراث الندم صـار يحيط بي مـن كل اتجاه، في عملـي، وحياتي الخاصة، لا أستطيع منه فكاكاً، ولا هو يريد أن ينضب، أو تخبو جذوته.

حتى تيار الحياة الهادر الذي ألقيت نفسي تحت سنابكه علّه يدفعني إلى حافة النسـيان، فشل هو الآخر في أن يمنحني السلوى التي أردت، بل ربما ضاعف جراحي واحتراق أعصابي.

أطلُّ على مشـهد الجنون الذي تعيشـه البلاد فأشعر بأنني بتّ أقف وسـط أحراش، يتصارع سكانها من أجل لا شيء، حتى غريزة البقاء لم تعد ذات قيمة، فلا القاتل يعرف سبباً واضحاً لإقدامه على قتل أخيه، ولا المقتول يدرك قبل أن تزهق روحه لأي غاية قد قُتل؟

لكننـي ورغم كل هذا الجنون كنت أشـعر بحالة من الانفصال عن الوجود، كأنني أشـاهد ركام مدينة لا أنتمي إليها، متحف تتراص على جانبيه هياكل من أعماق التاريخ لا أرى فيها سوى عبرة الزمن الغابر، ولا أشعر للحظة بأنها تنتمي إليّ أو أنتمي إليها.

جسـد بلا روح، مجرد قشرة بشرية تحمل ملامح إنسان يعيش في انتظــار أمر مجهول، ربما يكون ما أترقبه هو الموت، وربما نسـيني الموت بعدما كان، فلم أعد ذا قيمة لديه، فقد نفذت إرادته، وحقق هدفه، وتركني ميتاً يمشي على قدمين.

حاولــت أن أضاعـف انشـغالي بعملي، علّـه يجتذبنـي بعيداً عن شـواطئ الذكـرى، وحتـى لا أجدني مـرة أخرى أحوم حـول مرافئ الماضي المؤلم، لكنني لم أعد أجد لنفسـي وطناً سـوى ذلك الماضي، بين موجاته أتنفس، وبعيداً عنه يدهمني طعم الغرق.

دون جدوى حاولت التواصل مع ريم، لم أكن أريد سوى الاطمئنان عليها، لكنها كانت قد اختارت العزلة عن العالم كله، تلمّسـت إليها كل سبيل، لكن في كل مرة كنت أواجه مرارة وخيبة فتتراكم أحزاني.

أيقنـت أن تلـك كانت نهايتنا، وأن محاولة إيقـاظ الماضي نوع من النبش في القبور، فآثرت احترام حرمة القلوب الكسيرة، ورفعت راية اليأس، تاركاً للقدر الدفة يوجهها أنى شاء.

فـي تلك الأيام كانت مصر تغلي بموجة جديدة من الغضب، فخيبات الأوطان تماماً مثل خيبات البشر، تورث الغضب، وتورد موارد الهلاك.

مرة أخرى عاد الناس إلى الشـارع بعدما فقدوا الأمل في أن يجدوا لصرخاتهـم آذاناً مصغيـة، فالخطايا تتكرر بأسـرع ممـا تخيل أحد، والأقنعة تتسـاقط فتكشف وجهاً قبيحاً لمسـتقبل لم يخطر على بال من انتفضوا بالأمس بحثاً عن وطن بلون الحرية وملمس الكرامة.

في ذلك اليوم نزل الملايين إلى الشوارع مجدداً يبحثون عن ثورتهم المسـروقة، ومسـتقبلهم الذي يتهدده الذئاب، احتمى الناس مرة أخرى بأنفسـهم، رفعوا أصواتهم بهتـاف ظنوه ضاع سـدى. أجواء «ميدان

التحريـر» تعـود مجـدداً، معظم الوجـوه التي نزلـت أول مرة تنزل ثانية، كنت أشـعر بمكاني فارغاً وسطهم، لكن القلب كان مثخناً بأثقال الماضي، ولا توجد به مساحة لحلم، قد يتحول إلى وهم جديد.

لم أستطع اقتراباً، كما أنني لم أطق الابتعاد تماماً عن ذلك المشهد، فرحيق الانتصار الأول لايزال له في القلب أثر وإن تلاشى كثيراً بفعل الخيبـات السـابقة، فاكتفيت بـأن أقترب على وجل، قـررتُ أن أكتفي بالمتابعـة في إطـار عملي الصحفي، لكنني لم أتحمـل ثقل العودة إلى «ميـدان التحرير»، واختـرت ميداناً آخر لمواجهة ذاتـي، ذهبتُ إلى «الاتحادية»، فهناك اختلط دمي بدمها، وهناك بقية منها، حتى ولو كان كل ما تبقى منها ذكرى الألم.

ما أشـبه اليوم بأمس قريب، الناس تنزل من البيوت، تتدفق من كل صـوب، كباراً وصغـاراً كأنهم يخرجون لنزهة، أنـاس لم يكونوا هنا بالأمس، لكنهم اختاروا النزول، الكل يستشـعر الخطر، لكنهم يدركون أن عواقب الفشل أفدح بكثير مما قد يواجهونه من خطر.

قررتُ أن أسـير على «درب الآلام»، أن أستعيد خطوات الأمس، أن أتحدى نفسـي وكأنني أجلدها بتلك المشـاهد غيـر البعيدة، فأتطهر بسياط الذكريات.

ترتعـد خطواتـي، وأنا أتّجه إلى ذلك المكان الـذي كنتُ أقف عنده قبل أشهر، أتحرك وسط أرتال المتظاهرين بصعوبة، لكنني أصرّ، تقع عينـاي على ذلك المـكان، أرتجف، تعصيني قدماي، لا تريد التحرك، أخشـى مواجهة نفسـي، لكنني أصرّ، أتحرك، حبات العرق تنهمر من داخلي قبل أن تكسـو وجهي، أشـعر باختناق، يفور بداخلي شـيء ما، تتصاعد ضربات القلب، أكاد أسـمع لوقعها دبيباً، أصعد خطوات إلى ذلـك المكان المرتفع بصعوبة كأنني أتسـلّق جبـلاً، وعندما أصل إلى

نهايتـــه أتوقــف، أنظر إلى الحشـــود من حولي، تبدو بـــلا نهاية، لكنني أشعر بأنني أقف وحيداً، تتجمد ذاكرتي، أستعيد تلك اللحظات العصيبة، كل المشـــاهد لاتزال حية، لم تنطمس معالمها، حتى مواضع الضربات تســتعيد إحساســـها بالألم، كأنني لا أريد أن أفارقك، لا أريد أن تتسرب آخر لحظاتي معك، ولو كانت مشحونة بالألم.

أنفصل فجأة عن الزمان والمكان، أراني أنا وهي فقط في الميدان، أحـــاول أن أغيــر الماضي ولـــو بحلم لا يتحقق، كم أشـــتاق إلى وجهك الحبيب، حتى ولو كان مثخناً بالجراح.

تتعالى الهتافات من حولي، فأفيق على الحقيقة القاســـية، إنها ليست هنـــا، كل تلك الحشـــود لا تعنيني، فقط وجهها هو مـــا أبحث عنه دون جـــدوى، كل ما عداك زيـــف، والدنيا من دونك ســـراب، فأنت الحقيقة الوحيدة في حياتي.

أشـــعر بضيق من كل ما حولي، أقرر الخروج والانســـحاب طاوياً جراحـــي مجدداً، أحاول الخروج من الميدان دونها، لكنني فجأة أشـــتمّ ريحها، كأنني والد يوسف، أتلفّتُ في كل اتجاه، علّها تأتي وتلقي على وجهي قميص عودتها فأرتد بصيراً!

أتحرك بعصبية، ينظر إليّ الناس وكأنني مجنون، إنه حقاً الجنون، أن أجـــد ريحها في هـــذا المكان وأنا على يقين أنهـــا الآن تكابد عزلتها وانهزامهـــا، بينما أقف أنا في موضع انكســـارها، وميـــدان تناثر على وجهه أشلاء تماسكها.

في تلك اللحظة أيقنت أنه قد مسّـــني الجنون، وتهاوى بداخلي صنم العقـــل، الـــذي ظللتُ أعبده لســـنوات طويلة، وقتلتُ فـــي محرابه حبي الوحيـــد، آن الأوان أن أذوق طعـــم الجنون، فلا حـــبّ بغير جنون، ولا

شفاء بغير حبّ.

في تلك اللحظة أيضاً، تجسّد جنوني لحماً ودماً، فقد رأيتها!

نعم رأيتها، لفترة لا أدري مداها ظللت أحدّق فيما أرى، أيقنت أنني بلغت مبلغاً بعيداً من ضياعي، فقد تجسّدت لي ريم تقف وسط زمرة من المتظاهرين، يتعالى صوتها بالهتاف، تماماً كما الأيام الخوالي، لم أشأ أن أغمض عيني حتى لا تضيع صورتها من صفحة خيالي، لا أريد لهذه اللحظة أن تنتهي حتى ولو كانت وهماً، فما أجمل الأوهام معها، وما أقسى الحقائق دونها.

لكنها لم تكن وهماً أو من صنع جنوني، كانت ريم حقيقة واقعة!

وكأنها تولد من رحم المستحيل، فتطل شعاعاً يتردد في أفق الكون منذ آلاف السنين، تأتي إلى ميدان انكسارها لتهزم هزيمتها، وتتحدى خوفها، تنتقم لآلاف النساء عبر التاريخ ممن سحقهن الطغيان، تثأر لخوند فرح وهيفة والشيخة غازية وورد، تأبى أن تجرجر آلامها وتنسحب، تعود لتنتفض في وجه ظالميها، صرخة مدوية بعمق التاريخ وبطول أيامه البعيدة.

وقفتُ أمامها صامتاً، عاجزاً، هشاً، كأنني أمام آية من آيات الكون لا يستطيع المرء في حضرتها سوى أن يتبتل في خشوع.

التقت عينانا، فرأيت سحابات الحزن لاتزال تحاصر روحها، لكنني في عمقها رأيت شمساً تشرق من بعيد، تعلن عن ميلاد جديد مهما تكاثفت حولها الغيوم.

ابتسمتْ...

فأيقنت أنه يوم الانتصار.

تنويه:

الأسماء والوقائع الواردة في هذا العمل، سواء في الماضي أو في الواقع المعاصر، هي جزء من عمل أدبي من نسج خيال المؤلف، ولا تعدُّ بأي حال من الأحوال تأريخاً أو تسجيلاً للواقع، حتى وإن تماسَّت في بعض الأحيان مع ذلك الواقع.

جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 18 | 2014

الفائز الأول في مجال الرواية

أسامة السعيد

مصر

- ماجستير الإعلام من قسم الصحافة بكلية الإعلام، جامعة القاهرة.
- صحفي بمؤسسة أخبار اليوم ومنتج تلفزيوني.

من إصداراته :

- هيت لك - مجموعة قصصية ٢٠١٤م.
- ما قبل السقوط - ٢٠١٣م.